

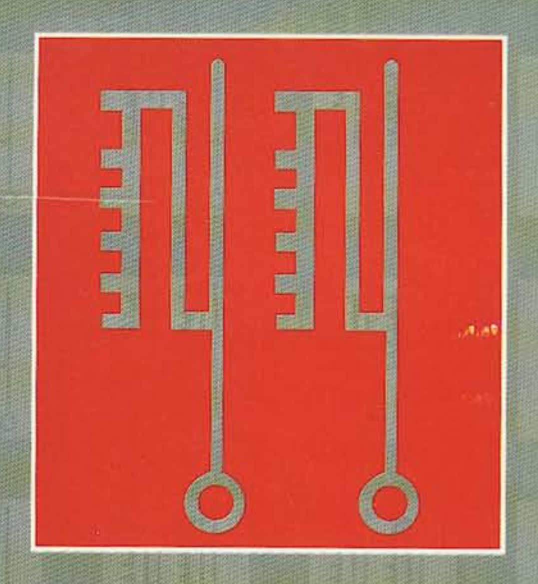
منشورات جمعية تطاون - أسمير

محمد الشريف

سبتة الإسلامية

دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي

(عصر الموحدين والمرينيين)



تقديم: الدكتور امحمد بن عبود



سلسلة دراسات

الدكتور محمد الشريف

سبتة الإسلامية

دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي

(عصر الموحدين والمرينيين)

(طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)



الطبعة الأولى، تطوان 1996

الطبعة الثانية، الرباط، 2006

الإيداع القانوني: 2006/590

ردمك: 4-0-8671-9954

صورة الغلاف : راية سبتة قبل الاحتلال البرتغالي

تقديم الطبعة الثانية

تصدُر الطبعة الثانية من كتاب "سبتة الإسلامية" بعد انصرام عقد من الزمن على صدور طبعته الأولى التي افتتحت بها جمعية تطاون - أسمير سلسلة منشوراتها العلمية؛ وقد شارفت الآن على السبعين عنوانا. وكان للكتاب، إثر صدوره، صدى إيجابي والحمد لله، ولقي عناية لدى المهتمين بتاريخ المغرب عامة، ولدى المهتمين بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي بصفة خاصة. كما لقي الكتاب إقبالا خاصا لدى مغاربة سبتة المحتلة، الذين وجدوا فيه بعض ما يؤكد الهويّة المغربية لمدينتهم، وارتباطها العضوي بوطنهم الأم المغرب.

ولما نفذتْ الطبعة الأولى منذ سنوات، ارتأينا إعادة طبع الكتاب بعد تنقيحه وتحوير عنوانه جزئيا، وإغناء معطياته التاريخية بما توفر لدينا من معلومات جديدة، معتمدين في ذلك على أحدث الدراسات العربية والأوربية، كما استندنا في تدقيق بعض القضايا على نصوص المصادر التي اكتشفت مؤخرا. ويجد القارىء لائحة مفصلة بهذه الدراسات في بيبليوغرافية الكتاب.

ونأمل أن ينتفع بهذه الطبعة الجديدة قراء جدد لم يتح لهم الاطلاع على الطبعة الأولى، والله تعالى ولي التوفيق.

تطوان،7 محرم الحرام 1427 (2006/2/6)

محمد الشريف

أستاذ التعليم العالي- جامعة عبد المالك السعدي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان

مقدمة الطبعة الأولى

هذه الدراسات التي أضعها بين يدي القارئ الكريم، هي في أصلها فصل من دراسة شاملة لمدينة سبتة على عهد الموحدين والمرينيين، قدّمتُها بجامعة (تولوز لوميراي) الفرنسية لنيل دكتوراة السلك الثالث، سنة 1987، وحصلت على ميزة "حسن جداً بالإجماع"، مع التوصية بالطبع[1]. ولقد ارتأيت نقل الفصل الثالث، المتعلق بالاقتصاد والمجتمع، إلى اللغة العربية. ولم أُدخل على النص الأصلي سوى تغييرات طفيفة. كما آثرت حذف بعض الإحالات والمقاطع والاستطرادات التي قد تثقل النص العربي الذي أريده أن يخاطب المختصين، وعموم القراء.

ولا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأصدقاء الذين لم يترددوا في مساعدتي على إعداد هذا الكتاب، تصحيحاً ومناقشة. وأنوه بمجهودات الأستاذ أحمد أوطاح، والسيد محمد الشبابي اللذان أوليا عناية خاصة بهذا العمل. كما أشكر جمعية تطاون - أسمير التي تولت طبع هذا الكتاب ضمن منشوراتها. وحريّ بنا أن تعمل الجمعيات، والهيئات، والمؤسسات الأخرى، على نشر الأعمال الجامعية، حتى لا تظل أسيرة الرفوف، عرضة للقرصنة، ولقرض الفئران. والله الموفق.

محمد الشريف، (تطوان، 21 - 12 - 1995)

---

1 - تولتْ دار النشر (لارْماطان) بباريس طبع هذه الأطروحة، وأصدرتها تحت عنوان :
Mohamed CHERIF, *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, Préface de Alain Ducellier, Paris, L'Harmattan, (Histoire et perspectives Méditerranéennes), 1995.

تقديم

بقلم الدكتور امحمد بن عبود

يسعدني أن أقدّم كتاب " سبتة الإسلامية : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، لصاحبه الأستاذ محمد الشريف، الذي يُعد من العناصر النشيطة، والمنتجة في شعبة التاريخ بكلية الآداب بتطوان.

إذا كان المجهود والعمل الجدّي في الحقل العلمي هما مقياس التطور، فهذا ما نسجله بشكل ملحوظ ومشرف على الأستاذ محمد الشريف من خلال مشاركاته الجادّة في عدد من الندوات بالجامعات المغربية والأجنبية، (مراكش، فاس، مكناس، تونس، غرناطة، السوربون، تولوز...)، كما يتضح نشاط صاحب هذا الكتاب في عدد من المقالات التي نشرها في المجلات التاريخية المتخصّصة في المغرب، وفي فرنسا، وإسبانيا، وتونس، والمشرق العربي. وينفرد محمد الشربف بعلاقاته الوطيدة مع عدد من الجامعيين الفرنسيين البارزين المتخصصين في التاريخ الوسيط. وأتنبّأ للمؤلف بمستقبل زاهر في مجال البحث العلمي، لأنه اكتشف طريقه، وأدرج برنامجه العلمي ضمن الأولويات، وارتبط بعدة شبكات للبحث العلمي، حتى أصبح مطلوباً بصفته من الجامعيين المغاربة القلائل المتخصصين في التاريخ المغربي والأندلسي خلال عصر الموحدين. ونرجو أن يكمل مشوار الأستاذ محمد زنيبر، رحمه الله، الذي كان معروفاً بعشقه لهذه الحقبة التاريخية.

يعتبر الكتاب الذي أقدّمه للقارئ الكريم من أحسن الدراسات الصادرة باللغة العربية حول تاريخ سبتة خلال عصريْ الموحدين والمرينيين. فهي

دراسة تتميز بالتجديد المنهجي، وتعكس التعب الفكري الذي يُشترط في كل دراسة جادّة ومجدّدة. كما تتميز بتوثيق متين. ويعكس تقويم المؤلف للمراجع اطّلاعه الواسع على أحدث الدراسات الأوربية حول تاريخ سبتة، كما طبع تقويمه المذكور بروح نقديّة صارمة.

وأحسن المؤلف اختياره لما حدّد موضوع الكتاب في الجانب الاجتماعي والاقتصادي لمدينة سبتة خلال عهديْ الموحدين والمرينيين، وهو جانب أهمله الباحثون المهتمون بسبتة. وربط المؤلف تاريخ سبتة بالمغرب والأندلس وحوض البحر المتوسط، ولكنه حدّد الحقبة المدروسة تحديداً دقيقاً، فقدّم صورة منسجمة ومتكاملة للحياة الاجتماعية والاقتصادية لسبتة الإسلامية، وجمع بذلك بين التوجّهات العامة، والمحاور الدقيقة، كمشكلة الرّي، وعقود الاستغلال الفلاحي، ومشكلة الضرائب، ومشكل المياه، والسكن، والأكل، واللباس، وغيرها من العناصر التاريخية المرتبطة بالاقتصاد والمجتمع السبتيَيْن، فأخذ الكتاب طابعاً واقعياً.

يمكن إدراج هذا الكتاب ضمن الدراسات المغربية والأندلسية في آن واحد، لأن سبتة تأثرت كثيراً بالأندلس، ثقافياً وحضارياً وروحياً.

نرحّب بهذه الدراسة مساهمة في إغناء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي المغربي خلال العصر الوسيط، ونرجو أن تلقى ترحيباً حاراً من طرف المهتمين بالموضوع من الباحثين الجامعيين والطلبة والمثقفين المتنورين عامة.

الدكتور امحمد بن عبود
أستاذ التعليم العالي/ كلية الآداب بتطوان

على سبيل التمهيد :

توجهات البحث في تاريخ سبتة

ما فتئت المدينة العربية الإسلامية تثير اهتماماً كبيراً لدى الدارسين، عرباً وأجانب. فالندوات واللقاءات العلمية الكثيرة التي خصصت لها مؤخراً، قدمت للمهتمين الإطار العام لهذه المدينة، وأوضحت كثيراً من خصائصها المشتركة. ومع ذلك، فإن تاريخ كثير من المدن العربية ما يزال مجهولاً. وإذا كان هذا الحكم ينطبق على المدينة العربية بالمشرق الإسلامي التي أولاها الباحثون اهتماماً خاصاً منذ بداية القرن الماضي، فإنه يصبح حقيقة صارخة عندما يتعلق الأمر بالمدن المغربية في العصر الوسيط. فالمحاولات القليلة التي رأت النور في منتصف القرن العشرين، اهتمت أساساً بتاريخ المدن العواصم (فاس - مراكش). وتبقى كثير من المدن بحاجة إلى دراسات ومنوغرافيات معمقة، لفتح المجال أمام المحاولات التركيبية لتاريخ المدينة المغربية.

إن مدينة سبتة التي لم تكن عاصمة سياسية، والتي لم يرتبط مصيرها بمصير دولة معينة من الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، كان لها تاريخ ذو أهمية خاصة. فقد لعبت بفضل موقعها الجيو - استراتيجي الهام على مضيق جبل طارق، دوراً محورياً في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، وفي تاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية، وتاريخ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فالمدينة كانت بوابة المغرب نحو العالم الخارجي، ومعبراً من معابر التاريخ الكبرى بين أوربا وإفريقيا. فقد سمح لها موقعها الجغرافي المتميز أن تصبح إحدى المراكز الرئيسية في التجارة المتوسطية، والمنفذ الأساسي للتجارة الخارجية المغربية على الواجهة المتوسطية. ولقد تمتعت المدينة لمدة طويلة باستقلال ذاتي،

يؤشر على أهميتها كإحدى النقط الرئيسية لمنطقة مضيق جبل طارق، في فترة كانت الهيمنة على هذا الأخير رهاناً تتنافس من أجله القوى المسيحية (قشتالة - أرغون - جنوة)، والقوى الإسلامية (المغربية - النصرية). كما أن المدينة ظلت على امتداد تاريخها الإسلامي ممراً للفتح والجهاد بالأندلس، حتى أنها سميت بـ"باب الجهاد"، و"فرضة المجاز"، و"محل أساطيل المسلمين". بالإضافة إلى أنها كانت إحدى المراكز العلمية المشعّة الكبرى في تاريخ الثقافة الإسلامية، لما أبدعه أعلامها من نتاج علمي، ولما ساهموا به من معرفة، غطت جميع الميادين.

إن هذه الأهمية التي تمتعت بها مدينة سبتة، محلياً ودولياً، جعلتها تستأثر بنظر كثير من الدارسين، حتى أن المكتبة العربية أصبحت غنية نسبياً بالدراسات "السبتية". فبيبليوغرافية المدينة تعد الآن من أهم البيبليوغرافيات المتوفرة حول ماضي مدينة مغربية وسيطية. فتحقيق مؤلفات علماء سبتة، ونشر تراثهم (أو إعادة نشره)، وتنظيم الندوات والملتقيات العلمية، وإنجاز الرسائل والأطروحات الجامعية، داخل المغرب وخارجه[2]، ظاهرة تلفت الانتباه خلال السنوات الأخيرة، وتدل في نفس الوقت على خصوبة ميادين البحث التي يقدمها تاريخ المدينة؛ خصوصاً وأنه يقدم عناصر الإجابة على كثير من الإشكالات التاريخية التي يطرحها تاريخ المغرب، وتاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية. هذا بالإضافة إلى أن المدينة شهدت ميلاد ظواهر تاريخية حاسمة في التطور التاريخي لبلاد المغرب، بمختلف أبعادها السوسيو- دينية؛ مثل ظاهرة

[2] - بغض النظر عن الرسائل والأطروحات التي اتخذت إحدى الشخصيات العلمية السبتية أو تحقيق التراث السبتي موضوعاً لها، فإننا نذكر أعمال كل من إسماعيل الخطيب، محمد الشريف، زليخة بن رمضان، محمد الغازي، حليمة فرحات، طوريس سانطوس، موسكيرا كارمن، ديلفينا سيرانوا...، أما المصادر فقد أفردناها بدراسة نقدية في كتابنا الآتي الذكر، والصادر عن دار النشر لارماطان بباريس.

"**الشرافة**"*chérifisme*، و"**الاحتفال بعيد المولد النبوي**"، و"**مؤسسة المدرسة**"؛ الأمر الذي يجعل من تاريخ المدينة "مختبرا"[3] لتتبع نشأة وتطور بعض الظواهر التي حددت مسار التاريخ المغربي، وفي نفس الوقت ميداناً خصباً لفحص إجرائية مختلف المناهج المستمدة من العلوم الاجتماعية المعاصرة.

إن صعوبة حصر بيبليوغرافية سبتة تأتي من كون تاريخ المدينة يندمج اندماجاً كبيراً في تاريخ المغرب، وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، وتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية[4]. فالإلمام بالكتابات المتعلقة بالمدينة يقتضي الاطلاع على تاريخ المنطقة كلها، وهو الأمر الذي يتجاوز مقدرة باحث منفرد؛ خصوصاً وأن الأدوات البيبليوغرافية المتوفرة تشكو من نقص في المعلومات، وعدم الانتظام في توفرها. فنحن لا نتوفر على أي دليل بيبليوغرافي، أو نشرة "منتظمة" متعلقة بالإصدارات التاريخية حول تاريخ المغرب، وبالأحرى تاريخ سبتة. أضف إلى هذا وجود شبه قطيعة بين الباحثين العرب (والمغاربة خاصة) المهتمين بتاريخ المدينة والباحثين الغربيين (والإسبان خاصة). فخيط التواصل يكاد ينعدم بين الصنفيْن. فلا الإسبان مطلعون بما فيه الكفاية على الدراسات العربية، ولا الباحثون العرب على علم ودراية وثيقة بالدراسات الإسبانية حول المدينة[5]. وهذا الجهل أو (التجاهل) المتبادل لا يقتصر على الدراسات العامة فقط، وإنما نلحظه حتى في الدراسات المتخصصة، وفي الأطروحات الجامعية.

3- Halima Ferhat, *Sabta des origine au XIVe siècle*, Rabat, 1994, p p. 15, 468

4 - Halima Ferhat,"Sabta, état biblographique", *Hespéris-Tamuda*, 28, 1990, p.164

5 - تمثل دراسات العرب والإسبان ما يقرب من 89% (46.4% و42.22% على التوالي) من مجموع الدراسات التي أحصيناها حول المدينة والبالغ عددها 405 عنوانا. انظر الهامش التالي.

التوجهات والآفاق

إن الملاحظات التالية لا تدعي إعطاء مسْح شامل وتامّ للنتاج التاريخي الذي يتمحور حول موضوع سبتة، ولا القيام بفحص دقيق لمنطلقاته المنهجية، وإنما تطمح إلى تقديم توضيحات مقتضبة عن التوجهات الحالية، والآفاق المحتملة للدراسات السبتية، كما تستخلص من جَرْد بيبليوغرافي لما يزيد عن 400 عنوان مرتبط مباشرة بتاريخ سبتة، منذ نشأتها حتى سقوطها بيد البرتغاليين سنة818 هـ/ 1415 م[6]. إذ نعتقد أنه من المستحسن أن يتم الوقوف على التوجهات العامة، قصد إجراء مقارنات بين الأبحاث والمقاربات المختلفة، عوض تقديم لائحة تصنيفية إحصائية لبيبليوغرافية المدينة، قد نجدها مثبتة في لائحة مراجع هذه الدراسة أو تلك.

سبتة "ما قبل الإسلام" :

حضور البحث الإسباني وغياب نظيره المغربي

اتجهت أنظار الباحثين الإسبان بصفة أساسية لتاريخ سبتة ما قبل الإسلامية[7]. فهناك أطروحات شاملة ودراسات قطاعية لهذه الفترة، تعتمد أساساً على نتائج الحفريات الأثرية، وبصفة ثانوية على نصوص المؤرخين اللاتينيين الكلاسيكيين. إنها دراسات غنية ومتباينة المواضيع، ترمي إلى توضيح ظروف

6- Cherif M., "Ceuta dans les écrits récents", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII, 1994. وتوجد جميع الدراسات المشار إليها في المتن بإحالاتها الكاملة في الجرد البيبليوغرافي المثبت في هذا المقال. أما مصادر تاريخ المدينة فقد خصصنا لها دراسة نقدية مفصلة في كتابنا : Cherif M., *Ceuta aux époques almohade et mérinide,* op. cit.,1995

7- من بين 170 عنواناً باللغة الإسبانية هناك 102 عنوانا (أي 60%) متعلقاً بالتاريخ القديم للمدينة.

نشأة المدينة، والأساطير والخرافات المصاحبة لها، كما تسطر تاريخها السياسي منذ ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر البيزنطي، مروراً بالعصر الفينيقي والروماني والوندالي. وتبرز دور المدينة في المبادلات التجارية في مضيق جبل طارق، على ضوء نتائج الحفريات الأركيولوجية، أو التنقيبات في أعماق البحر، وتبحث في صناعاتها، وخزفيتها، وفي مسكوكاتها، كما تدقق في أصل تسمية المدينة، وطبونيميتها، وطبوغرافيتها الكلاسيكية، وجغرافيتها التاريخية، ومشاكل تزويدها بالماء... إلخ[8]. إن هذه البحوث تتزايد في الوقت الحاضر، ولكن نظراً لتبايناتها المنهجية، والطابع التقني الدقيق لأكثريتها، فإنها لم تقدم حتى الآن، إلا القليل من الأعمال التركيبية.

إن أسباب هذه الأهمية المعطاة لتاريخ "سبتة ما قبل الإسلام" من لدن الباحثين الإسبان مرتبطة بدون شك بالدينامية التي يعرفها البحث التاريخي بإسبانيا حالياً، وبالإمكانات المتوفرة، وعلى رأسها وجود مؤسسات علمية مشجعة في عين المكان[9].

على أن هذه الأسباب تتجاوز قطعاً نطاق الاهتمام التاريخي العلمي الصرف، لتلامس أرضية **الإيديولوجية الإستعمارية الإسبانية**. فهناك توجه قار في الدراسات الإسبانية يرمي إلى إيجاد ما يسمى بروابط "الاستمرارية" بين سبتة "القديمة"، وسبتة "الإسبانية". ومن هذا المنطلق لا تشكل الفترة المغربية

8- نعطي بعض الأمثلة لهذه الدراسات علماً بأن البيبليوغرافية الكاملة يمكن الاطلاع عليها في دراستنا المشار إليها في الهامش 6.

9 - إن «مركز الأبحاث السبتية» الذي أسسته بلدية سبتة عام 1969 يعد من أنشط مراكز البحث الإسبانية، حيث نشر عددا كبيرا من المؤلفات سواء في سلسلة «دراسات تاريخية» أو في سلسلة «إصدارات القاعة الأركيولوجية البلدية". هذا بالإضافة إلى إصدارمجلتين متخصصتين في تاريخ المدينة هما "*Tranfretana*" (مجلة معهد الدراسات السبتية) ومجلة "*Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta*"

الإسلامية إلا مرحلة عارضة، لا تحظى باهتمام هذه الدراسات الإسبانية. إن عناوين بعض الدراسات، فضلاً عن مضمون أغلبها، تعبر عن ذهنية هذا التوجه في الدراسات الإسبانية ومراميه[10]. وإلا فكيف نفسّر كون الفترة الإسلامية لا تحظى إلا بحظ يسير جداً من الدراسات الأركيولوجية، بينما باطن الأرض السبتية يغصّ بالبقايا الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة، وهي البقايا التي لا تلقى سوى الإهمال، باعتراف الأركيولوجيين الإسبان أنفسهم[11].

وعلى عكس هذا الاهتمام بسبتة "الما قبل إسلامية" من طرف الباحثين الإسبان، يظهر أن نفس الفترة التاريخية لا تثير بتاتاً اهتمام زملائهم المغاربة. إنه لمن اللافت للانتباه ذلك التغييب التام لعصور "ما قبل الإسلام" في الدراسات المغربية والعربية عموما. إن هذا الإهمال نلاحظه حتى في الأطروحات الجامعية. فآخر دراسة مغربية صدرت حول سبتة - وهي دراسة الأستاذة حليمة فرحات، التي تحاول تتبع تاريخ المدينة "منذ النشأة" إلى القرن الرابع عشر[12] - لا تخصص سوى عشرين صفحة من عمل ضخم (حوالي 500 صفحة)، للكلام عن أصول المدينة، وكل تاريخها السابق عن ظهور الإسلام. ويظهر أن الباحثة المغربية لم تأخذ بعين الاعتبار النتاج التاريخي الإسباني الغني والمتنوع حول هذه الفترة. أما باقي الدراسات العربية فإنها لا تتعرض لتاريخ المدينة السابق عل الإسلام إلا على سبيل التمهيد لدراسة الفترة اللاحقة. وهذا التمهيد الذي لا يتعدى بضعة أسطر في أغلب الأحيان، يعيد صياغة ما سطّره المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء، بما

10- -Gordillo Osuna, M., "Continuidad hispánica de Ceuta", *Africa*, N° 246,1962
- Schiriqui David y Manuel Leria, *Ceuta antigua y moderna*, Ceuta, 1965.
- Martin Lunas, F., *Ceuta, historia de una ciudad española, Malaga*, 1982.

11 - - Carlos Posac Mon, "Datos para la arqueologia musulmana de Ceuta", *Hespéris- Tamuda*, vol. 1, 1960, p. 159 - 160

12 - Halima Ferhat, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Rabat, 1994.

في ذلك الأساطير والخرافات المصاحبة لأخبارهم. ولا عجَب أن نجد ندوة مغربية جامعية تحمل عنوان "سبتة : التاريخ والتراث"[13] لا تتطرق مداخلاتها بتاتاً لتاريخ المدينة السابق على ظهور الإسلام.

إن أسباب هذا النقص في الدراسات المغربية كثيرة. يجب أن نشير أولا إلى الإهمال الذي نوليه لفترة تاريخية انتهت مع ظهور الإسلام؛ وكأن الاهتمام بالفترة الإسلامية يتمّ على حساب الفترات السابقة لها. ومما له مغزاه، هو ذلك الإهمال الذي يوليه التقليد الإستوغرافي المغربي لتاريخ المغرب القديم الذي يكاد يصبح في نهاية المطاف تاريخاً مقصياً من التاريخ الوطني[14]. وينضاف إلى مختلف هذه الأسباب، سبب آخر موضوعي، يتمثل في المعرفة الضَحْلة التي نتداولها، منذ فترة طويلة، حول هذه الفترة. إن الوثائق المستعملة في الدراسات العربية ما تزال تستند على الشهادات الأدبية الكتابية. ويجب أن نشير إلى الصعوبات التي تعترض الباحث المغربي، لأسباب متعددة، للحصول على المعطيات والمعلومات النابعة من الحفريات الأركيولوجية السبتية. فقد أضحت هذه الأخيرة حكراً على الباحثين الإسبان، منذ أن استولت إسبانيا على مقاليد المدينة المغربية.

سبتة الإسلامية :

ندرة الأبحاث التاريخية وهيمنة البعد الثقافي

في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار الباحثين الإسبان إلى تاريخ مدينة سبتة السابق على الإسلام، سيتخذ الباحثون العرب، والمغاربة، الفترة الإسلامية ميدان بحثهم المفضل. لقد عرفت عملية نشر مؤلفات العلماء السبتيين في

13 - نشرت أعمال الندوة بمجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 3، 1989.

14 - Clément, J. F., "L'historiographie récente au Maroc", *Lettre d'information de l'AFEMAM*, 2.1987.

السنوات الأخيرة نشاطاً نوّه به المهتمون بحقل الدراسات المغربية والإسلامية، ووضعت رهن إشارة الباحثين مادة تاريخية غنية. ومع ذلك، فإن هذا النشاط في النشر لم يستتبعه تراكم في البحث التاريخي التحليلي. إن المجهودات انصبّت بصورة قويّة على دراسة الحياة الفكرية للمدينة وتراجم علمائها[15]. فالندوات التي خُصصت للمدينة بالمغرب اتخذت من الميدان الأدبي والحياة الفكرية موضوعاً لها[16]. ولكن لم ينبثق حتى الآن، عن هذه الدراسات الأدبية، محاولات تركيبية مرتكزة على إشكالات تاريخية واضحة، تتجاوز مرحلة الوصف والافتتان بثقافة مدينة مغربية إسلامية كان إشعاعها العلمي قوياً طوال العصر الوسيط. إنها دراسات لا يمثل فيها البُعد التاريخي إلا حيزاً ثانوياً. لكنها تشكل ظاهرة تراكمية تجدر الإشارة إليها.

أما في الميدان التاريخي، فإن الدراسات الأكاديمية المتخصصة قليلة جداً. إذ لا يمكن أن نذكر سوى دراسة الأستاذة زليخة بن رمضان حول المعالم المادية والحضارية للمدينة (1987) ودراسة كاتب هذه الكلمات حول "سبتة على عهد الموحدين والمرينيين" (1987)، ودراسة الأستاذة حليمة فرحات، السابقة الذكر (1994)؛ بينما تظل الدراسات التاريخية الأخرى الوصْفية والأكثر عمومية، والأقل تنظيراً (كدراسات محمد بن تاويت[17]، وإدريس

---

15 - هناك 138 من بين 188 عنوان باللغة العربية (أي نسبة 73.40%) متعلقا بالجانب الفكري أو بالإعلام البشرية التي يصعب في كثير من الأحيان حصر الدراسات المخصصة لها.

16 - على سبيل المثال نجد أن نصيب التاريخ في ندوة «**سبتة : التاريخ والتراث**» لا يتعدى ست مداخلات (ثلاث في تاريخها الوسيط وثلاث في تاريخها الحديث والمعاصر) بينما باقي المداخلات (إحدى وعشرين) لمناحي الحياة الأدبية ولشخصياتها الفكرية.

17 - محمد بن تاويت، **تاريخ سبتة**، الدار البيضاء، 1982

خليفة[18]، والحاج محمد السراج[19]...) موجهة للجمهور العريض. أما باقي الدراسات الجامعية الأخرى فإنها أعطت الأولوية للبعد الأدبي (محمد الغازي[20]، إسماعيل الخطيب[21]، حسن الوراكلي[22]، عبد السلام شقور[23]، وغيرهم).

وبغض النظر عن تباينها المنهجي فإن الدراسات المغربية يربطها دافع أساسي، يتم التعبير عنه صراحة أو ضمناً : وهو كشف تاريخ المدينة، تعميقا لمعنى مغْربيتها وعُروبتها وإسلاميتها؛ وهو طابعها وهويتها الحقيقية. وليس جزافاً أن يعنْون إدريس خليفة كتابه بـ "التاريخ المغربي" لمدينة سبتة. فهو يندرج في إطار كفاحي، "يهدف إلى إظهار مغربية سبتة تاريخيا"، وإقامة الدليل على مغربيتها "قبل الإسلام وبعده". وليس غريباً أن نجد نعت "الإسلامية" لصيقا بأغلب عناوين الدراسات العربية. والواقع أن مدينة سبتة بوضعيتها السياسية الحالية، ووضعها الاستعماري المفارق، **تعيش في عمق الضمير والوجدان المغربي، ولا يمكن تناول تاريخها دون الانخراط فيه بكل الجوارح.**

في البيبليوغرافية الإسبانية يظهر أن القرن العاشر الميلادي هو الذي يحظى باهتمام الباحثين الإسبان. إنه القرن الذي أصبحت فيه سبتة مدينة "أندلسية"، بخضوعها لسيطرة أمويي الأندلس. ولا شيء يعكس لنا بطريقة

---

18 - إدريس خليفة، **التاريخ المغربي لمدينة سبتة**، ج 1، تطوان، 1988

19 - الحاج محمد السراج، **خلاصة تاريخ سبتة**... تطوان، 1976

20 - El Ghazi M., *Les rapports intellectuels entre al Andalous et Ceuta au XIIIè siècle*, thèse de 3ème cycle, Paris IV, 1988

21 - إسماعيل الخطيب، **الحياة العلمية في سبتة خلال القرن السابع**، تطوان، 1986

22 - حسن الوراكلي، **شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة**، تطوان، 1984

23 - عبد السلام شقور، **القاضي عياض أديبا**، طنجة، 1983

جلية هذا التوجه من دراسات "خواكين بالبي برميخو" *J. Vallvé Bermejo* وخاصة أطروحته "مساهمة في تاريخ مدينة سبتة حتى السيطرة المرابطية"[24]. وفي هذا العمل الذي فتح الطريق أمام أبحاث أخرى تستلهم خطواته وقناعاته الإيديولوجية، خصص المؤلف الفصل الخامس لما يسميه بـ"سبتة الإسبانية"، وجعله واسطة عقد أطروحته. فبينما لم يخصص سوى تسع صفحات لـ"سبتة الإسلامية" (ص 113 - 122)، وعشر صفحات لـ"سبتة والقاضي عياض" (207 - 217)، نجده يخصص حوالي ستين صفحة لـ"سبتة الإسبانية" (123 - 179). ثم يفرد لاحقاً دراسة مطولة حول التدخل الأموي في سبتة وشمال المغرب.

ومع ذلك نلاحظ أن تياراً - ولو أنه ما يزال ضعيفاً كمياً - بدأ يأخذ مكانة في الدراسات الإسبانية المتعلقة بسبتة المغربية. يكفي أن نلقي نظرة على أعمال Ramos Calvo, J. Valencia, R. Zanón, M. I. Calero, Mosquera Merino وغيرهم، لنلمس معالم هذا التيار الجديد. وهذا التوجه تدعمه دراسات أخرى جعلت من الجوانب المادية للمدينة المغربية موضوعاً لها؛ مثل الجوانب المعمارية الحضرية، والمسكوكات، والأقليات الإثنية والدينية، والنشاط التجاري، وهي دراسات تطبعها إرادة إظهار اندماج المدينة في العالم المتوسطي، فضلا عن اندماجها في وسطها الطبيعي المغربي.

إن المساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ سبتة تعود إلى عقود خلت. ولقد أولت اهتمامها أساساً إلى العلاقات التجارية للمدينة مع عالم حوض البحر

---

24 - استعمل المؤلف كلمة Ocupación وليس Dominación في عنوان أطروحته *Contribución a la historia de Ceuta hasta la ocupación almoravide*", (Fac. Letras de Madrid, 1962).

الأبيض المتوسط. فباستثناء الملاحظات المقتضبة لـ"هنري طيراس" حول بعض معالم المدينة، نجد أن الدراسات الفرنسية الأخرى قد أولت اهتمامها لعلاقة المدينة مع الساحل الفرنسي، وخاصة مع مدينة مرسيليا، استناداً على الوثائق العدلية المتعلقة بتجارة مرسيليا ومحاضر مينائها. كما أن بعض الباحثين الفرنسيين اعتمدوا في دراستهم على الأرشيفات الإسبانية، مثل "شارل إيمانويل دوفورك"، أحد أكبر المختصين في العلاقات المغربية الإيبيرية في العصور الوسطى. إن دراساته المختلفة حول العلاقات المغربية القطلانية، وخاصة تلك التي خصصها لـ"مسألة سبتة في القرن الثالث عشر"، لا يمكن الاستغناء عنها، مثلها مثل أطروحته الرائدة : "إسبانيا القطلانية وبلاد المغرب في القرنين 13 و14"، التي تستند على كم هائل من الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الأوروبية، وخاصة أرشيفات قاطلونيا. وهناك من اعتمد الأرشيف الإيطالي لدراسة علاقات المدينة التجارية مع دول حوض البحر المتوسط. ويكفي أن نذكر العمل الحديث للباحث الفرنسي "جورج جيهال"، حول الجنويين في غرب البحر المتوسط، وهو عمل رائد ومحكم التوثيق، ومجدد في ما يخص استغلال قاعدة متينة من وثائق الأرشيفات الإيطالية التي تلقي أضواء كاشفة على مكانة سبتة في خارطة المبادلات التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

إن إسهامات الدراسات الأنجلوسكسونية، والإيطالية، والبرتغالية تظل ضعيفة، مقارنة بالنتاج التاريخي المغربي أو الإسباني، أو حتى الفرنسي. فبعض الباحثين الأمريكيين ساهموا في الثلاثينيات من القرن الماضي بأبحاث جيدة حول نشاط التجار الإيطاليين ببلاد المغرب، وخاصة بسبتة، نذكر منهم H. C. Krueger و W. Byrne . ولكن الباحث البريطاني J. D. Latham هو الذي أسهم

مساهمة فعالة في كتابة تاريخ سبتة الإسلامية. إن دراساته حول النظام التحصيني للمدينة، وخاصة دراساته حول آل العزفي، تعتبر من أهم الدراسات المنجزة حتى الآن وأدقها حول هذه الأسرة التي طبعت تاريخ سبتة خلال العصر الوسيط[25]. أما الباحثون الإيطاليون(Balleto, Pistarino, Di Tucci) فقد اهتموا بسبتة في إطار اهتمامهم بأنشطة تجار بلدهم في مدينة الزقاق.

يظهر أن الدراسات "السبتية" لا تعيد نفسها، ولا تشكو من اجترار نفس الموضوعات، كما يُدعى أحياناً[26]. بل إنها دراسات تتكامل ويستدعي بعضها البعض. وعلى الرغم من الغنى النسبي في الدراسات "السبتية"، فإن المدينة ما تزال مفتوحة أمام البحث التاريخي، وخاصة ما يتعلق بحضارتها المادية خلال العصر الوسيط، وهي الحضارة التي لن تتضح بصفة جلية دون مساهمة الأبحاث الأركيولوجية. إن الأمر يقتضي تظافر جهود الباحثين المغاربة والإسبان، عن طريق خلق جسور الحوار المشترك والتنسيق بين مراكز البحث الإسبانية ومثيلاتها المغربية.

25 - هي دراسات ترجمها أمين توفيق الطيبي ضمن كتابه : **دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية**، طرابلس، 1989.

26 - Halima Ferhat, "Sabta: état bibliographique", op. cit., 164 - 165.

المبحث الأول

القاعدة الاقتصادية

لسبتة في العصر الوسيط

أولا: الفلاحة والصيد البحري

1 - الملكية العقارية

من المؤكد أن دراسة النشاط الفلاحي تحتّم التعرض مسبقاً لمسألة وضعية الأرض والملكيّة العقارية. لكن مصادرنا تظل خرساء عندما نستنطقها حول هذه الجوانب من الاقتصاد السّبتي. إن ندرة النصوص التاريخية حول الملكية العقارية بسبتة ونواحيها تعكس، على الأقل، واقعاً تاريخياً، يتمثل في كون النشاط الفلاحي لم يكن له تأثير كبير في الحياة الاقتصادية للمدينة التي ظلت تعتمد طول تاريخها على التجارة والبحر.

ويمكننا التأكيد على أنه قد سادت بسبتة - كما في أغلب المدن المغربية في العصر الوسيط - المِلكية الخاصة، وملكية الأحباس. فقد أعاقت التضاريس المعقدة المجاورة لسبتة ظهور الملكية الكبيرة، أو الإقطاعات. أما الملكية الخاصة التي كانت صغيرة ومركزة في جوار سبتة[27]، فلم تكن نابعة من التوريث فقط، وإنما كذلك من الشراء، وخاصة في فترات الاضطرابات التي عرفتها المدينة. ولقد عملت بعض الأسر السبتية الغنية على اقتناء الأراضي بالقرى المجاورة لسبتة، وحتى بالأندلس. فالقاضي عياض كان يمتلك أراضي في مدينة مالقة، إضافة لما كان يملكه في سبتة[28]. أما ابن هاني اللخمي السبتي

---

27 - القاضي عياض وولده محمد، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، 1990، 46؛ ابن رشد، **مسائل أبي الوليد بن رشد**، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الدار البيضاء، 1992، ج 259/1.

28 - أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض، **التعريف بالقاضي عياض**، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة (د. ت)، 113

فإنه كان "مقتصراً على فائدة ربع له ببلده" إشبيلية[29]. وتوفر النصوص الفقهية معلومات قيمة عن "الجنّات" والبساتين الخاصة التي كانت تحيط بالمدينة، أو وُجِدتْ بداخلها[30].

لقد عرفت عملية التحبيس تطوراً كبيراً بسبتة، والملكيات الحبسية التي وقفنا عليها ترجع للخواص، وليس للسلطات. فأسرة القاضي عياض حبّست جزءاً من الأرض التي كانت تملكها بالمنارة من المدينة، للدفن، وجزءاً آخر حبّسته على المسجد[31]. وفي القرن السابع الهجري/ 13 م، نجد أبا الحسن علي الشاري يحبس مكاناً لدفن طلبة المدرسة التي بناها بالمدينة، و"عيّن لها من خيار أملاكه وجيد رباعه جملة وقفها عليها"[32]. أما الطبيبة السبتية، عائشة بنت محمد ابن الجيار، محتسب المدينة في القرن الثامن الهجري/ 14 م، فقد "عهدت بتوقيف رباعها في وجوه البر وسبيل الخيرات"[33]. ويمكننا أن نضاعف من الأمثلة. لكن تجدر الإشارة إلى أن التحبيس لم يكن دائماً فقط لهدف ديني. فنحن لا نعدم شهادة على اللجوء إليه لتفادي البيع، أو تقسيم الملكية، كما أنه استعمل لتجنيب الإرث من المصادرة. فهناك فتاوى تبيّن كيف أن الأسر السبتية كانت

---

29 - **الإحاطة**، ج 3، 143

30 - **مذاهب الحكام**، ص 88، 171

31 - **التعريف**، نفس الصفحة؛ المقري، أحمد، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ج 1، ص 28

32 - ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، ج 8، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1984، ص 201؛ أبو الحسن الرعيني، **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق إبراهيم شبوح، دمشق، 1962، 74-75.

33 - مجهول، **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بثغر سبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1984، 55

حريصة على حَصْر تحبيسها في أعقبها، خصوصاً إن كان مكونا من الإناث، وذلك لقطع الطريق على دخول الأجنبي في الإرث[34].

2 - عقود الاستغلال الفلاحي

إن عقود الاستغلال الفلاحي التي يناقشها الفقهاء ترجع بصفة أساسية إلى "المزارعة"، و"المغارسة"، و"المساقاة". وكانت هذه العقود تضمن للفلاح نصيباً من الإنتاج الفلاحي. ولوْ أن المذهب المالكي لم يجز المزارعة والمغارسة إلا بتحفظ، فإن فقهاء المغرب قد أجازوا هذه العقود "حسب العرف"، وذلك بتليين تطبيقاتها. بل إن بعضهم، كالقاضي عياض، الفقيه المالكي ومالك الأراضي، سيمنع على المزارع الاستفادة من المحصول الزراعي إن هو لم يساهم بنصف الزريعة؛ ولم يجزْ له سوى أجرة عمله[35].

ونتساءل عن أهمية هذه العقود ودورها في الحياة الاقتصادية للمدينة التي كانت موارد تموينها تأتي عن طريق التجارة وليس عن طريق الإنتاج الفلاحي. ومع ذلك لا يجب أن نهملها، خصوصاً والنصوص الفقهية تشير إليها وإلى استعمالها بنواحي سبتة. ويمكننا افتراض أن المغارسة كانت هي السائدة في هذه المنطقة.

3 - الماء ومشاكل الري

لقد بذل السبتيون على ما يظهر مجهودات كبيرة لتحسين تقنيات الري لديهم، والاستفادة من تقنيات وتجارب القدماء التي بقيت ذكرياتها حية

34 - **مذاهب الحكام**، 193 - 194.
35 - نفسه، 234.

بالمدينـة[36]. وبفـضل تقنيـات الـري المتطـورة، اسـتطاع الـسبتيون خلـق تلـك المغروسات والحدائق التي ألهمتْ خيـال الشعراء والأدبـاء العـرب. "فالساقية"، في الهواء أو تحت الأرض، كانت توزع على الجنات، المياه المجلوبة من عيْن أو من جدول، أو تلك التي تأتي من بئر. في بعض الأحيان لم يكن الري ممكناً دون اللجوء إلـى "الآلات الرافعـة"، مثـل "الـدواليب"، أو "النـاعورات"[37]. لقد كانت الحيوانات تحرك الدولب الذي يصبب الماء المجلوب من الجدول، أو من البئـر، فـي "القـواديس" التـي بـدورها تـصبها فـي "صـهاريج". كمـا اسـتُعمل "الأنبوب" في سبتة لاقتصاد الماء[38]. وغالباً ما نجد حوضيْن متلاصقيْن، يصب أحدهما فـي الآخـر. كمـا وجدت "القـالات" بكثرة بالمدينـة، وكانـت تطلـق علـى بعض الأسوار التي يجري فوقها المـاء داخل قواديس[39]. ويظهر أن تضاريس المدينة ساعدت على استعمال هذه التقنية الأخيرة.

إن مدينــة سـبتة تقـع فـي منطقـة تـستفيد مـن تـساقطات مطريـة مهمـة. وبالإضافة إلى الأحواض والآبار، فإن بليونش كانت تتوفر على عيون جاريـة، وأنهـار وصـل عددها إلـى 86، "أرفعهـا قدراً، وأشـهرها فـي النفـع ذكـراً، نهـر أمزار"[40]. ولو أن القرية لم تكن تعرف مشاكل في التزود بالماء، كما كان الشأن بالنسبة للمدينة، فإن توزيعه على المزارع كان يطرح مشاكل معقدة، تؤدي إلـى

---

36 - مجهول، **كتـاب الاستبـصار فـي عجائـب الأمـصار**، نشر سـعد زغلـول، الـدار البيـضاء، 1955، 137 - 138.

37 - جلب الشريف أبو العباس الحسيني المياه إلى الرياض الأعظم «بالدواليب حتـى أوصـله إلى القبة ذات الأعمدة». **أزهار الرياض**، ج 1/ 40.

38 - محمد الأنصاري، **اختصار الأخبار عمـا كـان بثغر سبتة مـن سـني الآثـار**، تحقيـق عبـد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983، 40.

39 - كانت المدينـة تتوفر علـى عدد مهم من القـالات مثل قالـة البساتين، قالـة الـدنيفي، قالـة البسابيس، قالة الصندل، وقالة العين، انظر : **بلغة الأمنية**، م. س. 41؛ الأنـصاري، اختـصار الأخبار.م. س.، 49

40 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 52.

صراعات ومنازعات بين أصحاب الملكيات الزراعية. ولا شيء يعكس لنا هذه الظاهرة أحسن من كثرة الفتاوى المتعلقة بالنزاعات حول مصادر الماء، وحفر الآبار المجاورة لبعضها البعض، وخاصة مسألة توزيع المياه بين الأرحاء والمزارع. إن الفقهاء كانوا يعطون الأولوية دائماً لأصحاب المزارع، ولو كانت للأرحية أسبقية الأقدمية.

وتشير بعض الفتاوى على أن توزيع المياه كان يتم "حسب العُرف"، وأهم طريقة كانت هي التوزيع حسب "النوْبَة". وفي كثير من الأحيان كان يتم خرق الأعراف من طرف الأقوياء والمتنفذين. فهناك فتوى متعلقة بأحد المتنفذين الذي قام بجرّ الماء المعروف بماء السياج، من قرية بليونش، إلى جنته، ضاراً بالطريق العمومية وبالمارة، دون أن "يُجترأ على الإنكار عليه"، لأنه كان مقرباً من السلطات المحلية، ومتعلقاً بالبرغواطي، حاكم المدينة. ولقد أُعيد النظر في هذه القضية بعد أكثر من عشرين سنة. وعلى الرغم من تشبث صاحب الجنان بحق الأقدمية، فقد حكم عليه قاضي المدينة "بقطع ذلك الماء، ومنع إجرائه في الطريق، ولا في وقت من الأوقات"، حتى ولو جعل "للماء المذكور سرباً تحت الأرض، ويغطيه حتى لا يضر بأحد". وبعد ذلك قام آخرون، غير المحكوم عليه، يحتجون على قرار القاضي، لأنهم كانوا يسقون جناتهم بذلك الماء نحو أربعين سنة، و"لم يزالوا يسقون به"، وأنهم "قد غرسوا عليه غرساً، وكانوا لا يقدرون على جري الماء في الغالب إلا من هذا الطريق المحكوم بقطع الماء عنها"[41].

---

41 - **مذاهب الحكام**، 109 - 111.

كما أن المنطقة كانت تعرف مشاكل مرتبطة بعدم انتظام التساقطات المطرية، أو انقطاعها في بعض الأحيان، مما ينتج عنه نقص في صبيب الأنهار والعيون، الأمر الذي كان يؤثر على الحياة الفلاحية بمنطقة سبتة. فالمزارع التي كانت تعتمد في سقيها على المياه المجلوبة من مزارع أخرى تصبح مهددة بقطع الماء عنها من طرف جيرانها، وخاصة في فصل الصيف.

4 - الإنتاج الفلاحي

إن مدينة سبتة المبنيّة على حجرة، والمحاطة بمياه البحر، كانت تابعة كليّة لمحيطها الخارجي في ما يخص مواردها الغذائية. فباستثناء السمك، كانت المدينة تعتمد على الخارج، سواء تعلق الأمر بالحبوب واللحوم أو بالخضروات، وحتى بالنسبة للماء. إن المنطقة القريبة منها كذلك متحجّرة وغير منتجة. لكن على بعد سبعة كلمترات، تقع بليونش، البقعة الخصبة والغنية بمنتجاتها الفلاحية. ولم يلبث أن أصبحت بليونش مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسبتة، على الرغم من صعوبة الطريق التي تربط بينهما، ووعورتها[42].

والواقع أن بليونش كانت تمثل بالنسبة لمدينة سبتة ذلك الحزام الغذائي الذي شكلته الضواحي الزراعية المحيطة بمدن أخرى، كفاس ومكناس ومراكش. كما شكلت مكان نزهة وإقامة ثانية بالنسبة لأرستقراطية المدينة[43].

42- حول صعوبة الوصول إلى بليونش يقول القاضي عياض :

بليونش جَنة ولكنْ ** طريقُها يقطع النياطا

كجنة الخُلد لا يراها ** إلا الذي جاوز الصراطا

(المقري، **أزهار الرياض**، ج 1، ص 34)

43 - Cressier P.(et autres), *El urbanismo rural de Belyounech. Una aproximación metodológica a un yacimiento islamico medieval del norte de Marruecos*" in Arqueologia espacial. Congreso sobre el Microespacio, Teruel, 1986, pp. 327- 349

إن ضيق المساحة الزراعية، وغياب أي مجال فلاحي بضواحي سبتة، لم يسمح بظهور **زراعة الحبوب** بها. فهناك إجماع لدى المؤرخين العرب فيما يخص فقر المدينة وناحيتها بخصوص إنتاج الحبوب. فقد رآها ابن الخطيب[44] "عديمة الحرث، فقيرة من الحبوب". وأوضح العمري أن "القمح لا يزكو نباته في أرضها، وإنما يُجلب إليها جلباً"[45]. ويؤكد الحسن الوزان كذلك بأن بادية المدينة "هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائماً من قلة الحبوب"[46]. إلا أن المدينة عرفت كيف تحل هذه المشكلة بفضل علاقاتها التجارية مع السهول الأطلسية، وسهول المناطق الداخلية في المغرب؛ بل أصبحب أكبر مخزن للقمح المغربي الموجه لأسواق البحر الأبيض المتوسط. وبهذا الصدد، نجد أن بعض المؤرخين لم يترددوا في ربط احتلال سبتة سنة 1415م (والسواحل المغربية الأخرى) بمحاولة البرتغاليين ضمان هذه المادة الأساسية لبلادهم[47]. ويدعم (روبير ريكار) فرضية الدور الأساسي للحبوب في قضية سبتة، ويعتقد أن الحبوب مرتبطة كذلك بالمبادلات التجارية التي ستتم لاحقا مع غينيا[48]. ويؤكد (بيطورينو ماغالهايس غودينهو) من جانبه على أن سبتة كانت مركز تخزين كبير للحبوب التي كانت تردها من السهول المغربية،

44- ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق كمال شبانة، الرباط (د. ت)، 146

45 - العمري (ابن فضل الله)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988، 137؛ القلقشندي، **صبح الأعشا**، ج 5، 153.

46 - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ص 317.

47 - أحمد بوشرب، **دكالة**، 154

48 - R. Ricard," Le commerce de Berbérie et l'empire portugais", *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger*, t. II, 1936, p. 10- 11

ويؤكد هذا المؤرخ أن البرتغال كانت تستورد القمح من سبتة قبل حملة الملك جواو الأول عليها سنة818هـ/ 1415[49].

إن الريّ المتطور جدّاً بسبتة كان يستعمل في البستنة، وفي سقّي الخضر والفواكه التي كانت تستدعي عناية خاصة، وتقنيات متطورة، أثارت انتباه الجغرافيين العرب وإعجابهم. ففي الأوصاف الجغرافية تظهر بليونش ميدانا للزراعة الشجرية بامتياز. في القرن السادس الهجري/ 12 م، يخبرنا الإدريسي أنه كان يتجهز بفواكه بليونش الكثيرة "إلى ما جاور سبتة من البلاد"[50]. ثلاثة قرون بعد ذلك يؤكد الأنصاري، بقليل من المبالغة، أن "القرية في كثرة الفواكه الصيفية والخريفية، واختلاف أصنافها، وتعدد أرهاطها وأنواعها، بحيث توسق منها الأجفان، وتسافر إلى المغرب وبلاد الأندلس"[51]. إن هذا المؤلف هو الذي أعطانا لائحة كاملة ومثيرة للانتباه بالمنتوجات الفلاحية البليونيشية، "وغيرها من قرى سبتة"، مع ذِكر عدد أنواعها، بحيث لا يبقى مجال للشك في خصوبة المنطقة وغناها الفلاحي. فقد قسم منتجات بليونش إلى أربعة أقسام :

- الفواكه الخريفية، مثل العنب والتين والتفاح والخوخ واللوز والجوز والقسطل والسفرجل والخروب.

- الفواكه الصيفية، مثل المشمش وعيون البقر والإجاص والتوت.

49- Godinho M. V, *Les grandes découvertes*, Coimbra Editora, Coimbra, 1953, p. 32
Id.: *História económica e social da expansao portuguesa* op. cit.,t. I, p. 87-89

50 - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 529.

51 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 53.

ـ الفواكه الشتوية، مثل الترنج والليم والليمون والنرانج والزنبوع وقصب السكر والموز.

ـ المشمومات، مثل الريحان والياسمين والنسرين والبهار والسوسان والنوار القرنفلي والبنفسج والنعنع والترنجان، والمردوش، وزهر النارنج.

ونلاحظ باهتمام بالغ انتشار الزراعات التي كانت تحتاج إلى عناية خاصة من طرف المزارعين، وإلى وجود بعض الزراعات الاستوائية بنواحي سبتة، مثل **قصب السكر** الذي لا نعرف بدقة متى بدأت زراعته ببليونش. فأول إشارة إليه ترجع للقرن السادس الهجري/ 12 م. ويظهر أن هذه الزراعة قد تقلصت أهميتها في القرن الثامن الهجري/ 14 م؛ إذ يشير العمري إلى وجود قصب السكر بنواحي سبتة، لكنه " ليس بالكثير"[52]. ويؤكد الأنصاري وجود هذه المادة في مطلع القرن التاسع الهجري/ 15 م، مشيراً إلى أنه ثلاثة أنواع. ونشك أن يكون غنى المنطقة بالسكر هو الذي دفع البرتغاليين لاحتلالها[53]. كما أن **الموز** كان "كثيراً بداخل المدينة، ولا يختص بفصل".

إن المؤرخين والجغرافيين العرب لا يقدمون معلومات عن تربية **الماشية** بسبتة ونواحيها. في هذا الميدان كذلك كانت المدينة خاضعة للخارج. فقد كانت الحمير راكبة الفقراء بامتياز. أما الخيل والبغال فكان يستعملها كبار القوم والميسورون[54]. ولم تكن الجمال لتتأقلم مع مناخ الشمال، ومع ذلك كان

---

52 - العمري، 137.

53 - Godinho, V. M., *L'Economie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles*, Paris, 1969, 8, 41 - 42.

54 - كان أحد زهد المدينة «يسمر الدواب ولا يتعرض لتسمير الخيل والبغال خشية أن يقصده بذلك الأمراء». **بلغة الأمنية**، 32

السبتيون يشاهدونها تفرغ حمولاتها من القمح في الفندق الكبير بالمدينة[55]. ولم تكن المراعي تنقص الرعاة السبتيين، وخاصة ببليونش. وتشير بعض النصوص إلى مزاولة الإنتجاع بضواحي المدينة[56]. لقد كانت الأبقار تربى بكثرة في سهول تطوان[57]. أما الأغنام، فإنها لم تكن تتأقلم بسهولة مع تضاريس ومناخ المنطقة، وكان يتم استيرادها[58]. بينما كانت تربية الدجاج والحمام والنحل متطورة بالمدينة.

لا نعرف الشيء الكثير عن **الضرائب الفلاحية**، وتلك التي وقفنا على أثرها في المصادر التاريخية لا نعرف بالضبط طبيعتها ولا مقدارها ولا كيفية جبايتها. فبعض النصوص النوازلية تشير إلى ضرائب غير شرعية مثل "المغارم" و"**الكُلَف**" التي كانت تضرب النشاط الفلاحي بضواحي سبتة. فإحدى نوازل القاضي عياض تتطرق إلى "رجلين أخوين قام عليهما قائم يدعي عليهما أنهما زادا عليه في أرض تجاورهما، فأنكرا ذلك... فشهدت للقائم بيّنة أن الحد قد غيّر". ولم تكن هذه البينة سوى "**مقاسمة المغارم والكلف** التي تلزم الرعية بسبب السلاطين"[59]. إن التنصيص على "مقاسمة المغارم" توحي بأن هذه الضرائب غير الشرعية كانت تؤدى بشكل جماعي. وتتعرض نازلة أخرى إلى "**اللوازم**" كانت مفروضة على سكان قرية من قرى سبتة، وتتمثل في "العُشر وفطرة ومغرم سلطان وغير ذلك"[60]. إن هذه الشهادات تعود إلى القرن السادس الهجري (12م)،

---

55 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 38.

56 - **مذاهب الحكام**، 304 (فتوى للقاضي عياض).

57 - في إحدى الغارات البرتغالية على مدينة تطوان تم الاستيلاء على 300 بقرة، انظر، Godinho, V. M., *Historia économica e social da expansao portugaisa*, Lisbonne, 1947. 32.

58 - العمري، 137.

59 - **مذاهب الحكام**، ص 52

60 - نفسه، ص 304

وتتزامن مع الدولة المرابطية التي نذكر بأنها ربطت قيامها بوضع حد للتجاوزات الجبائية واستئصال المغارم المستحدثة الخارجة عن الشرع، أو "بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم"[61]. ولا نعتقد أن هذه الضرائب قد أُلغيَت لاحقا، سواء في العصر الموحدي أو في العصر المريني[62]. إلا أن ما يثير الانتباه هو ما يقرّه ابن البلد، محمد بن القاسم الأنصاري، من كون نواحي سبتة كانت "معفاة من **الوظيف**، ومحررة من **المغرم**"[63].

5 - الصيد البحري

يعتبر الصيد البحري من الموضوعات التي ما تزال مهملة في الاستوغرافية المغربية الحديثة، على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه البحر والوديان في تاريخ المغرب، قديماً وحديثاً. ومن اللافت للانتباه أن دراسة أكاديمية متخصصة كتلك التي قام بها الدكتور عز الدين أحمد موسى، حول "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري"[64] لا تُخصص سوى ستة أسطر لا غير للحديث عن نشاط الصيد البحري بالغرب الإسلامي برمته. لذلك نعتقد أن تخصص دراسة مستقلة لهذا النشاط الاقتصادي بمدينة مغربية خلال العصر الوسيط لمن شأنه أن يثير الانتباه، ويفتح آفاق

---

61 - أبو عبيد البكري، **كتاب المسالك والممالك**، طبعة تونس، 1992، ج 2، ص 857-868

62- حول المسافة الفاصلة بين المشروع الإصلاحي والممارسة الجبائية عند الدولة المغربية في العصر الوسيط، راجع : محمد القبلي "**حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط**"، المناهل، عدد 69-70 يناير 2004

63 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 52.

64 - عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، بيروت 1983، ص 204، وانظر كذلك،

Rosenberger B., "L'histoire économique du Maghreb", *Wirschaftsgeschichte des V. Orients*... Leiden, 1977.

البحث في هذا الموضوع الذي لم يدرس بعد دراسة جادة[65]، مثله في ذلك مثل موضوع "القنص وتقنياته"، و"حيوانات المغرب في العصر الوسيط"، وهما موضوعان مرتبطان بالصيد البحري.

لعب البحر والصيد البحري دوراً كبيراً في حياة سبتة منذ أقدم العصور[66]. فقد استفادت المدينة من موقعها الجغرافي المتميز على مدخل مضيق جبل طارق، ومن شكلها الطبوغرافي الذي يمنحها امتيازات صفة شبه جزيرة، وكذلك من الرصيف القاري الذي يوفر الظروف الملائمة لتكاثر السمك، لتصبح من أهم مراكز الصيد البحري بشمال المغرب خلال العصر الوسيط.

وإلى ما قبل احتلالها من طرف البرتغال سنة 818 هـ/ 1415 م، كانت المدينة تتوفر على نوعين أساسيين من تقنيات الصيد البحري، وهما : "المضارب" و"المصائد"؛ إذ يخبرنا أبو القاسم محمد الأنصاري أن عدد ما وقف عليه من المصائد، سوى ما لم يقف عليه، يقارب الثلاثمائة "مفترقة من طرف قب منت من بحر أبي السول [...] إلى مرسى موسى، بل إلى مدشر فرديوة من أرض مصمودة من بحر الرملة". أما بخصوص المضارب فيذكر أن المخصصة " لحوت البحر وغيره بالبحرين" كانت تسعة مضارب، كلها

---

65 - يقدم د. محمد حمام نظرة أولية عامة عن الصيد وتجارة السمك في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ما بين القرن 10 وبداية القرن 16 م. انظر :

Mohamed Hammam, "La pêche et le commerce de poisson en Méditerranée occidentale (Xe- début XVIe siècles). Tableau historico-géographique établi d'après les sources musulmanes. in *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age*, Rabat, 1995, pp. 151- 180

66 - Ponish M. Et Tarradell M., *Garum et industries antiques de salaisons dans la Méditerranée occidentale*, Paris, 1965, p. 5.

مفيدة، و"أعظمها فائدة مضرب أويات"[67]. ومن المؤسف أن كتاب "الإعلام" الذي أودعه الأنصاري معلومات ضافية عن تقنيات الصيد، وذكر فيه "ما يقع الانتفاع به منها من ذكر العلامات والمياه"، و"كمية الصيد في كل مصيد"... لم يصلنا بعد. وإذا كان الأنصاري يؤكد أنه وُجد من "المضارب" ما كان بداخل المدينة، ومنها ما هو خارج عنها، فإننا لم نستطع تحديد مواقع إحداها، باستثناء "مضرب أويات" الواقع جنوب غرب بحر أبي السول، ومضرب الشبكة المجاور لدار الصناعة. وإذا كنا لا نتوفر على معلومات بخصوص تاريخ إقامة هذه المنشآت، فمن المؤكد أنها كانت تحتاج إلى عدد مهم من اليد العاملة، وأن تأثيرها على الإنتاجية كان كبيراً.

إن الجغرافيين والمؤرخين العرب يتفقون فيما يخُص غنى مياه سبتة بالأسماك. وشهادة الإدريسي، ابن المدينة، تغني عن كل تعليق، يقول : "وبمدينة سبتة مصايد للحوت، ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير"[68]. وباستثناء هذا النوع من السمك الذي خصته مصادرنا الوسيطية باهتمام خاص، فإنها لا تقدم لنا معلومات عن الأنواع المصطادة وكمياتها. ومع ذلك نجد ذكراً للسردين، ولسمك "الجري"، ولسمك موسى، ولسمك "الطردنس". وهذا النوع الأخير لم يكن يوجد إلا في المياه العميقة[69]. ويتحدث

---

67 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، ص 50 - 51.

68 - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، نشر دوزي وخوي، ليدن، 1864، ص 529؛ العمري، **مسالك الأبصار**، ترجمة فرنسية بقلم جودفري ديمومبين، باريس، 1927، ص 138؛ نعت ابن الخطيب المدينة بكونها «محشر أنواع الحيتان»، **معيار الاختيار**، تحقيق كمال شبانة، الرباط، د. ت, ص 146.

69 - ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف التادلي)، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، 160؛ العمري، **مسالك الأبصار**، 139؛ عبد العزيز الأهواني،

أبـو حامـد الغرنـاطي (ت. 565 هـ/ 1169م) عـن نـوع آخـر يـسميه "الحـوت المشوي"، وهي سمكة طولها أكثر من دراع وعرضها شبر، وكان هذا الحوت يوجـد بكثـرة بنـواحي سـبتة، ويخبرنـا أن "النـاس يتبركـون بـه، ويهدونـه إلـى المحتشمين". ويبدو أن اليهود كانوا يحتكرون تسويق هذا النوع من الحوت، فقد كانوا "يقددونها ويحملونها إلى البلاد البعيدة للهدايا"[70].

ولقد استطاعت المدينـة أن تُراكم خبرة كبيرة فيما يخص تقنيات الصيد البحـري. فـ"الحنكـة" و"المهارة" و"الدربـة" كلهـا صـفات نُعت بهـا الـصيادون السبتيون. ففي معرض حديثه عن طريقة اصطياد التن الكبير، يخبرنا الإدريسي أن "لهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيهما جميع الصيادين"[71]. ومع ذلك، فإن معلوماتنا عن تقنيات الصيد البحري تبقى ناقصة، لأنها لم تلفت، على ما يظهر، انتباه الجغرافيين العرب. إنهم يشيرون مع ذلك إلى استعمال "الرماح" الخاصة بصيد التن الكبير، والتي كانت "لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال". ونجد كذلك وسائل أخرى، مثل "الشبكة" التـي كانـت ترمـى مـن الـشاطئ، أو مـن وسـط المـضربة. ومن المرجح أنها كانت تصنع من حبال رقيقة، وقطع من الفلين العائم على وجـه البحـر، وأحجـار لإثقال الشبكة. وإذا كانـت هـذه الطريقـة تـستدعي تكـاثف مجهودات جماعة من الصيادين، فإننا لا نعدم وجود معلومات تشير إلى مزاولة الصيد البحري الفردي، والذي ظل بدائياً، يقتصر على استعمال "القفة" لصيد

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج 1، 1957 ص 291.

70 - أبو حامد الغرناطي، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1991، ص 71؛ وانظر كذلك القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، 1969، ص 182.

71 - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، 529.

السمك[72]. ومن المؤكد أن منتوج هذا النوع من الصيد لم يكن موجها إلى التسويق بقدر ما كان مخصصاً لتلبية حاجيات العائلة، إن لم نقل الشخص الواحد.

ونشير إلى أن مهنة الصيد لم تكن مهنة محتقرة في سبتة، بل حظيت بالاحترام، وزاولها الفقهاء والمتصوفة، سواء لحسابهم الخاص أو كمأجورين[73].

ونظراً لأهمية هذا النشاط في اقتصاد المدينة، فقد أصبحت مراقبته وتنظيمه ضروريين. وقد تولى هذه المهمة موظف رسمي يسمى "عامل المضارب". ولا نعرف مهام هذا العامل إلا من خلال نص فريد ووحيد أورده المقري في "أزهار الرياض". فقد كان هو المسؤول عن النظر في فوائد المضارب "وما تحتاج إليه من نفقة وآلة"، وكان يساعده في ذلك "رجاله وأعوانه" الذين كانت مهامهم تقتضي الحرص على المداخيل المتأتية من بيع السمك. فقد كان عامل المضارب "يأمر رجاله وأعوانه، حين يقعد النواتية الكيس، بالوقوف إليه والدفاع عنه، بعد أن يحضر الشهود، خفراً وضبطاً لما يحصل من فائد المضرب المالي"[74].

---

72 - عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1982، ص 103

73 - ابن قنفذ، **أنس الفقير وعز الحقير**، نشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرابط، 1965، ص 12؛ ابن الزيات، **التشوف**، م. س. 302. ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 55؛ الأزموري، **بهجة الناظرين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1343 د، ورقة 38، 54(وفيه أن عبد السلام أمغار العابد اشترى منبرا من بسبتة حيث سياحته بها " من ثمن حوت كان يصطاده من البحر بيده حرصا على الحلال".

74 - المقري، أحمد، أزهار **الرياض في أخبار عياض**، ج 1، م. س. 33.

وإذا كانت المصادر لا تسمح بافتراض وجود احتكار لصالح المسيحيين، كما كان الأمر في تونس مثلاً في نفس الفترة، فإنها تشير إلى أن مداخيل المصائد السبتية كانت محتكّرة من طرف بعض الشخصيات البارزة بالمدينة. ومع ذلك فإنه يصعب الحسم فيما إذا كان الأمر يتعلق باحتكار أم بعطاء. ففي القرن الثامن الهجري/ 14 م، كان "فائد مضرب الميناء" مخصصاً للشريف أبي العباس الحسيني، "دون أن يشركه غيره". كما "كان له بمضرب أويات، يوم يضرب فيه، ويومان لبيت المال". وكان يحصل له من "فائد يومه" من مضرب أويات وحده، ما بين خمسمائة وألف دينار، هذا بعد "إباحة المضرب للمساكين، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه ممن يحضر متنزهاً"[75]. ومهما كان نصيب هذه الأرقام من مبالغة، فإنها تعكس على الأقل غنى المصائد ودورها في اقتصاد المدينة، وتغذية ساكنتها.

وننهي هذه الملاحظات بطرح بعض القضايا التاريخية التقنية المتعلقة بطرق تعبئة وصيانة الثروة السمكية المصطادة والمصدرة للأسواق الخارجية.

فسمك التن مثلا، يظل دون قيمة لو لم يُصبّر ويُسوّق. فالمصائد والمضربات كانت تصطاد كميات هائلة منه، حسب شهادة الإدريسي السابقة الذكر. وهذه الكميات المصطادة قد تصل إلى عدة أطنان يوميا، وكانت تتجاوز حتما الاحتياجات الاستهلاكية لساكنة سبتة من السمك الطري، إذا اعتبرنا أن الوزن المتوسط لتينة واحدة هو مائة كيلوغرام. وهذا الأمر يدفعنا إلى البحث عن طرق حفظ السمك وتخزينه وتعبئته في ظروف لا يتعرض فيها للتلف أو للنتونة. وعندما نقول تخزين السمك، فإن ذلك الأمر يستتبعه تسويقه وتصريفه

75 - نفسه، 43.

في الأسواق الخارجية، وما يرتبط بذلك من إشكالات متعلقة بالنقل والبحث عن الأسواق. وهذه الأمور تضع أمام الباحث قضايا دقيقة وصعبة في نفس الوقت، ومنها ما يتعلق باستعمال وسائل وآليات حفظ المنتوج السمكي المصطاد وتعبئته؛ وتأتي على رأس تلك الآليات : الجرّات، أو الخابيات. ومن المعلوم أن استعمال الجرات ظل مألوفا حتى القرن السادس أو السابع الميلادي، قبل أن يُعوَّض باستعمال البراميل المصنعة من خشب البلوط الفليني، أو من شجر القسطل[76]. وهو ما رجح كفة المناطق المتوفرة على ثروة غابوية. فالبراميل كانت تسمح، من ناحية الوزن، بحمل ضعف كميات السلعة في نفس المساحة على السفن. إضافة إلى أن البراميل ليست سريعة الانكسار، مثل الجرات، ويمكن إعادة استعمالها مرات متعددة. وإذا كانت المصادر العربية تشير إلى عدد من الصناعات التقليدية المرتبطة بالخشب، فإنها تظل خرساء حينما نستنطقها بخصوص استعمال البراميل في تعبئة ونقل المواد السائلة، أو المسحوقات، أو حتى في نقل بعض السلع السريعة التلف. فهل استمر السبتيون في استعمال الجرات والخابيات الخزفية لحفظ السمك وتخزينه؟ أم أنهم لجأوا إلى استيراد البراميل الخشبية من شبه الجزيرة الإيبيرية (قشتالة)، أو من المدن الإيطالية التي كانت تربطها بالمدينة علاقات تجارية وطيدة؟

إن عمق الصلات التجارية الجنويّة مع سبتة يدفعنا إلى افتراض أن قسما من الرساميل الجنوية قد استُثمرت في ميدان صيد السمك، وبصفة خاصة في المضربات وتسويق سمك التن وغيره[77]. ويتأكد الاحتكار الجنوي لهذا النشاط خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكان يغطي المجالات

---

76 - رسالة شخصية من السيد F. Doumenge ، مدير المعهد الأوسيانوغرافي بإمارة مونكو Monaco، بتاريخ 9 دجنبر 1997

77 - هذا ما يعتقده السيد Doumenge في رسالته السابقة الذكر

الإسلامية والمسيحية على السواء، على الأقل في الجزء الأوسط من المحيط الأطلسي. لكننا لا نتوفر لحد الآن، على إشارة تاريخية لحمولة تشمل السمك المستورد من سبتة ضمن حمولات السفن الجنوية في هذا العصر.

ثم إنه خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بدأ استعمال نوع آخر من الآليات لصيانة السمك والاحتفاظ به، إلى جانب عملية التمليح التي استعملت منذ أقدم العصور[78]؛ يتعلق الأمر بصيانة سمك التين في الزيت، وهو عمل كان من أكبر اختصاصات الجنويين في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد كان الحصول على الزيت أسهل بكثير من الحصول على الملح. ومن جهة أخرى، فإن تصبير السمك والاحتفاظ به بواسطة استعمال الزيت يصبح أكثر نجاعة من تصبيره بواسطة الملح، عندما يتعلق الأمر باستخدام الجرات والخابيات الخزفية.

وكيف ما كان الحال، فإن الصيد البحري في سبتة لم يقتصر على السمك فحسب، بل شمل كذلك صيد المرْجان. فقد اشتهرت السواحل السبتية منذ القدم بغنى مرجانها وجودته. فالخرائط البحرية القديمة تبين جزيرة ليلى (تورة) - التي تقع غرب مدينة سبتة بحوالي ثمانية كيلوميترات- وتسميها "جزيرة المرجان" *Isla del coral*[79] لكونها من المناطق الغنية بهذه المادة. وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، يشير الرحالة المشرقي، ابن حوقل، إلى جودة مرجان المدينة[80]، ويصفه الإدريسي بأنه "لا يعدله صنف من صنوف

---

78 - Ponisc M. et Tarradell, *Garum et industries antiques de salaisons…* op. cit.

79 - E. de la Primaudaie, "Les villes maritimes du Maroc", *Revue Africaine*, XVI, 1872 p. 204

80 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، 1963، ص 79 وحسب بعض الروايات الغامضة قد يكون المرسيليون أتوا لصيد المرجان السبتي منذ القرن التاسع للميلاد. انظر :
Hardy, G.," Le Maroc", in *Histoire des colonies françaises*, t. III, Paris, 1931, p. 13.

المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار"[81]. إلا أنه، وغيره من الجغرافيين العرب، لا يحددون بدقة مكان تواجده. ويرجع الفضل إلى "أزهار الرياض" في تحديد "مغطس المرجان" بجبل موسى، على بعد تسعة أميال من سبتة[82]. وعلى الرغم من أن صيت مرجان سبتة وشهرته قد ذاعت في الدول الأوربية، حتى نعتت المدينة في خرائطها القديمة بـ"جزيرة المرجان"[83]، فإنه لم يعط امتياز احتكاره للمسيحيين، كما هو الشأن بالنسبة لتونس الحفصيّة.

إن استخراج المرجان من بحار سبتة أعطى ديناميّة لنشاط صناعي - حرفي مرتبط به، وموجه للتسويق الخارجي. ويذكر ابن حوقل (منتصف القرن الرابع/ 10 م) أنه يعمل من المرجان بسبتة "قويريات [أواني] لطاف"[84]. ويذكر الإدريسي- وهو من أبناء المدينة- أنه كان بسبتة "سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً، وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة، وجميع بلاد السودان؛ لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً"[85].

ولم يتعرّض الجغرافيون العرب للتقنيات المستعملة في استخراج شجيرات المرجان السبتي. على أنهم أشادوا بجودته التي يذكرونها دائماً في معرض حديثهم عن مرجان مرسى الخرز الشهير. ونعتقد أن تقنيات استخراج المرجان من مياه سبتة لم تكن تختلف كثيراً عن مثيلاتها المستعملة بمرسى الخرز. فقد كان المركب يبحر بحوالي عشرين رجلاً، بعضهم يكون مكلفاً

---

81 - الإدريسي، نفسه.

82 - المقري، **أزهار الرياض**، ج 1، 35 - 36؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، الجزء الأول، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ص 206.

83 - Cherif Mohamed, "Notes sur la pêche maritime à Ceuta au Moyen Age", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, N° IV. 1990, p. 260.

84 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، د. ت. ص 79.

85 - الإدريسي، نفسه، ص 529.

بـالغطس تحـت المـاء، ومـزوداً بـ "آلات ذوات دوالـب كثيـرة تـصنع مـن القنـب. تـدار هـذه الآلـة فـي أعـالي المراكـب فتلتـف الخيـوط علـى مـا قاربهـا مـن نبـات المرجان، فيجذبه الرجال إلى أنفسهم"[86].

ويبدو أن مصائد المرجان السبتي قد عرفت تقلصاً في أهميتها، وضـعفا فـي إنتاجياتهـا خـلال القـرن الثـامن الهجـري/ 14 م، بـسبب الاسـتغلال المكثـف الذي تعرضت له طيلة القرون السابقة. فالخرائط المسيحية لهذه الفتـرة لا تـشير إليهـا[87]. ولـم يتعـرض لهـا الأنـصاري فـي "اختـصار أخبـاره" ضـمن مقومـات المدينة الاقتصادية. ويتأكد هذا الاضمحلال لأهمية ذلك النشاط، إن لم نقل زواله بالمرة في القرن العاشر الهجري/ 16م، بحيث لا تشير إليـه الخـرائط الإغريقيـة بتاتاً[88].

لقد عرفت المدينة نشاطاً آخر مرتبطـاً بـالبحر، ويتعلـق باسـتخراج الملـح الـذي زاولـه الـسبتيون منـذ العـصر النيـوليتيكي[89]. إلا أن المـصادر لا تـسمح بالتأكيـد علـى اسـتمرارية هـذا النـشاط حتـى العـصر الوسـيط، ومـع ذلـك فـإن استخراج الملح من بحار سبتة لم يتوقف تماماً. فإحدى الكرامات المرتبطة بولـي سبتي توحي بوجود هذا النشاط بضواحي المدينة[90].

---

86 - نفسه، 290 - 291؛ ابن حوقل، 77.

87 - Carlos Gozalbes Cravioto, *Ceuta en los portulanos medievales*, Ceuta, 1997,

88 - Cherif Mohamed, "Notes sur la pêche..", op. cit., p. 260.

89 - Ponish M. Et Tarradell M., *Garum*, op. cit, p. 5.

90 - خرج ولـي سبتي من رابطتـه بحجر السودان «فوجد علـى حجر بـإزاء البحـر مدين مـن الملح». الأزدي (أحمد بن إبراهيم القشتالي)، **تحفة المغترب ببلاد المغرب**، نشر فرنانـدو دي لاغرانخـا، مجلـة المعهـد المـصري للدراسـات الإسـلامية فـي مدريـد، المجلـد 17، 1972-1973، ص 120.

إننا لا نتوفر إلا على معلومات ناقصة جداً عن الصيد البري. في القرن الخامس الهجري/ 11 م يشير البكري إلى مكان غرب مرسى موسى، يلتقي فيه السبتيون لمزاولة القنص. وهناك قصة أوردها ابن رُشيد في رحلته، مفادها أن بعض أدباء سبتة خرجوا مع الوزير ابن خلاص خارج سبتة، فانثالتْ عليهم الأرانب من كل جهة، فصادوها دون كلفة[91]. يتعلق الأمر على ما يبدو بنوع ألذّ من الأرانب العادية وأملس منها، كان يسمى "القلنية" التي كانت، حسب المقري، لا توجد "في بر البربر [المغرب] إلا ما جُلب منها [الأندلس] إلى سبتة، فنشأ في جوارها"[92].

91 - أحمد الحدادي، **رحلة ابن رشيد السبتي**، دبلوم الدراسات العليا، فاس، 1981، ج 1، ص 18.

92 - **نفح الطيب**، ج 1، ص 198.

ثانيا : النشاط الصناعي والحرفي

1 - التنظيم الحرفي

يصعب فصل النشاط الحرفي عن النشاط التجاري في التنظيم الاقتصادي لسبتة الإسلامية في العصر الوسيط. فقد كان الحرفي يُسوّق منتوجه بنفسه في أغلب الأحيان. ومكان الحرفة هو مكان البيع في نفس الوقت. ويتجلى هذا التداخل بين النشاطين حتى على مستوى المصطلحات. فمصطلح "النجارين" مثلاً قد يحيل - في غيبة سياق موضع - على حقائق مرتبطة بصناعة الخشب، أو ببيعه. ومع ذلك، فلكلا النشاطين خصائص معينة، ويطرحان مشاكل خاصة.

ونظراً لطبيعتها التجارية، فقد اعتمدت سبتة أساساً على الخارج في التزود بالمواد الغذائية، وبالمواد الضرورية لصناعتها التقليدية. وساهم التوسع العمراني للمدينة وزيادة عدد سكانها في تسريع إنتاجها الحرفي الذي سيصبح أحد العناصر الأساسية في علاقات المدينة التجارية بباقي مناطق المغرب، وبدول حوض البحر الأبيض المتوسط.

ويبدو أن كثيراً من العلماء والمتصوفة السبتيين قد تعاطوا للنشاط الحرفي، وهو ما يؤشر على أهمية العمل اليدوي في البنية الاقتصادية للمدينة، ونظرة المجتمع السبتي إليه. ورغم أن المدينة عرفت انتشاراً ملحوظاً للتصوف في العصر الوسيط، فإننا نادراً ما نجد متصوفة عزفوا عن العمل، وركنوا إلى الراحة. بل على العكس من ذلك، نجد منهم من زاول مهناً بسيطة ترمز إلى التواضع والبساطة والتعبد. فليس غريباً أن نجد الأسماء الدالة على الحرف مثل العطار، والحداد، والسمار، والحرار، والدباغ، تكثر في التراجم التي وصلتنا لشخصيات سبتة. بل ظل الحرفيون والصناع يحتلون مكانة محترمة في

التراتبية الاجتماعية داخل المدينة حتى سنة سقوطها بيد البرتغال[93]. ومع ذلك، فإننا لا نعدم إشارة إلى علماء كانوا يستنكفون من مزاولة العمل اليدوي[94].

لقد انتظمت الصناعة بطريقة لم تختلف عن تنظيمها في المدن المغربية والإسلامية الأخرى[95]. فالتجمع الجغرافي، وتنظيم الصناع حسب الحرف، يظل طابعاً مشتركاً في جميع المدن الإسلامية. فقد كانت الحرف تنتظم في توزيعها حسب توزيع جغرافي يعكس أهميتها انطلاقاً من وسط المدينة؛ كما أن الحرف التي كانت تحتاج إلى مساحة كبيرة، أو ذات الروائح الكريهة، كان يتم إقامتها خارج الأسوار.

ومع ذلك، فإن هذا التوزيع حسب الحرف لم يكن إلا نسبياً في سبتة. فقد اضطرت المدينة بسبب ضيق مساحتها إلى تشتيت الأنشطة الحرفية الواحدة على طول مجالها الحضري. فالتربيعات مثلاً، كانت توجد داخل الأسواق، وبالممرات "من أول المدينة إلى آخرها"[96]. كما إن وجود "الأمناء"، أو "العرفاء"، أو "المقدمين"[97]؛ والتفريق بين "شيوخ الصناع"، و"الصناع"،

---

93 - أشير المؤرخ البرتغالي «زورارا» إلى ثلاث فئات مهنية على قدم المساواة بمدينة سبتة عند سقوطها سنة 1415 قائلا: «جميع سكانها من التجار والصناع والبحارة»

Cité par R. Ricard, "Le Maroc septentrional au XVe siècle d'après les chroniqueurs portugais", In *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Coimbre, 1955, 19.

94 - في ترجمته لمحمد بن أحمد التلمساني الأنصاري، السبتي الدار، يقول ابن الخطيب أنه كان «مؤثر للراحة نافر عن الكد... جار على سنن شيوخ الطلبة والمقتاتين من الأرزاق المقدرة...». ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج 3، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، 1975، ص 200.

95 - ناجي عبد الجبار، **دراسة في تاريخ المدن العربية الإسلامية**، بغداد، 1986.

- Hourani A. M. et Stern S. M., *The Islamic City*, Oxford, 1970.
- Chevallier, D., *L'Espace de la ville arabe*, Paris, 1979.
- Bouhdida A et Chevallier, D., *La ville arabe dans l'Islam*, Tunis, 1982.

96 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37.

97 - يشير التجيبي إلى «مقدم الموثقين بسبتة ورئيس جماعاتهم»، **برنامج التجيبي**، تحقيق ع. منصور، ليبيا - تونس، 1981، ص 74.

و"المعلمين"، و"المتعلمين" في سبتة[98]، كلها دلائل تشير إلى أن المدينة لم تنظم حياتها الحرفية بطريقة مختلفة عن التنظيم المعروف في المدينة الإسلامية عموماً.

2 - الإنتاج الحرفي

ليس هدفنا إعطاء جرد شامل بالأنشطة الحرفية التي قد تكون عرفتها المدينة، وإنما إبراز أهمية بعضها في حياتها الاقتصادية. ولعل أهم صناعة كانت تعرفها المدينة واستمرت مزدهرة حتى سقوطها بيد البرتغاليين، هي صناعة السفن، والصناعات النسيجية.

من المعلوم أن **صناعة السفن** التي تعتبر "من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها"[99]، كانت تتطلب بنيات معينة، يتوقف تطورها على وجود شبكة من العاملين بالميناء، من تقنيين أكفاء يشرفون على تصاميم السفن، ومراحل صنع القطع البحرية، ويد عاملة مدربة ومتخصصة، وضمان المواد التي تحتاجها السفن. من جهة أخرى، نجد أن نشاط الحركة التجارية، والأعمال، والمضاربات، والعلاقات التجارية الدولية بالمدينة، جعل ميناء المدينة يتطور بموازاة تطور دار الإنشاء.

والواقع أن أوراش بناء السفن بالمدينة تعتبر من أقدم الأوراش المغربية على الإطلاق[100]. وقبل فتح العرب لها، كانت المدينة هي القاعدة البحرية

---

98 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37؛ **أزهار الرياض**، ج 1/ 44.
99 - **المقدمة**، 437.
100 - يؤكد كلود كاهن وجورج كولان «أن أقدم دار صناعة السفن في بلاد المغرب هي دار الصناعة بسبتة وبطنجة» "Dar al Sina' a", *Ency. De l'Islam 2*, t. 2, pp. 132 - 133

البيزنطية الرئيسية في الحوض الغربي للبحر المتوسط[101]. ولم يكن لمؤسس الدولة الموحدية أن يستغني عن القطع البحرية التي كانت توفرها أوراش سبتة. كما أن ابنه، أبا يعقوب، كرس هذه الأهمية بتوسيعه لدار الصناعة التي ظلت مرتبطة باسمه حتى سقوط المدينة بيد البرتغال، سنة 818 هـ/ 1415م[102].

وأنشأ مؤسس الدولة المرينية دار الصناعة بسلا ليستغني عن الأسطول السبتي. لكن دار الإنشاء السلاوية لم تكن تجهز إلا القليل من القطع البحرية، وظلت سبتة هي القاعدة الأساسية لصناعة السفن المغربية. وتولى الإشراف عليها وتوسيعها حكام المدينة العزفيون.

ونحن نعلم أن كُلّ تاريخ صناعة السفن مرتبط بتاريخ الخشب، كما أوضحت ذلك منذ فترة طويلة أبحاث "موريس لومبار"[103] . ولم تفقد دار الصناعة السبتية أبداً المواد الأولية الضرورية. فخشب جبال الريف كان يُساق بسهولة، عن طريق البر والبحر، إلى سبتة من بادس وغيرها[104]. بل إن الأنصاري يوضح لنا أنواع المواد الأولية اللازمة لبناء السفن، وتوفرها بنواحي سبتة وقراها، "من أقصى الريف شرقاً، وإلى قصر كتامة، أول بلاد الهبط غرباً"؛ وهي القرى التي كانت تتوفر على كثير من "ضروب الشجر وشعاري الأرز والبلوط والطخش والبقس وما أشبهه من مكارم الخشب

101 - Ahrweiler A., *Byzance et la mer*, Paris, 1966, p. 11 et note 5.

102 - **الحلل الموشية**, 158. Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit .p. 25.

103 - «في جميع الأوصاف الجغرافية للعصر الوسيط، تظهر غابة جبال الريف وكأنها مخزنا لا ينفد للخشب المستعمل في دور الإنشاء في موانئ البحر الأبيض المتوسط»
M. Lombard, *Arsenaux et bois*, 71

104 - ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، 73، **مناقب أبي يعقوب البادسي**، في؛ أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، ج 1، طنجة، 1974، 322.

وأنواعه، ومعادن الحديد والقار، وسوى ذلك مما يعود نفعه على الثغر، **ويستعان به على الإنشاء**، وما يرجع إلى الأمور الجهادية"[105].

لقد اكتسب السبتيون تجربة كبيرة في شؤون البحر، وخبّروا الوسائل الضرورية للإنشاء والملاحة البحرية. ومن المؤكد أن النشاط الصناعي الأول للمدينة كان هو صناعة السفن. ولم تضمحل أهمية دار الإنشاء السبتية طيلة العصر الوسيط بتاتاً. فالأنصاري يشير إليها كإحدى المعالم الكبيرة بالمدينة[106].

وارتباطا بالنجارة لا بدّ من الإشارة إلى نشاط برع فيه السبتيون، يتعلق الأمر **بصناعة القسي**، لا لأهميتها الاقتصادية كسلعة تجارية فحسب، وإنما لكونها كانت السلاح الأمثل للدفاع عن المدينة ووسيلة حيوية في الصراع من أجل السيطرة على مياه الزقاق[107]. لقد وصف ابن الخطب سبتة بأنها "دار الناشبة"[108]، لكن الأنصاري هو الذي يقدم لنا معلومات في غاية الأهمية حول هذه الصناعة. فهو يشير إلى وجود خمس عشرة منجرة في أيامه (بداية القرن 9 هـ/15م)- بعد أن كانت أربعين في فترة سابقة- وكلها معدة "العمل القسي"، عشرون منها كانت توجد بالممرّ الأعظم، وهو الأمر الذي يؤشر على أهمية تجارتها بداخل المدينة، بينما كانت العشرون الأخرى توجد بمنازل المعلمين والصناع. فقد تخصّصت بعض العائلات السبتية في صنع القسي، كبني القنطري وبني العاقل وبني ابن غالب وغيرهم. ومن المؤكد أن هذه الحرفة كانت تحظى باحترام السبتيين، لأننا نجد الشرفاء والمتصوفة وبعض عليّة القوم

---

105 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 56 - 57 ويبدو أن معادن حديد طنجة الجيد هي التي كانت تستعمل في سفن سبتة؛ ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، 147.

106 - محمد الشريف، "الأسطول السبتي بين التجارة والحرب"، ضمن كتاب، **الغرب الإسلامي : نصوص جديدة ودراسات**، ط. 1، تطوان، 1996

107 - انظر مادة "**رماة سبتة**"، ضمن معلمة المغرب، ج 13، ص 4431-4432

108 - ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، 147.

من الذين امتهنوها. كما أن الأوصاف التي أطلقها النصاري على بعض الصناع مثل : "الشيخ" و"الشريف" و"الوجيه" و"الحسيب" و"المتقدم" و"الفاضل"، تؤكد هذا الطابع وتلك الأهمية؛ كما يؤكدها إخضاع هذه الحرفة لرقابة السلطات المحلية. فمن بين ديار الإشراف التي وُجدت بالمدينة نجد "دار الإشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليها"[109].

وعرفت **صناعة النسيج** من جانبها تطوراً كبيراً بالمدينة، على الرغم من منافسة المنتجات المسيحية لها. فالأنصاري يشير إلى إحدى وثلاثين تربيعة، "معلومة للحرارين والقزازين"، فضلا عن التربيعات الأخرى الموجودة داخل الأسواق، وبالممرات "من أول المدينة إلى آخرها"، وأعظمها كانت "سامية في الهواء [...] على ثلاث طباق"[110].

إن إحدى الأدلة الأخرى عن قوة هذا النشاط بالمدينة تدلّ عليه عدد **المقاصر**، أي أماكن دق الثياب وتبييضها. فقد كان عددها بالمدينة يصل إلى خمسة وعشرين مقصراً، منها بالميناء ستة عشر، وستة مقاصر داخل المدينة، كما كانت لأهل الأرباض ثلاثة مقاصر خاصة بهم، بل إنها انتشرت حتى في القرى السبتية. فقد كان بقرية الأنصاري "مقصر كبير [...] حصباؤه كالدر نصوعاً وبريقاً". هذا بالإضافة إلى "المقاصر الغزلية" التسعة عشر.

---

109 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 41-42. وقد وصلتنا نماذج من النقش على الخشب تؤشر على مهارة النجارين السبتيين، ومنها تلك التي يحتفظ بها في المتحف الأثري بسبتة وتعود إلى المدرسة الجديدة التي بناها السلطان بي الحسن المريني بسبتة.(انظر :
Virgilio M. Enamorado, *Epigrafía y poder; Inscripciones áarabes de la Madrasa al-Jadida de Ceuta*, Ceuta, 1998, pp135-173

110 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37.

والملاحظ أن أغلب المقاصر كانت توجد تحت الأسوار والأبراج والأبواب، وقرب القالات التي تزودها بالمياه الضرورية. وقد كانت الأمتعة التي يتم قصارتها تنشر نهاراً على أسوار الأبراج، وتحط ليلاً، إلى أن يتم تسليمها لأصحابها. ولقد شجعت السلطات هذا النشاط بسبتة عن طريق تخفيض الضرائب المفروضة عليه[111].

إن نسبة مهمة من الإنتاج النسيجي كانت تأتي عن طريق المغازل المنزلية. واشتهرت سبتة بكونها هي المزودة للمدن المغاربية الأخرى. فقد كانت الزرابي السبتية المصنوعة من "الصوف والكتان"، وكذلك الأحزمة المطروزة، و"الكبوط" المصنوع من الكتان، تجد أسواقا لها حتى في القارة الأوربية[112]. ومن بين الوثائق القطلانية المثيرة للانتباه بهذا الصدد تلك المتعلقة بصفقة تجارية لأخوين قطلانييْن بلغت قيمتها 170 ليرة بعملة برشلونة تتمثل في "أقمشة مزركشة، وأقمشك كتانية مصبوغة تسمى "السبتية" *Septies*، وأقمشة كتانية أخرى بيضاء، وسلع أخرى مجموع قيمتها 800 ليرة"[113]، إلا أننا لم نقف على وثائق أوربية أخرى تشير لهذا النوع من الأقمشة "السبتية"، ليتأكد لدينا قطعيا وجود صناعة نسيجية قطنية وكتانية مزدهرة بما فيه الكفاية، لتصبح مشهورة في الأسواق الأوربية، وتحمل "ماركة" تجارية هي *Septies* .

---

111 - نفسه، 40.

112 - مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ج 2، 215

Primaudaie, *Les villes maritimes*. op. cit., 205

113 - Madurel y Marimon y Garcia Rivas, *Comandas comerciales barcelonesas de la baja Edad Media, Barcelona*, 1973, pp.45-46

لقد نعَت ابن الخطيب المدينة بكونها "محط قوافل العصير والحرير والكتان"[114]. ومن الجدير بالذكر أنه كان يوجد سوقان لبيع الألبسة الكتانيّة والحريرية؛ هما سوق القطانين[115] وسوق الكتّان[116]. ويظهر أن الإنتاج السبتي من النسيج كان يعطي الأولوية للكمية أكثر من إعطائها للكيفية. فالأطرزة لم تكن تنتج أنواع الثياب الحريرية الفاخرة التي يجلبها التجار النصارى إلى المدينة. فقد أهدى "ناصح صاحب" الديوانة، إلى الناصر الموحدي، من تحف ما يجلبه التجار النصارى لديوانة المدينة ثوبين حريريين نسجاً بأنواع الجواهر، وجعلت فيهما أعلام من اليواقيت[117].

لم تعرف صناعة **دبغ الجلود** ازدهاراً بسبتة، ولا نتوفر على أية إشارة للدباغين بالمدينة. ولكن نظراً لأهمية الجلود في التجارة الخارجية لمدينة الزقاق، يمكن القول أن المادة كانت تصلها مدبوغة من داخل المغرب، وخصوصاً من فاس، التي كانت تتوفر على 86 مدبغة في عصر الموحدين. ولكن ذلك لم يمنع من تطور بعض الحرف المرتبطة بالدباغة والجلود، مثل تفسير الكتب، وصناعة الأحذية الجلدية. هذه الأخيرة نافستها صناعة القرق التي تطورت بسرعة بالمدينة، بدليل وجود سوق خاص ببيعها، هو سوق القراقين[118].

إن سبتة التي كانت مركزاً مهماً للعلم والثقافة عرفت كذلك تطوراً في **الوراقة**؛ التي قد تعني صناعة الورق أو بيع وشراء الكتب واستنساخها.

---

114 - **معيار الاختيار**، 146.
115 - **مذاهب الحكام**، 205.
116 - **الإحاطة**، ج/ 57؛ البادسي، **المقصد الشريف**، 140.
117 - التيجاني، **رحلة التجاني**، نشر محمد بن عبد الوهاب، تونس، 1957، 359.
118 - البادسي، 98، 148؛ **التكملة**، 2/ 599.

واشتهرت المدينة بورقها "السبتي" الذي كان، حسب شارل أندري جوليان، مشهوراً، مثل ورق مدينة شاطبة الأندلسية[119]. بل إن المدينة كانت تصدر هذه المادة. وقد احتفظت بعض الأرشيفات الإسبانية بوثائق مكتوبة على هذا الورق السبتي الذي صارع الزمن واحتفظ بكثير من رونقه[120]. وفي بداية القرن التاسع الهجري/ 15 م، كان يوجد بالمدينة زقاق خاص بصناعة أو بيع الورق، هو "زقاق الورّاق"[121].

وعرفت **صناعة المواد المعدنية** نمواً مطرداً بالمدينة، إذ تشير النصوص إلى مهارة الصناع والعمال السبتيين في "المصنوعات النحاسية، كالشمعدنات والجفان والمحابر وغيرها، فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة"[122]. ويؤكد الأنصاري أن سوق السقاطين كان "من الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية القوية الصبغة، العجيبة الصفرة، بسبتة دون غيرها"[123].

119 - Julien. Ch. A., *Histoire de L'Afrique du Nord*. II. p. 122.

120 - من بين الوثائق التي كتبت على الورق السبتي نجد "معاهدة فاس" المحفوظة بأرشيف سرقسطة، وكذا مخطوط يحمل رقم Ms-18635-29 Caja N°6 Fez 1309 وهو عبارة عن رسالة من السلطان أبي الربيع إلى قاشتيلنو Castellnou، يفتخر فيها بالورق السبتي، وقد كتبت بخط قوطي جميل جدا وواضح، مما يدل على أنها نسخت بشبه الجزيرة الإيبيرية. وتوجد كذلك بالمكتبة الوطنية بمدريد ضمن محفظات"امتيازات وأوامر اشبيلية" Privilegios y Ordenanzas de Sevilla وثائق عديدة تغطي الفترة الممتدة من سنة 1248 (تاريخ منح الملك فرناندو الثامن أول امتياز) إلى سنة 1394 (عهد الملك هنري الثالث)، ويصل مجموع هذه الوثائق إلى 130 ورقةfolio كلها من " الورق السبتي" من حجم 321x 247 وفي كل ورقة 35 سطر. وحالة هذه الوثائق جيدة على الرغم من بعض الثقوب التي أصابتها. ومما يدل على الجودته العالية للورق السبتي عدم تلاشيه رغم أن نساخ الوثائق كانوا يكثرون من المداد في كتابتهم. انظر :
Maria Del carmen Mosquera Merino, *La señoria de Ceuta*, op. cit. pp. 473-474.

121 - **بلغة الأمنية**، 33.

122 - ليون الإفريقي، 317.

123 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 36.

وقد رأى الحسن الوزان بعضاً منها في إيطاليا بعد سقوط المدينة بكثير، "وكان كثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشق"[124].

ويمكننا أن نربط مهنة الصاغة، التي تخصّص اليهود فيها، بهذه الصناعات. كما أن **دار سكّ العملة** كانت من أهم دور السك المغربية، وإحدى المؤسسات الهامة بالمدينة الموجودة بالقصبة. وقد ظلت قائمة منذ القرن الخامس الهجري/ 11 م على الأقل إلى سقوط سبتة سنة818 هـ/ 1415 م[125]. ومن المؤكد الآن أن إحدى فترات الازدهار الكبرى لدار السكة بسبتة هي التي عرفتها خلال عصر الخليفة الموحدي المرتضى (أبو حفص عمر). فقد بلغ ما أخرجته دار السكة السبتية مقدار 2835 كلغ من الذهب المسكوك، ما بين مثقال ونصف المثقال وربعه، خلال المدة الممتدة ما بين سنتيْ 646 و 665 هـ/ 1248 - 1266 م. وهي كمية من الذهب لم تسكها مدينة في الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة ولا بعدها[126]. ومن الجدير بالذكر أن سبتة كانت أكبر أسواق الذهب بالمغرب، وأن العملة الذهبية الجيدة المسكوكة بهذه المدينة كانت قد انتشرت في أوربا، واشتهرت باسم *Ceitil*[127]. إن رغبة البرتغاليين في الحصول

---

124 - ليون الإفريقي، 317.

125 - محمد الشريف، "مسألة سك العملة بين ابن حزم وأبي العباس أحمد العزفي"، ضمن كتاب : **الغرب الإسلامي : نصوص دفينة ودراسات**، م.س.

126 - Benhain Mesmoudi R., *Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman* (450/1058- 59 à 830/1426-27). Thèse de Doctorat, Paris I, 1994, pp. 598- 603

127 - Posac Mon, C., " *El Ceitel ¿moneda de Ceuta?*", *Transfretana*, N°6, 1993,
Godinho, *L'Economie*, op. cit., 177 - 178.
Posac Mon, C., *La historia de Ceuta a través de la numismática*, Ceuta, 1985.

علـى الـذهب لا يمكـن التقليـل منهـا أو اسـتبعادها كعنـصر رئيـسي فـي دفعهـم للاستيلاء على سبتة سنة 818 هـ/1415م[128].

لم تشر مصادرنا الكتابية إلى صناعة **الخزف والزجاج**. ولكن من خـلال الـشهادات الأركيولوجيـة، يمكننـا التأكيـد علـى أن اسـتعمال الأوانــي الخزفيـة المبرنزة كانت منتشرة بالمدينة، وخاصـة في العصر المرينـي. ولكننـا نجهل إن كانت تـصنع بالمدينـة أم كانـت مستوردة. ولـم تختلف تقنيـات الزخرفة بهـا عن مثيلاتها السائدة بالأنـدلس فـي نفس الفتـرة[129]. أمـا بخـصوص صناعة الزجـاج، فتشير إليهـا فتـوى للقاضـي عيـاض. كمـا أن "رحبـة الزجـاج"[130] كانـت مكانـاً خاصاً لبيع هذه المادة وصنعها. فكثير من معالم المدينة كانت منمّقة بالزجاج.

إن **استخراج المرجان** من بحار سبتة قد خلق نشاطاً حرفياً مهمـاً بالمدينـة منذ القرن السادس الهجري/ 12 م على الأقل. فقد كـان بـسبتة سـوق متخـصص في تفصيله وحكّه وصنعه خرزاً، وثقبه وتنظيمه. ومن المؤكد أن هذا النشـاط قد اضمحل مع اضمحلال صيد المرجان في القرن الثامن الهجري/ 14 م.

---

[128]- لقد عرف القسم الجنوبي من أوربا "مجاعة نقدية" في القرن 14م لم يسبق أن عرفها من قبل، مرتبطة بأزمة الحصول على الذهب. وبسبب النقص في هذه المادة توقفت البرتغال عن سك عملة ذهبية خاصة بها منذ عام 1383م. كما أن الأزمة الطويلة التي كانت تعاني البرتغال منها قبيل حملة سبتة نتيجة النقص الكبير في موارد الدولة، دفع بالملك جواو الأول إلى العبث بالعملة، وتخفيض قيمتها، لتسديد ديونه. فقد أصبحت قيمتها سنة 1409 أقل من قيمة العملة القديمة الذهبية بخمسين مرة، ونزلت إلى 700 مرة سنة 1435. وكانت فئة التجار على رأس المتضررين من هذا الانخفاض، فلا غرابة أن وجدناهم وراء اختيار سبتة كأول هدف لكونها كانت آنذاك أهم أسواق التبر بالمغرب (أحمد بوشرب، **المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16**، ضمن كتاب : **في النهضة والتراكم**، ص 188، 196؛ محمد الشريف، **المغرب وحروب الاسترداد**، م. س.113)

129 - Posac Mon C., "Datos para la arqueologia musulmana de Ceuta", *Hespéris- Tamuda,* I. 1960, 162 - 163.

Fernandez Sotco, *Ceuta medieval: aportación al estudio de las ceramicas, (s. X-XV)* Ceuta, 1988.

130 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 36.

وفيما يتعلق **بالصناعات الغذائية**، فقد تمثلت أساساً في الطحن والخبازة وتعصير الزيتون. فالمطاحن كانت نشيطة جداً في مجتمع يشكل فيه الخبز العنصر الأساسي في الغذاء. فقد وصل عددها بالمدينة مائة وثلاث، من أعظمها طاحونة بالمسامرين كانت "ضخمة البناء، واسعة الأفنية، كثيرة المدارات"، وكانت "تحتوي على مخازن وقاعات ومساكن"[131]. ولم تكن المطاحن التي توجد داخل المدينة تكفي لسد حاجيات السكان، فقد كانت ثلاث وأربعون رحى طحانة أخرى بالقرى المجاورة للمدينة تعمل لصالحها.

لا تشير المصادر إلى **المطاحن الهوائية**. ومن الراجح أنها تواجدت على المرتفعات السبتية. وكانت بعض المطاحن لا تشغل إلا خلال الليل، لتسمح بري المزارع. وهناك من الأرحاء من كانت تتوقف عن العمل لنقص الماء، وخاصة في فصل الصيف[132].

ولقد ارتبطت **الأفران** بالمطاحين. وكان عددها في فترات الازدهار السبتي ثلاثمائة وستين. كان بعضها عبارة عن مركبات ضخمة. فالفرن الذي بناه العزفي في أعلى زقاق ابن يربوع كان "متسع المساحة، كبير البيت مع حسن البناء ونظافته"[133]. ويظهر أن البعض الآخر كان يتوفر على منشآت عدة، ويشغل يد عاملة مهمة، مثل "الكوشات"[134]. وما يفسر هذه الأهمية، هو أن الخبز لم يكن ضرورياً لتموين سكان المدينة فقط، وإنما كذلك لتغذية عدد كبير من التجار والعابرين.

---

131 - نفسه، 42.

132 - **مذاهب الحكام**، 106- 109.

133 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 39.

134 - الأزدي، **تحفة المغترب ببلاد المغرب**، م. س. 113.

ولم تغب **صناعة الزيتون** عن مدينة سبتة. إلا أن ضعف إنتاج هذه المادة لم يسمح بنمو هذا النشاط الحرفي. ويبدو أن حاجيات السكان من الزيوت كانت تغطيها التجارة الكبيرة[135]. ومنذ القرن الخامس الهجري/ 11 م وُجد "سوق الزيت"[136] بالمدينة، كما وُجدت "طاحونة الزياتين" بها[137].

ومن المفترض أن تكون هناك **صناعة السكر** بالمدينة على الأقل في القرن السادس الهجري/ 12 م، إذ تشير مصادرنا إلى وجود قصب السكر ببليونش[138]، كما أن الاستهلاك المحلي لهذه المادة كان مهماً لاستعمالها بكثرة في الحلويات[139].

135- خلف القبتوري، **رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، 121

136 - **مذاهب الحكام**، 205.

137 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37.

138 - انظر هامش 40-41

139 - يعتقد أنه يوجد بعض البقايا الأثرية لمعاصر قصب السكر بضواحي سبتة (Mosquera (Merino, *La señoria*...op. cit. p. 464

ثالثا : التجارة الداخلية

1 - إطار الأنشطة التجارية

كانت الأسواق عبارة عن بنيات اقتصادية مفتوحة، من أهم خصائصها التقليدية : التخصص (في نوعية السلع المعروضة)، والتركيز الجغرافي (تجميع أصحاب السلعة الواحدة في نفس المكان). لقد كان عدد الأسواق بسبتة في العصر الوسيط 174 سوقاً، منها 142 سوقاً خاصاً بالمدينة، بينما تقع البقية بالأرباض[140]. بالإضافة إلى الأسواق، يشير الأنصاري إلى 24 ألف حانوت منتشرة بالمدينة. وكانت أكثر من ذلك قبل بداية القرن التاسع الهجري/ 15م. إن هذه الأرقام التي قد تكون فيها بعض المبالغة كانت تضم، ولا شك، الحوانيت التي كانت تتكون منها الأسواق نفسها. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من هذه الحوانيت كانت من ممتلكات الأحباس[141].

فالإضافة إلى الأسواق والحوانيت، كانت القيسرية بسبتة تقدم نفس خصائص القيسريات الأندلسية خلال العصر الوسيط، سواء تعلق الأمر بموقعها، أو بشكلها الهندسي، أو بتخصصها[142].

وكانت توجد بسبتة الإسلامية أماكن أخرى للنشاط التجاري. إنها "التَرْبيعات" و"الرّحبيات"، و"الفنادق"؛ بالإضافة إلى "الديوانة" التي سنتناول نشاطها لاحقاً. فالتربيعات كانت عبارة عن أسواق صغيرة مربعة الشكل، تجمع بين خصائص الأسواق وخصائص الأزقة العمومية. لكن إحدى التربيعات السبتية كانت ضخمة

---

140 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 36.

141 - نفسه، وانظر كذلك، **مسائل أبي الوليد بن رشد**، 215.

142 - حول هذه الخصائص، انظر:

Torres Balbas, "Al Caicerias", *Al Andalous*, XIV, 1949.

البناية "سامية في الهواء [...] على ثلاث أطباق وفي صحنها مسجد". وقد كان عدد التربيعات المخصصة للحرارين والقزازين، دون غيرهم، 31 تربيعة[143]. أما الرحبات فيظهر أنها كانت مخصصة لبيع وشراء الحبوب. إن "الرحبة العظمى" كانت توجد بقرب فنادق تجار النصارى. ويشير عبد الحق البادسي إلى "رحبة الخطاب" التي كانت تقع بالميناء. وهناك رحبة ثالثة لم نستطع تحديد موقعها كانت تسمى "رحبة الوزان"[144]. بينما كانت "رحبة الزجاج" تقع داخل القصبة.

أما **الفنادق** التي وصل عددها إلى 360 فندقاً، فقد لعبت دوراً اقتصادياً أساسياً في المدينة. ونعرف بعضها، كفندق أحمد بن إبراهيم الزيات الذي كان يوجد غرب مقبرة السوق، ويعد أقدم فندق تشير إليه مصادرنا[145]؛ وفندق غانم الذي كان معداً لسكنى الناس من التجار وغيرهم، وفندق الوهراني، وفنادق التجار النصارى، فضلاً عن الفندق الكبير الذي كان "أعظمها بناء، وأوسعها ساحة"، وكان معداً لتخزين الحبوب[146].

قد تكون الأرقام التي يقدمها الأنصاري لا تخلو من مبالغة، وأن المؤلف كان يريد إظهار عظمة المدينة ليبرز مقدار خسارة المغاربة لها. إلا أن الازدهار التجاري الذي يعكسه لا يمكن الشك فيه. لم تكن سبتة عاصمة سياسية موحدية أو مرينية، ولكنها كانت عاصمة تجارية للمغرب في العصر الوسيط. إنها الميناء الرئيسي على الواجهة المتوسطية، والمركز النشيط للصناعة التقليدية، والسوق المتوسطية الهامة.

---

143 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37.

144 - البادسي، 140، *Saints du Rif*

145 - **مذاهب الحكام**، 194.

146 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 38 - 39؛ **الذيل والتكملة**، ج 8/ 416 (استعمال الفنادق لسجن الأسرى).

ليست لدينا أية إشارة حول الأسواق الأسبوعية أو الموسمية بنواحي سبتة القريبة، حيث يمكن أن يلتقي الفلاحون بمنتجاتهم الفلاحية، والصناع بموادهم المصنعة. ويصعب افتراض أن "سوق الكسابين"، بجانب باب البقر، كان سوقاً أسبوعياً يتردد عليه الكسابون لبيع ماشيتهم. لكن من الراجح أن سكان بليونش كانوا يأتون يوماً إلى سبتة لبيع منتجاتهم الفلاحية المختلفة، الشيء الذي غابت معه ضرورة خلق سوق أسبوعي.

لم تنفلت أسواق سبتة، كمثيلاتها من الحواضر المغربية الأخرى من مراقبة المحتسب. ورغم عدم توفرها على كتب حسبة سبتية موجهة للمحتسب المحلي، فإن وظيفة الحسبة كانت تطبق بهذه المدينة كما كان الأمر في المدن الأندلسية والمغربية الأخرى. ويمكن افتراض أن الصورة التي تقدمها رسائل الحسبة الأندلسية كانت صالحة للمحتسب السبتي، خصوصاً وأن بعض هذه الرسائل تحيل على محتسب سبتة فيما يخص بعض الميادين، كشؤون السفن وآلاتها، مثل الحبال والمسامير[147].

2 - تقنيات التبادل التجاري

بصفة عامة، كانت المبادلات التجارية تتم نقداً، أي بنقود ذهبية وفضية أساساً. لكن التبادل العيني لم يكن غائباً، وفي بعض الأحيان كان يصبح لازماً. وكان الاقتراض ممارسة منتشرة بكثرة، وغالباً ما يصحبه تحرير عقود. وفي حالة التشكي كان يطلب تقديم شهادة الديْن. وكان المدينون يقدمون شيئاً ما رهينة، وفي بعض الأحيان يرهن حتى المنزل[148]. كما نجد مديناً يوفي بدينه على دفعات. وهذه الطريقة لم

---

147 - أبو عبد الله محمد السقطي، **رسالة في آداب الحسبة**، نشر ليفي بروفنسال وكولان، باريس، 1931، 71.

148 - **مسائل أبي الوليد بن رشد**، 1، 102.

يجزها الفقهاء إلا إذا أخذت بعين الاعتبار ثمن الصرف الجاري، لتفادي الربا. لكن تجدر الإشارة إلى أن بعض الفقهاء كانوا من ممارسي الرّبا بطرق ملتوية[149].

ولعب الوسطاء دوراً كبيراً في التجارة السبتية. ففي الأسواق كان يلتقي التجار أصحاب البضائع والفلاحون وجمهور الناس. لكن نجد كذلك شخصية تلتقي عندها الأنظار، وهي السمسار، أي الوسيط بين الباعة والمشترين. في أغلب الأحيان يكون السمسار مجرد براح ينادي على السلع في الأسواق، معلناً أثمانها، أو مشرفاً على عملية المزايدة في ثمن سلعة معينة، تركها له أحد البائعين. إن العدد الكبير من الفتاوى المتعلقة بالسمسار تدل على أهميته من جهة، وعلى تعقيد وظيفته من جهة أخرى. إن أجرته غالباً ما كانت موضوع خلاف. ولا شيء يمكن أن يرشدنا إلى مقدارها. لقد كان للسمسار حانوته (أو إدارته) الخاصة، حيث يعرض خدماته على جميع الناس[150]. إن مسؤوليته كانت موضوع خلاف ومشاحنات يومية بسبب ضياع السلعة، أو إتلافها، وبسبب السرقة، وجميع أشكال الغش. ففي هذا الميدان نجد الفقه لا يُحمّل المسؤولية للسمسار، بشرط أن يكون سمساراً مأموناً معلوماً بالثقة، وليس عبارة عن سمسار لحظة معينة، أو سمسار يبيع سلعته الشخصية. وبصفة عامة كان السمسار الحقيقي يعتبر كأجير مؤتمن، ولا يتحمل مسؤولية ضياع السلع وإتلافها إلا إذا ثبت أنه تهاون في مسؤوليته. وفي سبتة لم تكن الأمور كذاك، إذ كان على السماسرة أن يقدموا ضامناً لهم، يكون هو المسؤول في حالة تلف أو ضياع السلعة. ولقد برر محمد بن القاضي عياض هذا التشدد بكون السماسرة قد "كثروا، وقل المؤتمن فيهم"[151].

---

149 - لدينا فتوى حول عقد بيع وشراء يحتمل الربا بين بائع «من أهل العلم والفقه وهو كان عاقد العقد، والمشتري رجل أمي لا يقرأ ولا يعلم ما عقد عليه»، **مذاهب الحكام**، 255.

150 - **مذاهب الحكام**، 162 - 169.

151 - نفسه، 164.

3 - أنظمة الوزن والكيل

إن وحدات الوزن (الرطل، الأوقية، القنطار، الربع، المثقال...)، والكيل (المد، القفيز، القدح، الصحفة، الوسق...)، هي وحدات يحددها العرف، وتختلف من مكان لآخر، وتتباين حسب طبيعة السلعة الموزونة أو المكيلة. بل إنها تختلف من حرفة إلى أخرى. وبسبب اختلافها من مدينة إلى أخرى، فإنه من الصعب إعطاء تدقيقات إحصائية حول قيمة هذه الأدوات خلال فترة معينة. ولم تستطع السلطات توحيد هذه الأنظمة، رغم محاولاتها المتكررة، وخاصة على عهد المرينيين[152].

لقد امتاز القفيز السبتي بالضخامة حيث كان يساوي حوالي ثمان هكتوليترات في الأسواق المتوسطية خلال القرن السابع والثامن الهجريين/ 13 - 14 م، بينما كان قفيز تونس يساوي 1.75 وقفيز بلنسية 4.1 وقفيز أراغون 8.1 وقفيز طرابلس 5.2[153].

في القرن الثامن الهجري/ 14 م وصف ابن الخطيب سبتة بأنها "قويمة المكيال والميزان". ولكننا لا نعرف مقارنة مع أي أنظمة وزن وكيل أخرى. إن التغلب على السلبيات التي تطرحها أنظمة الوزن والكيل كانت مهمة حساسة جداً بمدينة سبتة التي تتوافد عليها سلع جميع مناطق حوض البحر المتوسط. بل إن صعوبة التعامل بمختلف الأوزان والمكاييل حتمت على المشتري والبائع الاتفاق مسبقاً على النظام المستعمل في تقييم السلع. ولا نستغرب إن اشترط السبتيون في عقود بيعهم، أو صدقاتهم، أن يكون النظام المرجعي المعتمد هو نظام وزن مدينتهم وكيلها[154].

---

152 - مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول**، د. د. ع، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب - الدار البيضاء عين الشق، 1988 - 89، (الفصل الثالث).

153 - Pegolotti (F. Di B.), *La pratica della mercatura*, Ed. Allan Evans, Cambridge (Mss.), 1936, p. 21.

154 - **مذاهب الحكام**، 182.

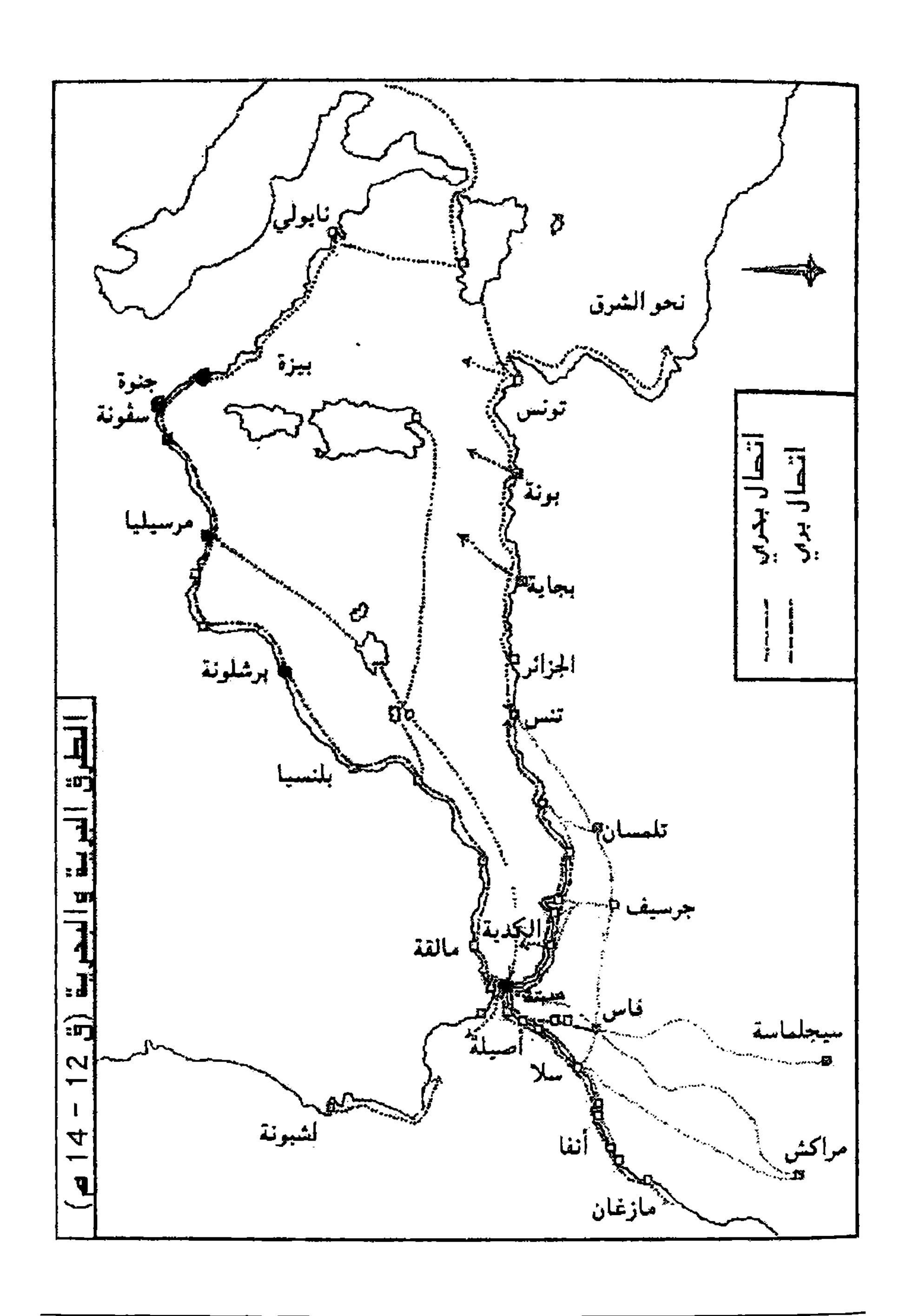
كانت مدينة سبتة تعيش أساساً على المبادلات التجارية مع عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن لها أن تستغني عن الأداة الأساسية لحياتها اليومية، أي العملة. لقد كان النقد يوجد بكثرة بالمدينة، ويستعمل على نطاق واسع في اقتصاد يقوم على المبادلات النقدية حيث أبسط العمليات التجارية كانت تتم بالنقود. فالصدقة والهبة والزكاة والكراء والأجور والهدايا كان يتم التعبير عنها بالدينار والمثقال والدرهم والقيراط... ويقدم لنا كتاب "**مذاهب الحُكام**" للقاضي عياض، أمثلة عديدة حول الأهمية التي كانت للتعامل النقدي الذي طبع كل القطاعات الحياتية واليومية بسبتة. وفي النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ 14م، نجد "بيغولوتي" يؤكد أن "العملات المستعملة بسبتة هي الدينار الذهبي والدينار الفضي، ووحدات نقدية مصغرة أخرى، ويعادل الدينار الذهبي 12 دينارا فضيا، ويساوي كل دينار فضي عشرة دراهم فضية"[155]

ففي اقتصاد يقوم على التبادل النقدي، ستكون التبدّلات في وزن وعيار النقود عوائق أمام التجارة. وإذا كان بعض التجار قد تمكنوا من التغلب على هذا المشكل بتحديد قيمة الصرف، وطبيعة النقد، ومكان إصداره في عقودهم، فإن أغلبية سكان المدينة كانوا يجدون أنفسهم تائهين في سراديب الظروف التقنية للصرف، والمشاكل الناجمة عنها. وسيصبحون فريسة في يد الصيارفة الذين كانوا يعرفون، بحكم مهنتهم، نسبة الذهب إلى الفضة، ويحددون الأثمنة تبعاً لذلك. في هذا الإطار بالذات يجب أن نضع تأليف أبا العباس أحمد العزفي : "إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد"[156].

---

[155] - مصطفى نشاط، " التجارة المغربية في العصر المريني من خلال كتاب مرشد التجار للفلورنسي بيغوليتي"، ضمن كتابه : **نصوص نترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط**، وجدة، 2005، ص 37

[156] - أبو العباس أحمد العزفي السبتي، **إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد**، تحقيق د. محمد الشريف، المجمع العلمي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999


الطرق البرية والبحرية (ق 12 - 14 م)
اتصال بحري
اتصال بري
نابولي
نحو الشرق
بيزة
جنوة
سفونة
تونس
بونة
مرسيليا
بجاية
الجزائر
برشلونة
تنس
بلنسيا
تلمسان
جرسيف
مالقة
فاس
سيجلماسة
أصيلة
سلا
لشبونة
أنفا
مراكش
مازغان

رابعا : التجارة الخارجية

"وهي ركاب البحرين، شبه الاسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"

ابن سعيد المغربي (ق 7هـ/13م)

نعتقد أن الإلمام بتطور الاقتصاد المغربي خلال العصر الوسيط لن يكون شاملاً إلا بالوقوف عند أحد أبرز تجلياته المتمثلة في التجارة البحرية، (أو المرفئية). وإذا كانت مجهودات الباحثين قد انكبّت، ومنذ فترة طويلة، على إبراز أهمية التجارة الصحراوية (القافلية)؛ فإن التجارة البحرية لم تخصص، لها لحد الآن، دراسة مستقلة، وإنما يتم التطرق لبعض معالمها في فقرات مقتضبة، متضمنة في دراسات عامة تلامس بعض مظاهر الاقتصاد المغربي الوسيط. ويبدو أن ندرة الوثائق العربية هي التي تقف وراء إحجام الباحثين العرب عن الخوض في هذا الموضوع. فجل معلوماتنا عن التجارة البحرية مستمدة أساساً من وثائق الأرشيفات الأوربية؛ وهي وثائق لاتينية بالدرجة الأولى[157]. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوثائق التي تزخر بها أرشيفات إيطاليا

---

157 - انظر مثلا: Bautier H., "Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du XIIe au XIVe siècle", dans *Actes du IV Colloque International d'histoire Maritime*, Paris, 1959, pp. 137-177.

وانظر الصفحات التي خصصتها الباحثة الإسبانية ماريا ديل كارمين موسكيرا ميرينو لمصادر دراسة تجارة سبتة في العصر الوسيط ضمن كتابها : Maria Del carmen Mosquera Merino, *La señoria de Ceuta en el siglo XIII*, op. cit. pp. 402-409

وراجع كذلك الدراسة التقويمية الجيدة لوثائق أرشيف جنوة التي قام بها جورج جيهال :

Jehel G., *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle)*, Paris, 1993, pp. 111-115.

ويقول نفس الباحث في مكان آخر : " ليس هناك من أرشيفات أكثر أهمية من الأرشيفات الجنوية لقياس كثافة العلاقات الاقتصادية وطابعها المبكر مع العالم الإسلامي

وإسبانيا بصفة خاصة، تقدم للباحث في التاريخ التجاري المغاربي، مادة تاريخية غنية، تسمح له بتطبيق المقاربة الكمية والمناهج الإحصائية؛ وهو الأمر الذي لا تسمح به النصوص العربية القليلة المتناثرة في مظان مختلفة، والتي لا تتجاوز غالباً إطار الارتسامات والتقديرات الوصفية.

ومن الثابت الآن، أن العلاقات التجارية بين ضفتيْ حوض البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع عبر العصور. ولم تصمد أطروحة "هنري بيران" حول انفصام الصلات بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي، وتفكك أواصر الوحدة التي سادت البحر المتوسط بسبب الفتح الإسلامي[158]. فالوحدة التجارية لحوض البحر المتوسط تثبتها الأبحاث التاريخية الجادة، كتلك التي قام بها "كويتن" اعتماداً على وثائق "الجنيزة" الغنية، حيث تجلت تلك الوحدة من خلال كثير من مظاهر العادات المشتركة بين شعوب ضفتيْ الحوض المتوسطي، وهو الأمر الذي يستلزم موضوعياً وجود اتصالات تجارية بينهما[159]. كما أن "كلود كاهن" يتطرق لموضوع هذه الوحدة، ويؤيدها بدعامة لسانية تفيد بوحدة مسميات البضائع، ومصطلحات البحرية والتجارة ذات الأصل العربي، والتي دخلت إلى سائر اللغات الأوروبية[160]. وإذا سلمنا باستمرار الوحدة التجارية

الغربي"(جورج جيهال، **"جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط"**، مجلة كلية الاداب بتطوان، العدد 8، 1997، ص 100

158 - لقد أثارت أطروحة «هنري بيران» في وقتها نقاشات حادة بين المؤرخين. انظر مثلا:

Perroy E. (éd), "Encore Mahomet et Charlemagne", *Revue Historique*, 1954.

Cipolla C., "Sans Mahamet Charlemagne est inconcevable", *Annales ESC*, XVII, 1962

159 - Goittein. S. D., *Jews and Arabs: their Contacts through the Ages*, New York, Schochen, 195

Id.,"The Unity of the Mediterranean World in the "Middle" Middle Ages", *Studia Islamica*, XII, 1960.

160 - Cahen C., "Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au Haut Moyen Age" *in, les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977. p. 347 et sq.

لحوض البحر المتوسط، فإن العلاقات التجارية المغربية الأوربية لم تنقطع عبر العصور، لتبلغ أرقى درجات تطورها ما بين القرن السادس والسابع الهجريين/ 12 - 14 م. وهذه العلاقات ستصبح محكومة بمعاهدات واتفاقيات تجارية، تعتبر نصوصُها أهم مادة لدراسة موضوع العلاقات التجارية المغاربية الأوروبية خلال العصر الوسيط. وقد نشر أغلبها الباحث الفرنسي "ماس لاطري"، والمستشرق الإيطالي "ميشال آماري"، في نهاية القرن التاسع عشر[161].

ولقد لعبت مدينة سبتة دوراً كبيراً في التجارة المتوسطية، واحتكرت نسبة كبيرة من التجارة البحرية المغربية طيلة العصر الوسيط. إذ كانت المدينة هي المنفذ الرئيسي على الواجهة البحرية المتوسطية للمغرب. وأصبح النشاط التجاري عماد المدينة الاقتصادي وشريانها الحياتي الحيوي، بل طبع هذا النشاط جميع مناحي الحياة الأخرى السياسية منها والاجتماعية والفكرية والدينية والمعمارية؛ حتى أصبح من المؤكد الآن أن تاريخ المدينة لن يُفهم دون أخذ العامل التجاري بعين الاعتبار.

1 - تقنيات التبادل التجاري

لعلّ أهم مؤشر على حيويّة المعاملات التجارية التي كانت تطبع الحياة الاقتصادية بسبتة باعتبارها سوقاً عالمية، هو تواجد معظم تقنيات التبادل

من بين المصطلحات البحرية والتجارية ذات الأصل العربي، نذكر مثلا في اللغة الفرنسية؛ Amiral, drogman, douane, divan, chèque, Bazar, Arsenal, Magasin, Jarre, Gabelle, Récif... . انظر كذلك، نجاة باشا، **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة**، تونس، 1976، ص 112 - 121.

161 - Mas-Latrie (L. De), *Traités de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-age*, Paris, 1866. Amari M., *Diplomi arabi del real archivio* fiorintino, Floranza, 1863.

التجاري المنتشرة في موانئ وحواضر البحر الأبيض المتوسط. فإذا كنا نعدم شهادات على استعمال السكوك والحوالات والسفاتج، فإن المصادر الفقهية تعج بالنوازل المتعلقة بالسلف، والصرف، والوكلاء، والعقود التجارية، والشركة، والقراض، والربح، والربا، والأسواق، والمديان، والسماسرة والدلالين، والجلاسين... إلخ. ومن الصعب التعرض لجميع هذه العناصر في هذه الدراسة. يكفي أن نقف عند بعض تقنيات التعامل في التجارة الخارجية، لمقارنتها بتلك الستعملة في الجمهوريات التجارية الإيطالية.

أ - القراض

إن تحريم القرآن الكريم للرّبا دفع ببعض التجار إلى استعمال طرق ملتوية، وحيل للقرض، للانفلات من ذلك التحريم. وهذا الأمر شجع على تكوين أنواع مختلفة من الشركات، وعلى رأسها القراض الذي كان وسيلة جيدة للاستفادة من فوائد السلف، دون الوقوع في الربا.

إن القِراض هو ممارسة قديمة، يقال إن الرسول (ص) زاوله، ويقترب من "الكومندا" *commanda* الأوربية في العصور الوسطى. يتعلق الأمر بعقد شركة من نوع "رأسمال - عمل"، حيث يقدم "الرأسمالي" قدراً من المال لشخص ثالث يستعمل جهده وعمله لتوظيفه في عملية تجارية في بلد آخر، على أساس اقتسام الأرباح، حسب نسبة محددة مسبقاً (في الغالب الأعم يستفيد صاحب رأس المال من ¾ الأرباح، والثاني من ¼ المتبقي).

أصبح القِراض بفضل مرونته الكبيرة، أداة جيدة بالنسبة للتجارة الخارجية، واستعمل على نطاق واسع في سبتة. ونتوفر على مثالين حيين زاولهما التجار السبتيون. المثال الأول يعود إلى النصف الأول من القرن

السادس الهجري/ 12 م، والثاني إلى بداية القرن الثامن الهجري/ 14 م، وهو ما يوحي باستمرارية هذه الممارسة بسبتة طيلة الفترة التي تهمنا.

فحسب إحدى النوازل، هناك "قوم بينهم اشتراك في سفينة"، أخذوا "ذهباً من الناس على وجه القراض"، اشتروا به قمحاً، وحققوا بعد بيعه ربحاً، فطالبهم أحد شركائهم الذي لم يعمل معهم بنصيبه في الأرباح، متذرعاً بأن "ذلك عرف في البلد". وقد أفتى القاضي عياض في هذه النازلة، مانعاً الغائب من أية استفادة من الأرباح المحققة، ولم يجز له سوى واجب "كراء حصته"[162]. المثال الثاني متعلق بمقترض سبتي سافر إلى ميورقة سنة 1300-1301 م، أو 1302 م(700-702 هـ)، وبحوزته أموال على وجه القراض من أهل مدينته[163].

على أن هناك حاجزاً لم تعرفه "الكومندا" الأوربية كان يحدّ نسبياً من استعمال القراض. إن المذهب المالكي لم يجز القراض عيْناً. فالذهب والفضة غير المسكوكيْن لم يكونا مباحيْن في القراض. ومع ذلك يظهر أن القراض العيني كان يمارس على نطاق واسع بسبتة، خصوصاً وأن الفقهاء المالكيين قد اضطروا لتليين ذلك التحريم. نجد هذا التليين عند ابن أبي زيد القيرواني عندما جعل العملية تحتوي شقين : يحصل المقرض المحتمل أولا على السلعة التي سيتولى بيعها بعيداً نظير أجر محدد، وبعد ذلك يجوز له التصرف في المال المحصل من بيع تلك السلعة كقراض[164]. فالعملية تقتضي أن يكون المقرض مجرد أجير حتى لحظة بيع

162 - **مذاهب الحكام**، 235.

163 - Dufourcq Ch. E., "Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe Chrétienne et marine musulmane: données connues et problèmes en suspens", *Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb*, Tunis, 1979, t 1, p. 178.

164 - ابن أبي زيد القيرواني، **الرسالة**، نشر وترجمة فرنسية بقلم L. Bercher، الجزائر، 1968، ص 216 - 217.

السلعة، بعد ذلك يصبح مقرضاً حسب المعايير المتفق عليها. ونجد هذه الحيل في ممارسات كبار التجار السبتيين. فإحدى النوازل تشير إلى أن "رجلاً اشترى لنفسه ربع مائة صوف [...] ثم إن رجلاً اشترى منه نصف الصوف المذكور، وشاركه فيه، ثم قال المشتري للنصف : أنا شريك معه في ذلك، فسافر بجميعه، وبعه واشتر بالثمن قمحاً، ويكون بيني وبينك"[165].

والواقع أن المقترض لم يكن يسافر بشحنة سلعية واحدة، وإنما كان يستقرض من عدة تجار لزيادة فرص الربح دون مخاطر السفر، بما أن الأمر يتعلق بسفر واحد. فالنوازل تشير إلى "رجل معروف بتبضيع التجار له"[166]. في بعض الأحيان، نجد أن التاجر المقرض المسافر يساهم بنفسه في رأس المال، ويصبح شريكاً فعلياً وليس مجرد أجير لتاجر كبير، وهو الأمر الذي يزيد في فرص أرباحه[167]. ومن الجلي أن هذه الحالة تتشابه إلى حد كبير مع مفهوم "الشركة البحرية" التي انتشرت بالجمهوريات الإيطالية، وكانت تسمى بجنوة *Societas maris*، وبالبندقية بـ *Collengenza*. ثم إن المقرضين لم يكونوا يتعاقدون مع شخص واحد، بل يوزعون أموالهم على مشاريع تجارية مختلفة.

ب - الشركة

إلى جانب القراض الذي لم يكن ينسج سوى علاقات مؤقتة، نجد شركات التجارة، أي "تجمع رؤوس أموال أكثر استقراراً ولمدة أطول". وسوف لن نستغرب إذا وجدنا الشركة التجارية تزدهر في سبتة، المدينة البحرية والتجارية بامتياز. فقد وجد صنفان من الشركات بسبتة ابتداء من القرن

---

165 - **مذاهب الحكام**، 240 - 242.
166 - **مسائل أبي الوليد بن رشد**، 1300؛ **مذاهب الحكام**، 153.
167 - **مذاهب الحكام**، 153.

السادس/ 12 م على الأقل : شركات حيث يسافر الشريك بجزء من المال، ويبقى الآخر في المدينة لمباشرة إدارة شؤون الشركة، ويعد كل شريك موكلاً عن الآخر. ويشبه هذا الشكل "الشركات البحرية" في إيطاليا[168]. أما النوع الثاني فيشبه ما يسمى "شركة في كل شيء"، حيث الشركاء هم أصحاب السفينة، ويسافرون معاً مستثمرين رأس مالهم الثابت والمتحول[169]. ويظهر أنه لم يكن هناك ما يمنع من تكوين شركات أعضاؤها ينتمون لمختلف الأوساط والمعتقدات الدينية. فهناك دلائل تؤكد وجود شركات تجارية يساهم فيها مسلمون ويهود ومسيحيون. كما أن هناك اشتراكاً في ملكية السفن بين كبار تجار سبتة والتجار النصارى[170]. فالعامل الديني كان يغيب أمام الحضور القوي لعنصر الربح المادي.

بعض "التجار الكبار"، ومن بينهم بعض الشخصيات العلمية والإدارية التي لم يكن بمقدورها التنقل باستمرار بسبب مهامها، كانت تجعل لها وكيلاً أو أكثر. وميدان نشاط هؤلاء لم ينحصر في مدينة سبتة. ففي بعض الأحيان، كانوا يقومون بدور التاجر الوكيل في البلدان النائية. ولم يشمل العمليات الصغيرة وحدها، كما يلاحظ من خلال فتاوى متعددة بـ"مذاهب الحكام". نعرف مثلاً أن أبا الحسن الشاري (ت. 650 هـ/ 1252 م) الذي كان على درجة كبيرة من الغنى، "لم يباشر قط ديناراً ولا درهماً، إنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه

---

168 - Y. Renouard, *Les hommes d'affaires italiens au Moyen- Age*, Paris, 1949, 44.
Id, *Les villes d'Italie de la fin du XIe siècle au début du XIVe siècle*, Paris, 1969, II, 462.

169 - **مذاهب الحكام**، 235 «قوم بينهم اشتراك في سفينة فسافر أحدهم وترك السفينة بين أصحابه... وسافروا فأفاء الله عليهم بالسلامة والربح».

170 - Ch. E. Dufourcq, "Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du Moyen-Age", *Anuario de Estudios Medievales* (Barcelona), X, 1980, p. 222.

واللائذون بجنابه"[171]. ومنهم من جعل أبناءه وكلاء عنه، كأبي عبد الله بن جوبر، الذي "كان من ذوي اليسار والجدة، متحرفاً بتجارة يديرها بقيسارية سبتة [...] أبضع مع ابنه مالاً جسيماً، فغرق معه"[172]. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الوكلاء لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية بسبتة. فبعضهم كان في خدمة تاجر واحد، ومنهم من كان يقترح خدماته على الجميع. وقد كان المشهور في سبتة حسب محمد بن القاضي عياض "في السماسرة والمأمورين والوكلاء أن لا ضمان عليهم، لأنهم أمناء وليسوا بصناع، كانوا بحوانيت أم لا". وكان القاضي عياض يقضي تبعاً للمذهب المالكي بعدم تضمين الوكلاء لما يأخذون من سلع للبيع في حالة التلف، لكن تشعب نشاطاتهم في المدينة دفع به إلى القيام بتضمين السماسرة، مخالفاً عموم الفقهاء، بذريعة أنهم "كثروا وقلّ المؤتمن فيهم"[173].

ج - كراء السفن

من الواضح أن قسماً كبيراً من التجارة السبتية كان بحرياً، يتم بواسطة السفن. وكان كراء السفن من الممارسات المعتادة في أوساط التجار السبتيين[174]. وكان أصحاب المراكب الذين يريدون تحقيق أقصى ربح ممكن، عن طريق وسق أكبر قدر ممكن من السلع، لا يعبأون بمشكلة قدرة حمولة السفن، لأنهم كانوا يستفيدون من إمكانية إلقاء السلع في البحر، للتخفيف من حمولة المركب، وإنقاذه في حالة هيجان البحر، وهو ما كان يثير احتجاج التجار. وتعكس هذا الأمر مجموعة من الشواهد التاريخية والمجادلات الفقهية

171 - **الذيل والتكملة**، ج 201/8.
172 - نفسه، 340/6.
173 - **مذاهب الحكام**، 162 - 163.
174 - نفسه، 235.

النظريـة المتعلقـة بمسؤولية أصـحاب المراكـب، والقسط الـذي يجـب أن يـؤدوه لتعويض السلع الملقاة في البحر. وقد كـان القاضـي عيـاض "يـذهب مـدة قضـائه على ما عليه الجمهور من أن المركب لا يدخل في المحاصـاة"، ولـو ثبـت علـى "رب المركب أنه يقتحم هول [...] البحر، ويتجاسر عليه عند عصفه"[175]. لكن القاضي عياض رجع عن رأيـه، "وذهـب إلـى إدخالـه فـي المحاصـاة". وأخيرا سيرجع إلى "مذهبه الأول". إن هذه التذبذبات في موقف قاضـي المدينـة تعكس أنـه إلـى حـدود القـرن الـسادس/ 12 م علـى الأقـل، كـان أربـاب المراكـب هـم المتحكمون في التجار على البحر. ويبدو أن التجار كانوا مـضطرين لإشراكهم في تجارتهم لتفادي مخاطر اقتحام هول البحر بحمولة تفوق قدرة المركـب. إنـه التطور الذي عرفته المدن الإيطالية البحرية نفسها في هذه الفترة[176].

خلاصــة القـول، إن التقنيـات التجاريـة المـستعملة مـن طـرف الـسبتيين ووسطهم البحـري تـذكر بأوسـاط رجـال الأعمـال بمـوانئ إيطاليـا فـي كثيـر مـن مظاهرها التجارية والبحرية.

2 - التجار السبتيون في العالم

بفضل وثائق الأرشيفات الأوروبية أصبحنا نعرف كثافة النشاط التجـاري لسفن الغـرب المـسيحي فـي الـسواحل المغاربيـة فـي العـصر الوسـيط. فقد كانـت التجارة البحرية المغاربيـة فـي أساسـها مبـادرات مـسيحية. إن ابـن خلـدون الـذي تطـرق فـي أحـد فـصول مقدمتـه[177] إلـى أربـاح التجـارة البعيـدة المـدى وغنـى المشتغلين بها، يشير إلـى "التجـار الـذين يولعـون بالـدخول إلـى **بـلاد الـسودان**"،

175 - نفسه.

176 - Hoover C. B., "The Sea Loan in Genoa in the twelfth Century", *The quaterly Journal of Economic* XI, 1926, pp. 495-529.

177 - **المقدمة**، 322 - 323.

وإلى المسافرين "من بلادنا إلى **المشرق**"؛ لكنه لا يشير بتاتاً إلى أولئك الذين كانوا يقصدون البلدان الأوربية. فهل يعني ذلك أن التجار المغاربة لم يكونوا يترددون على الديار المسيحية للتجارة؟ وأن السفن المغربية لم تكن تصل إلى الموانئ الإيطالية والقطلانية وغيرها؟ إنه السؤال/ الإشكالية الذي طرحه "شارل إيمانويل دوفورك"[178]، أحد أكبر المتخصصين في تاريخ العلاقات القطلانية- المغاربية في العصر الوسيط، وما يزال مطروحاً. إن غياب الوثائق المغربية يعتبر خسارة جسيمة. فالمصادر المعتمدَة في كتابة التاريخ المغربي، على الرغم من تعدد أشكالها وأصنافها، لا يمكن أن تعوض الأرشيفات الضائعة في ما يخص البحث في التاريخ الاقتصادي بصفة عامة، والتاريخ التجاري بصفة خاصة.

من جهة أخرى نعلم أنه لم يكن يوجد أي أثر لمؤسسات مغربية بالموانئ المسيحية، كما كان الشأن بالنسبة للتجار المسيحيين الذين كانوا يتوفرون على مؤسسات ترعى مصالحهم ببلاد المغرب، وعلى رأسها الفندق والقنصلية، الشهيرين في التاريخ التجاري المغاربي- الأوربي خلال العصر الوسيط. فقد كانت السفريات التجارية المغربية لبلاد النصارى عبارة عن مبادرات شخصية. ولئن كانت كل الاتفاقيات المغربية- الأوربية تنص على "المعاملة بالمثل فيما يخص الحماية والمعاملة الواجبة تجاه الرعايا التجار"[179]، فإن السلطات المغربية لم تتدخل إلا نادراً بطريقة ملموسة لتسهيل هذه المبادرات أو لترسيمها.

---

178 - Dufourcq, "Commerce du Maghreb" op. cit., 178.

179 - Mas-Latrie, *Relations*, 114.

ومن الخطأ أن ننفي عن السلطات المغربية كلّ دور في هذا الميدان، كما يفعل "دوفورك". فنحن نعلم مثلاً أن بعض الاتفاقيات المغربية الأوربية طرحت مشكلة تنقل المغاربة في البلدان المسيحية. فاتفاقية الصلح المبرمة سنة 684 هـ/1285 م بين قشتالة والمرينيين كان من بين شروطها التزام القشتاليين بضمان حرية تنقل المغاربة، وإعفائهم من ضرائب التجارة[180]. وتشير الوثائق الإيطالية إلى سفارة مغربية كانت بميورقة سنة 1346 م، وقدمت من جنوة، برئاسة محمد الحزيري، يصحبه مترجم اسمه العباس، وأربعة أشخاص آخرين هم : علي (أو العلج) اسماي، ومرزوق بن عمر، عبد الله بن سالم، ومحمد بن عامر[181]. ومن المؤكد أن سفارات مغربية أخرى قد أرسلت إلى الجمهوريات الإيطالية خلال القرن السابع والثامن / 13 و14 م.

ومع ذلك يجب الإشارة إلى الحَرَج الذي كانت تسببه المعاملة التجارية مع النصارى. فبعض الفقهاء أفتوا بعدم جواز المُتاجرة معهم، لأن ذلك سيساعدهم على تقوية قدراتهم، ومحاربة المسلمين[182]. هذه الممنوعات قد أعاقت التجارة السبتية، وإن كان يتمّ تخطّيها والتحايل حولها بفضل مرونة التجار، وقدرتهم على ليّ الحظر الديني المفروض على ممارسة التجارة مع الكفار. مثلاً عن طريق شراء حصص في السفن المسيحية، أو الاشتراك في

---

180 - **روض القرطاس**، 359.

181 - Jehel G.,*Les Génois en Méditerranée*..214. Dufourcq, "Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle", *Economies et Sociétés au Moyen-Age, Mélanges Edouard Perroy,* Paris, 1973, pp. 729-730. وهناك من الباحثين من "يرجح" تارة أن تكون السفارة زيانية (انظر قراءة ذ. مصطفى نشاط لكتاب **سبتة الإسلامية**، مجلة تاريخ المغرب، العدد 9، 1999، ص 43) وتارة أخرى أن تكون سفارة مرينية (**نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية**، م. س.، ص 132-133). ومهما كانت هوية السفارة، فإنها تؤشر على وجود مبادرات للسلطات "المركزية" المغاربية لحفظ مصالح رعاياها المتعاملين تجاريا مع الشمالية للبحر المتوسط.

182 - H. R. Idris," Commerce maritime",... , op. cit.229.

التجارة مع المسيحيين. فقد كان ابن خلاص، حاكم سبتة، شريكاً لتجار مدينة مرسيليا[183]. في سنة702هـ/ 1302 م كان أبو طالب العزفي، أمير سبتة، يملك ربع سفينة قطلانية[184]. كما أن السلاطين المغاربة أنفسهم استثمروا في التجارة المسيحية، كما هو الشأن بالنسبة لأبي عنان المريني، الذي كان شريكاً لأحد التجر الميورقيين[185]. أما السفن التي كانت في ملكية التجار السبتيين، فقد كانت قادرة على التعاطي بنفسها للتجارة البعيدة. وتقنيات التجارة البحرية كانت متشابهة على العموم في العالمين المسيحي والإسلامي. وكمثيلتها من السفن المسيحية، كان للسفن السبتية شركاء، أنشطتهم متعددة، ولا تتوقف. ولم يقتصر إبحارهم بين سبتة والأندلس وعلى الساحل الأطلسي فحسب، وإنما على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط، بين سبتة والإسكندرية[186]. ونعرف النشاط الذي كان يتمتع به الأسطول الحربي السبتي[187]. ولا داعي للتذكير أنه **لم يكن يوجد في هذه الفترة فرق بين الأسطول الحربي والأسطول التجاري.**

نعتقد أنه لا يجب مسايرة "برونشفيك" عندما يرد أسباب ضعف ارتياد السفن المغاربية للبلدان الأوربية، خلال العصر الوسيط إلى نقص في المقدرة البحرية الإسلامية، الراجع إلى "عامل الركود الاقتصادي، مضافاً إلى تقنية

---

183 - Cherif. M., *Ceuta,* op. cit..

184 - Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 168, 357 ;Dufourcq, "*Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du Moyen-Age*", op. cit., 223.

185 - نفسه، 223

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 57 et note 8. 171,357. Dufourcq, "Commerce du Maghreb", op. cit.168.

186 - الأزموري، **بهجة الناظرين**، م. س.، ورقة 97 (وسق مركب كبير بسبتة العزفية مدة أيام- نحو الشهر- للإبحار نحو الإسكندرية)

Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 57 et note 8. 171,357. Dufourcq, "Commerce du Maghreb", op. cit.168.

187 - انظر : محمد الشريف، "الأسطول السبتي ودوره في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط"، ضمن كتاب : الغرب الإسلامي : **نصوص دفينة ودراسات**، م. س. ص 145- 161

متخلفة"[188]. إن هذا الحكم لا يمكن أن يكون مطلقاً. فأسطول سبتة لم تكن تنقصه لا الحيوية ولا الوسائل التقنية، على الأقل بين القرن السادس والثامن الهجري/ 12- 14 م. وتقنياته لم تكن متخلفة بالنسبة للسفن المسيحية، كما يدل على ذلك نشاط عمليات القرصنة المتبادلة بين ضفتي حوض البحر المتوسط. وإن كان هناك ركود تقني، فإنه يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ 14 م. من جهة أخرى من المفروض أن السبتيين الذين كانوا دائماً على اتصال تجاري وثيق مع مجموع عالم حوض المتوسط، لا يمكن إلا أن يكونوا تجاراً دوليين. ففي الصين التقى ابن بطوطة بتاجر سبتي (هو قوام الدين السبتي)[189] قادم من دلهي صحبة خاله. وسيلتقي أيضاً بأخ لنفس التاجر في سجلماسة[190]. هؤلاء التجار لم يحدْ من نشاطهم أي "ركود اقتصادي"، أو إهمال محتمل لأسطولهم التجاري. كما لا يمكننا مُجاراة "دوفورك" وغيره ممن يفسرون ذلك بوجود "كابح روحي" *Frein spirituel* تعكسه بعض الكتب الفقهية، وعلى رأسها كتب النوازل، حيث نجد فتاوى لبعض الفقهاء تحرم التعامل التجاري مع دار الكفر. فقد رأينا كيف تفنن كبار التجار السبتيين في الالتفاف ببراعة حول المحظورات الدينية.

ومع ذلك فقسم كبير من التجارة السبتية كان يتمّ بمبادرة التجار المسيحيين. والتجارة الخارجية التي كان يقوم بها السبتيون تبقى مجهولة لدينا في كليتها، ولا نستطيع أن نقدم سوى أمثلة محدودة، مستمدة من وثائق الأرشيفات الأوربية عن الأنشطة التجارية السبتية في بلاد النصارى. ففي سنة618 هـ/ 1222 م سافر التاجر السبتي محمد بن المعلم إلى مدينة جنوة على

---

188 - Brunschvig R., *La Berbérie*, II, 97.

189 - يقول عنه ابن بطوطة أنه "عظم شأنه، واكتسب الأموال الطائلة" (**رحلة ابن بطوطة**، 637)

190 - **رحلة ابن بطوطة**، 637، 673.

ظهر سفينة جنوية، حاملاً معه عدة سلع من بينها : 105 قنطاراً من النحاس، وسبعة قناطر من القزدير، وستة قناطر من السكر...[191]. وفي سنة 1300 م-1301 م أو 1302 م(700-702 هـ) نجد تاجراً سبتياً آخر يتجه إلى ميورقة على ظهر سفينة ميورقية، وبحوزته سلع مهمة، كلفه ببيعها سكان مدينته[192]، كما أن طبيعة الأشياء التي تم جردها في عقد مؤرخ بسنة 1271م(669هـ) بعد وفاة أحد المغاربة بجنوة يدعى عزيز(Acigio)، والتي كان من بينها كثير من السلع، والأدوات النحاسية، وميزانين، واثني عشر وزناً من الحديد، توحي أنه كان من التجار، ويتملك حانوتاً بجنوة. وفي نفس السنة (1302 م) نجد السلطات السبتية تحجز تاجراً ميورقياً كرد فعل على حجز تاجر سبتي بميورقة.

والواقع أن تواجد التجار السبتيين في الموانئ المسيحية كان من دون شك أكثر كثافة مما توحي به الوثائق المتوفرة حالياً. إن حقيقة التواجد المغاربي في الموانئ المسيحية الذي ارتبط بالأنشطة التجارية وأهميته، سيتقوى إذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية التي أولتها الجمهوريات الإيطالية للغة العربية، الضرورية في تعاملها التجاري مع بلدان المغرب. فقد وردت الإشارة إلى أستاذ للغة العربية *magister de lettris saracenis* مرتبط بالجمهورية الجنوية

---

191 - Dufourcq," Commerce du Maghreb",op. cit., 177.
Idem, "Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle", *Mélanges E. Perroy*, Papis, 1973, pp. 729-733.

192 - نفسه. Idem, "Commerce du Maghreb", 178, Dufourcq, *L'Espagne catalane*, 357.
Dufourcq, "Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen-Age", *Nayurqa*, IX, 1949, p. 36.

سنة665 هـ/ 1267 م، كما أن هناك أدلة على حضور موظفين مغاربة بجنوة، يزاولون مهمة الترجمة[193].

3 - سبتة والتجارة مع العالم الخارجي

لعل إحدى مميزات الفترة الموحدية التي طبعت بعمق اقتصاد المغرب تكمن في استقرار التجار المسيحيين في بعض نقط الساحل الإفريقي، حيث أنشئوا مراكز ثابتة لهم. ومنذ منتصف القرن السادس/ 12 م، أصبحت مدينة سبتة إحدى المحطات الرئيسية الأكثر ارتياداً من طرف الأوربيين، خاصة الإيطاليين منهم.

أ- مع المدن الإيطالية : جمهورية جنوة[194]

لقد كانت بيزة *Pise* أول المدن الإيطالية التي عقدت معاهدة تجارية مع المرابطين (ابتداء من 1133 م[195])، وأصبح تجارها يترددون بانتظام على سبتة، رغم الصعوبات التي كانت لهم مع الخليفة الموحدي، عبد المؤمن بن علي. كما أن المعاهدة التجارية التي عقدتها جمهورية بيزة مع المنصور الموحدي سنة581 هـ/ 1186 م، لمدة عشرين سنة، تنص على أن الميناء المغربي الوحيد المفتوح في وجه تجار بيزة هو ميناء سبتة بالذات. ولا نعرف إن كانت الاتفاقيات اللاحقة، وخاصة اتفاقية سنة608 هـ/ 1211 م، قد غيّرت من شروط معاهدة 1186 م. لكن من المؤكد أن دور تجارة بيزة في سبتة،

---

193 - Jehel G., "Gênes et le Maghreb au Moyen-age", *Studi Maghrebini*, (Napoli), vol. XXII, 1990, p. 84.
وقد نقلنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية، وأصدرناها بمجلة كلية الاداب بتطوان (العدد 8، 1997، ص 97-126) تحت عنوان : "**جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط**"

194 - انظر : Cherif M., "Notes sur les activités commerciales de Gênes à Ceuta aux XIIe et XIIe siècles", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VI, 1993, pp. 33-34

195 - Mas-Latrie, *Introduction*... op. cit., 36.

وغيرها من مناطق المغرب الكبير، قد عرفت فتوراً، ليس فقط بسبب المنافسة الجنوية والقطلانية، وإنما بسبب ضعف الجمهورية البيزية في القرن السابع/ 13 م، وخاصة بعد هزيمتها في معركة "مِلورْيا"، سنة 682 هـ/ 1284[196].

ومع ذلك، يظهر أن العلاقات التجارية مع بيزة لم تتوقف كلياً. فمعاهدة السلم لسنة 759 هـ/ 1358 بين المغرب المريني وجمهورية بيزة[197] كانت لها بالتأكيد نتائج مشجعة للتجارة بين المدينتين، وعلى الأقل بواسطة مدينة فلورنسة.

كما أن مدينة سفونة *Savone* كانت تربطها علاقات تجارية منتظمة مع سبتة، وخاصة في الثلث الأول من القرن السابع/ 13 م، كما تظهر ذلك بوضوح الوثائق العدلية للمدينة الإيطالية. ولكن هذه التجارة اضمحلت بعد ذلك بصفة شبه كلية لفائدة مدينة جنوة *Gênes* التي ستلعب دور الوسيط في التجارة مع المغرب[198]. أما تجار صقلية فإنهم ترددوا بدورهم على ميناء سبتة. ولا نتوفر على معلومات دقيقة عن نشاطهم بالمدينة حتى القرن السابع/ 13.

أما بخصوص جمهورية البندقية، فمن المعلوم أنها قد طمحت دائما إلى مزاحمة منافستها جنوة بكل الفضاءات التجارية المتوسطية، بما في ذلك سبتة. وبهذا الصدد يرى باحث مختص أن "الحوليات البندقية *Annali Veneziani* ودراسة شوب *Schaube* والقانون البحري لكمونة البندقية تؤكد أهمية الحضور التجاري للبنادقة بكل بلاد المغرب من طرابلس إلى سبتة، خلال القرنين 13 و 14م . فقد شكلت سبتة آنذاك آخر نقطة وصلت إليها كثير من الرحلات

196 - Renouard Y., *Les villes d'Italie,* op. cit., pp. 222-223.

197 - Mars-Latrie, *Traités...* op. cit., 66-69.

198 - Bautier. R. M., "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philologique et historique*, 1953-1954, pp. 408-410.

التجارية للبندقية ببلاد المغرب"، ويشير إلى وجود "وثيقة محفوظة بأرشيف البندقية تتحدث عن محاولة قام بها البنادقة لانتزاع معاهدة سلم وتجارة من أبي عنان، كما تتحدث عن رغبة البنادقة في الحصول على نفس الامتيازات التي كانت للبيزيين والجنويين والقطلانيين بالمغرب المريني"، ليخلص إلى أن "هذه القرائن تدل على أن بلاد المغرب - بما فيها سبتة باعتبارها ميناء هاما- لم تكن لتنفلت من اهتمامات البنادقة الذين ظلوا دائما يراقبون عن قرب أنشطة منافسيهم، وخاصة الجنويين في القرنين 13 و14م".[199] وكما هو واضح، يتعلق الأمر بـ"رغبات" و"محاولات" للجمهورية البندقية، لا ندري إن كانت قد تحققت على أرض الواقع التجاري، فالوثائق ذات الارتباط المباشر بالتجارة، وبالعمليات التجارية (عقود الموثقين البنادقة الخاصة بعمليات الشراء، وبكراء سفن، وبالسلفات، وبالقراض...إلخ)، لا تشير إلى نشاط هام للبندقية في هذا الجزء من المغرب. فالجمهورية كانت- على ما يبدو- أكثر اهتمام بالتجارة مع المشرق، بحكم موقعها على البحر الأدرياتيكي، وبفضل مستعمراتها المتعددة على الواجهة الشرقية للبحر المتوسط، بينما كانت إفريقية هي التي تجلب اهتمام البندقية، الأمر الذي ترسخ بصفة جلية في القرن التاسع/ 15 م، عندما أنشأت الجمهورية الإيطالية " قافلة البربر" رسميا[200].

كانت لجمهورية جنوة الأسبقية منذ بداية حياتها التجارية على البندقية فيما يخص التجارة مع السواحل المغاربية، ليس فقط بفضل موقعها الجغرافي القريب من إفريقيا، وإنما كذلك لأن جزيرة كورسيكا وسردينيا كانتا بمثابة

199- انظر عرض مصطفى نشاط حول كتاب "**سبتة الإسلامية : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**" (الطبعة الأولى)، منشور في مجلة تاريخ المغرب، العدد 9، 1999، ص 40- 41

200 - Doumerc B., "La crise structurelle de la marine vénitienne au XVe siècle. Le problème du retard des *mude*", *Annales ESC* .3, Mai-juin, 1985, pp. 605-623.

محطات ومخازن بالنسبة لتجارتها[201]. وإذا كان البيزيون هم الإيطاليون الأوائل الذين عقدوا المعاهدات التجارية مع المغاربة، فإنه من المؤكد أن الجنويين قد حصلوا، في نفس الفترة تقريباً، على امتيازات ومراكز تجارية في بلاد المغرب، حتى أنه في أواخر القرن السادس/ 12 م أصبح الجنويون سادة التجارة مع سبتة بدون منازع. ولقد **كانت الاهتمامات التجارية الجنوية تغلب على طموحاتهم السياسية ببلاد المغرب، عكس الأرغونيين أو القشتاليين الذين ربطوا العلاقات التجارية بالعمل العسكري في أغلب الأحيان.**

ففي النصف الأول من القرن السادس/ 12 م، عقدت جمهورية جنوة معاهدة سلام مع المرابطين[202]. إلا أن علاقتهم التجارية مع المغرب عرفت ازدهاراً كبيراً مع الموحدين، وذلك على حساب منافسيهم البيزيين. فابتداء من 547-548 هـ/ 1153 م أو 1154 م، ستعقد جمهورية جنوة معاهدة مع الخليفة عبد المؤمن الموحدي. وفي سنة555هـ/ 1161 م أبرم سفيرها Otto Bono de Alberici معاهدة تجارية مع نفس الخليفة الموحدي لمدة 15 سنة، وبعد ذلك أتي وفد جنوي لسبتة سنة 564 هـ/ 1169 م، وسنة565 هـ/ 1270 م على التوالي لتأكيد الاتفاقيات المبرمة سابقاً بين المغرب والجمهورية الجنوية، وخاصة اتفاقية555هـ/ 1161 م. وتم تجديد الاتفاقية بدون شك سنة571هـ/ 1176 م، لمدة 15 سنة أخرى مع الخليفة يعقوب المنصور، عقب زيارة سفيرين من جمهورية جنوة للمغرب سنة586هـ/ 1191 م، وهما Wiliam Zibinus و Obertus de Nigro.

201 - Mascarello, A, "Quelques aspects des activités italiennes dans le Maghreb médiéval", *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb*, Alger, V, 1968, p. 66. Posac Mon C., "Relaciones entre Genova y Ceuta durante el siglo XII", *Tetuan*. VI. 1958, pp. 163-164.

202 - Cherif M., "Notes sur les activités..." op. cit. 34.

بفضل هذه الاتفاقيات أعطيت الضمانات لتجار جنوة للقدوم والاتجار على الأرض المغربية وفي البحر. ولتشجيعهم أكثر، تم تخفيض حقوق الديوانة بالنسبة لهم من 10% إلى 8% فقط بجميع موانئ المغرب، باستثناء ميناء مدينة بجاية.

وبفضل هذه الاتفاقيات والامتيازات الممنوحة لتجار جنوة، سرعان ما عرفت التجارة الجنوية توسعاً كبيراً في مجمل المغرب، وبصفة خاصة بسبتة. فنحن نتوفر على مجموعة من الوثائق الأصلية ذات الصلة بالعلاقات التجارية لجنوة مع المغرب الكبير. ولقد درس هذه الوثائق الباحث الأمريكي Krueger ، واستخلص محتوياتها، وأعطانا أرقاما متعلقة بكثافة العمليات التجارية بالنسبة للسنوات المحصورة بين1155 و1200 م[203]. من جانبنا سننطلق من هذه الأرقام، ولكن عبر تأويلها وتقديمها بطريقة مختلفة.

فسجل المُوَثِّق الإيطالي "جيوفاني سَكْريبا"، المصدر الوحيد بالنسبة لسنوات115-1164 م، لا يتضمن أي عقد تجاري مع أي ميناء غرب بجاية. ومن سنة559 إلى563هـ/1155-1159، كانت العقود التجارية محصورة في بجاية وتونس وطرابلس، وبأرقام تجارية ضعيفة.

1159-1155	بجاية	تونس	طرابلس
	563 ليرة	240 ليرة	72 ليرة

لنذكر أنه خلال هذه السنوات كانت الحروب المرابطية الموحدية قائمة داخل بلاد المغرب، ومصير سبتة ما يزال يتأرجح بين الدولتين المتحاربتين؛ الأمر الذي

203 - Krueger H. C., "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century", *Speculum,* VIII, 1933, pp. 377-395.
وانظر كذلك :
Krueger H. C., "The Wares of Echange in the Genoese African Trafic of the Twelfth Century", *Speculum*, VII, 1932, pp. 57-71.

كان يحدّ من إمكانية التجارة في هذه المنطقة. أما الفترة الخماسية التي عرفت توطيد السلطة الموحدية، فإنها تميزت ببروز مدينتيْ سبتة وسلا، وتحقيقهما لأرقام هامة في المعاملات التجارية، بينما نلاحظ انتعاشاً موازياً لموانئ إفريقية.

	سبتة	بجاية	سلا	تونس	قابس	طرابلس
1164-1166م	1683 ليرة	1166 ليرة	390 ليرة	353 ليرة	88 ليرة	70 ليرة

لقد وردت سلا في خمسة عقود تجارية. العقد الأول في سنة557 هـ/ 1162 م، وهو راجع بالضبط إلى السفير "أوطبونو"، الذي كان قد وقع سنة قبل ذلك معاهدة سلم وتجارة باسم الجمهورية الجنوية. أما العقود الأربعة الأخرى فتعود لسنة 558هـ/ 1163 م، السنة التي أرسلت فيها جنوة سفيرها Guglielmo Cibo إلى سبتة. ولكن يجب أن نتحفظ من إقرار بعض الباحثين الذين فسروا هذه الأهمية لمدينة سلا بكونها كانت "محطة مختارة عن قصد من طرف الجنويين، بهدف البحث عن الطريق المؤدية إلى ذهب النيجر"[204]. إن ازدهار سلا يمكن ربطه كذلك بالأهمية التي أصبحت تكتسيها الواجهة الأطلسية المغربية في هذه الفترة، ودور المنفذ الرئيسي للسهول الأطلسية التي أصبحت تلعبه تلك المدينة. بعد سنة558هـ/ 1163 م، تختفي سلا من العقود التجارية الجنوية، وتتركز التجارة أساساً بسبتة.

	سبتة	بجاية	تونس	تلمسان
1183-1179	3250 ليرة	513 ليرة	33 ليرة	33 ليرة

204 - Bautier., "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philosophique et historique*, 1953-54, p.40.

خلال هذه السنوات، وإلى سنة596هـ/ 1200 م، لم يضعف تيار المبادلات مع المغرب. بل يُلاحظ تفوق سبتة الكبير على بجاية وتونس، على الرغم من موقعهما الجغرافي القريب من جنوة، وعلاقتهما التجارية التقليدية معها. إن أهمية بجاية بالمقارنة مع سبتة كانت تتراوح - حسب السنوات - بين نصف وسدس نشاط سبتة. ولا شيء يدل على أهمية التجارة الجنوية بالمدينة من كون الرحالة ابن جبير قد سافر سنة578هـ/ 1183 م حاجاً على ظهر سفينة جنوية من ميناء سبتة.

	1188-1184	**1193-1189**
سبتة	368 ليرة	7293 ليرة
بجاية	824 ليرة	3735 ليرة
تونس	805 ليرة	1901 ليرة
وهران	5 ليرات	1098 ليرة

1194 -1198 م	**1200 م**
سبتة 2908 ليرة	سبتة 1703 ليرة
بجاية 432 ليرة	بجاية 645 ليرة
وهران 98 ليرة	تونس 20 ليرة
تونس 46 ليرة	

هذه الأرقام توضح أن سبتة كانت متفوقة في عملياتها التجارية على تونس وبجاية، المدينتان اللتان ارتبطتا بعلاقات تجارية تقليدية مع الإيطاليين، على الرغم من بعدها الجغرافي. فبين1179 -1200 م(574-596هـ)، استثمرت جنوة بمدينة سبتة 18472 ليرة، أي أكثر من نصف مجموع

استثماراتها في جميع موانئ شمال إفريقيا. إنها الفترة التي كتب فيها أحد الألمان المشاركين في الحملة الصليبية في صيف 1189 م(584هـ)، إن "سبتة أغنى مدن المغرب، والأكثر شهرة بفضل تجارتها مع جنوة وبيزة، ومع جميع التجار المسيحيين المتوافدين على إفريقيا".

ولكن من الصعب فهم هذا الدور الأساسي الذي لعبته سبتة في هذه الفترة. بالتأكيد إنه غير مرتبط بدخول الأسر الجنوية الكبرى في علاقات تجارية مع سبتة، واستثمارها لأموال ضخمة بها، كما يذهب الباحث "كرووغير". ولم تكن سبتة كذلك "بوابة الذهب"، كما يؤكد البعض[205]، لأن موقعها يوجد على هامش هذا الطريق، واجتياز سلسلة جبال الريف من طرف القوافل يبقى افتراضياً. وإذا كانت دار الضرب بسبتة قد اشتهرت بسكها للعملة الذهبية الجيدة، فإن النصوص التي تشير إلى أهميتها قليلة جداً. لقد كانت سبتة من وجهة نظر اقتصادية، نقطة تمفصل الإمبراطورية الموحدية في فترة أوجها بين إسبانيا والمغرب، والمنفذ الرئيسي للمنتجات الداخلية للبلاد، وكانت كذلك تشكل نهاية خط ملاحي أساسي في التجارة المتوسطية[206].

بعد سنة596هـ/ 1200 م، لا نتوفر على إحصائيات "كرووغير" المبنية على مجموع الوثائق المتوفرة في وقته، وإنما نتوفر فقط على معطيات جزئية، تمتد على سبع سنوات (من 1200 م إلى 1226 م). وتمثل إفريقيا الشمالية ربع العقود التجارية (26%)، الأمر الذي يؤكد أن تجارة إفريقيا الشمالية بقيت أساسية بالنسبة لجمهورية جنوة. وإذا ما استثنينا عقدين بالنسبة لتونس، فإن باقي العقود كانت تهم مدينتين، هما : بجاية وسبتة. يتفوق الميناء الأول هذه

---

[205] - أحمد بوشرب، "**المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16**"، ضمن كتاب **في النهضة والتراكم**، الدار البيضاء، 1986، ص 196

Cherif M., "L'importance de Ceuta dans le réseau ...", op. cit., 91-92. - 206

المرة في ما يخص عدد العقود، وقيمتها (7000 ليرة، مقابل 4500). إنها الفترة التي كانت جمهورية جنوة تحاول خلالها الاحتفاظ بعلاقاتها المتميزة مع الموحدين. ففي سنة604هـ/ 1208 م، سترسل سفارة إلى المغرب لترجمة هذه الإرادة إلى واقع، وقد استقبل الخليفة الناصر الموحدي تلك السفارة. وفي سنة619هـ/ 1223م، أرسلت سفارة أخرى، لنفس الغرض[207].

وتفترض بعض الدراسات أن العلاقات الجنوية المغربية عرفت خفوقاً ملحوظاً بعد هزيمة العقاب، سنة609 هـ/ 1212 م، وأن جمهورية جنوة أصبحت تولي اهتمامها لشرق بلاد المغرب (بجاية وتونس)، على حساب غربه (سلا وسبتة). لكن يظهر من الأبحاث التي قام بها "بوتيي" و"دوفورك" بالنسبة للفترة الممتدة من 1210 إلى 1226 م(606-622هـ)، اعتمادا على وثائق الأرشيف الجنوي أن ميناء سبتة بقي يمثل أهم نقطة تجارية بالمغرب. واعتمدت المؤرخة الإيطالية باليطو Balletto على ذات الوثائق مدعمة إياها بعقود أخرى تعود للفترة ذاتها، وقامت بعملية إحصائية لمجموع رؤوس الأموال التي وظفها الجنويوين في التجارة مع بلدان المغرب في المتراوحة ما بين 1222 و 1226م، وخلصت إلى إلى أن ميناء سبتة كان يتفوق من بعيد على باقي الموانيء المغاربية، كما يتضح من الجدول التالي[208].

1222-1226 م	
سبتة	4864 ليرة جنوية
تونس	1223 ليرة و 8 فلس و6 دنانير
بجاية	779 ليرة و 16 فلسا

207 - Jehel, 37.

208 - مصطفى نشاط "الإيطاليبون بسبتة بعيد معركة العقاب"، ضمن كتابه : **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية** ... م. س. ص86

من المؤكد أنه حصل تراجع في تجارة جنوة بسبتة بعد 1226 م-1235 م(622-632هـ)، عقب اضمحلال الإمبراطورية الموحدية. غير أنه كان تراجعاً نسبياً، ولا شك. ونميل إلى الاعتقاد بأن مصير الإمبراطورية الموحدية لم يكن عائقاً بالنسبة لتجارة سبتة. فحتى سنة621هـ/ 1225 م، كانت هذه الأخيرة المدينة المغربية الأكثر ارتياداً من طرف السفن التجارية. بينما تفتت الإمبراطورية الموحدية كان قد بدأ قبل ذلك بكثير. كما أنه جنوة أرسلت سفارة إلى سبتة يوم 5 يونيو 1231 وعادت إلى جنوة في غشت من نفس السنة[209]. وفي سنة633هـ/ 1236 م، سترسل جنوة سفارة أخرى يرأسها Sorleone Pevere لسبتة. ومن المؤكد أن توطيد العلاقات التجارية بين البلدين كان من بين أهداف السفارتين. وفي سنة639هـ/ 1242 م، أي عقب الحرب البيزية - الجنوية، رست ثلاث قطع بحرية جنوية بأرنزو، قادمة من سبتة وبجاية. وفي 6 سبتمبر 1262 م(14 شوال 660هـ)، وصلت سفارة أخرى إلى مدينة الزقاق لتأكيد الروابط السابقة. بل إن الوثائق العدلية لما بعد سنة648هـ/ 1250 م، تسجل عدداً كبيراً من عقود التجارة التي تهم سبتة. ولو أن كثافة هذه العقود تبدو أضعف من كثافة عقود نهاية القرن السادس/ 12 م، إلا أن قيمتها كانت مرتفعة، مما يدل على أن تيارات التبادل التجاري بين المدينتين ظلت قوية. بل إن الاستثمارات الجنوية بسبتة ما بين سنة 1155 م وسنة 1290 م(508-689هـ)، كانت تمثل 37.5 % من عدد العمليات التجارية، و42.3 % من الرساميل المستثمرة بشمال إفريقية[210].

ويظهر أن انبعاث مملكة أرغون، وتوجهها نحو سبتة، سيكون له دور كبير وراء التقلص التدريجي اللاحق لتجارة جنوة بسبتة. فالمنافسة بين جنوة

---

209 - G. Jehel, "La mer dans les relations entre Gênes et le Maghreb au Moyen Age", in, *Mesogeios*, 7, (La Maghreb et la mer à travers l'histoire), 2000, p. 191

210 - Jehel, 71.

وقطلونيا حول هذا السوق المغربي قد ظهرت جلية سنة 631 هـ/ 1234 م، عقب هجوم يُعتقد أنه "قطلاني"[211] على المدينة المغربية. ويظهر أن حدة هذا الهجوم على مياه سبتة كان يستهدف السفن الجنوية، وتخويف تجارها. ومع ذلك فمن المؤكد أن تجار جنوة لم ينقطعوا عن سبتة، لأننا نتابع نشاطهم وفنادقهم وقنصليتهم وسفنهم في هذه المدينة سنة 639 هـ/ 1242 م، السنة التي كان فيها "براطو أوبيزيو" قنصلا. وكذلك خلال سنوات 1245-1246، 1248، 1250 م (642-643، 646، 647 هـ)... إلخ. وإذا كان الجرد الذي قام به "لوبيز" لجميع العقود التجارية التي أبرمت في مارس 1233 م (جمادى الأولى 630 هـ) أمام موثقي جنوة لا يظهر سوى إشارة لتسديد دين تم "قرب سبتة"، فإن الأنشطة التجارية الجنوية ما لبثت أن استعادت حيويتها في صيف نفس السنة، والسنوات الموالية. ولا شيء يعكس لنا أحسن أهمية تجارة جنوة بالمدينة من كون الجمهورية الجنوية قد نظمت سنة 1267 م (665 هـ) قناصلها وراء البحار في قنصليتين عامتين : إحداهما في صور، وتشرف على قنصليات سوريا ومصر، والأخرى لم يكن مقرها سوى مدينة سبتة، وتشرف على قنصليات المغرب الكبير والأندلس[212].

وتميزت نهاية القرن السابع/ 13 م وبداية القرن الثامن/ 14 م بتراجع التجارة الجنوية عن أسواق المغرب الكبير. وحسب المعطيات الحالية للوثائق، يظهر أن الحوض الغربي من البحر المتوسط قد أصبح ينفلت شيئاً فشيئاً من

---

211 - ترجح الباحثة الإسبانية موسكيرا مورينو أن المهاجمين على ميناء سبتة كانوا من البرتغاليين
Mosquera Morino M., "Ceuta y Genova: incidencias bélicas siglo XIII, Actas del *Congreso international "El Estrecho de Gibraltar"*, (Ceuta. 1987), Madrid, 1988, II, pp. 231-248.

وانظر كذلك أطروحتها *La señoria de Ceuta en el siglo XIII (historia politica y economica)*, Ceuta, 1994.,pp. 106-110

212 - E. de la Primaudaie, "Les villes maritimes du Maroc", op. cit. , 206.

أيدي جنوة لصالح قطلونيا. ولكن جمهورية جنوة كانت قد اندفعت باتجاه أسواق الشرق وخيراته، بما في ذلك القسطنطينية، وكافا والبحر الأسود، بل أبعد من ذلك، نحو الهند والشرق الأقصى.

ومع ذلك فإن العلاقات مع سبتة لم تنقطع كلياً. ففي بداية القرن الثامن/ 14 كان تجار جنوة يحتلون مكانة هامة في سوق سبتة، ولقد ساهموا في تثبيت سلطة النصريين بها سنة705 هـ/ 1306 م[213]. وإذا كانت وثائق العدول الموثقين تنقصنا بالنسبة لهذه الفترة، فإن "كتب التجارة" الإيطالية للقرن الثامن/ 14 م، تشهد على أهمية التجارة مع سبتة واستمرارها، كما هو الشأن بالنسبة لباقي المناطق المغاربية الأخرى. ولنتذكر أنه في بداية القرن الثامن/ 14م، نجد شخصية كبيرة من جمهورية جنوة، هو "كريستيان دي سبينولا"، قد أقام طويلا بالمنصورة، قرب السلطان المريني أبي يعقوب، وأن الجنويين كانوا يتوفرون على فندقهم بالمدينة. وحتى فترة سقوط المدينة بيد البرتغال سنة 818 هـ/ 1415 م، كان الجنويون يقيمون بكثافة بالمدينة[214]. ورغم ما قيل عن دور تجار جنوة المستقرين بالبرتغال في التحريض على غزو المدينة[215] - باتفاق مع تجار جنوة المستقرين بسبتة-، وذلك بهدف إضعاف القرصنة السبتية "الصخرة الدائمة في وجه التجارة المتوسطية"، فإنه يظهر أن الجنويين المستقرين بالمغرب كانوا معارضين بطريقة صريحة لاحتلال البرتغال للمدينة المغربية، لأن ذاك الاحتلال كان سيفقدهم دورهم وأرباحهم التجارية[216].

---

213 - Mascarillo A., "Quelque aspects des activités italiennes..." op. cit,. p. 74.

214 - Ricard R., "Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise", In *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Paris, 1955, p. 117.; Heers. J., *Gênes au XVe siècles*, Paris, 1961, p. 460.

215 - انظر : أحمد بوشرب، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16"، ضمن كتاب: **في النهضة والتراكم**، الدار البيضاء، 1986، ص200

216 - Cherif. M., " Notes sur les activités des génois à Ceuta", op. cit., 44.

التوزيع الجغرافي للاستثمارات الجنوية ببلاد المغرب

	1155 — 1199					1200 — 1249					1250 — 1290					المجموع العام				
	العدد	%	مجموع (لبرة)	%	المتوسط (لبرة)	العدد	%	مجموع (لبرة)	%	معدل (لبرة)	العدد	%	مجموع (لبرة)	%	المتوسط (لبرة)	العدد	%	مجموع (لبرة)	%	المتوسط (لبرة)
سبتة																				
قراض	148	65,5	11671	62,9	78,8	347	86,5	16768	84,5	48,3	133	92,5	6261	95,5	47	628	81,5	34700	77,2	55,2
شركات	53	23,5	5757	31	108,6	14	3,5	1746	8,8	124,7						67	6,7	7503	16,7	112
سلفات	25	11	1132	6,1	45,3	40	10	1333	6,7	33,3	11	7,7	298	4,5	27	76	9,8	2763	6,1	36,3
مجموع	226	53,2	18560	54,8	82,1	401	36,4	19847	41,5	49,9	144	27,1	6559	26,7	45,5	771	37,5	44966	42,3	58,3
بجاية																				
قراض	49	53,3	3791	48,1	77,4	328	90,6	13902	86,7	42,4	187	97,4	5886	94,5	31,5	564	87,4	23579	78,2	41,8
شركات	33	35,9	3646	46,3	110,5	8	2,2	655	4	81,8						41	6,3	4301	14,3	104,9
سلفات	10	10,8	440	5.6	44	26	7,2	1494	9,3	57,4	5	2,6	340	5,5	68	41	6,3	2274	7,5	55,4
مجموع	92	21,6	7877	32,2	85,6	362	32,8	16051	33,6	44,3	192	36,1	6226	25,3	32,4	646	31,4	30150	28,3	46,7
تونس																				
قراض	44	57,9	3514	64,5	81,6	318	95,2	10211	86,4	32,1	179	93,7	10874	93	60,7	541	90	24599	84,9	45,4
شركات	25	32,9	1692	31	67,7											25	4,1	1692	5,8	67,7
سلفات	7	9,2	244	4,5	34,8	16	4,8	1612	13,6	100,7	12	6,3	818	3,3	68,1	35	5.9	2674	9.3	76,4
مجموع	76	17,9	5450	16	71,7	334	30,3	11823	24,7	35,4	191	36	11692	47,6	61,2	601	29,2	28965	27,2	48,2
آخر التوجهات																				
قراض	13	48,2	682	39,8	52,4						4	96				17	47,2	778	41,3	45,8
شركات	9	33,3	836	48,9	92,9											9	25	836	44,3	92,9
سلفات	5	18,5	193	11,3	38,6	5		78		15,6						10	27,8	271	14,4	27.1
مجموع	27		1711			5	6,5	78	6,2							36		1885		52,4
المجموع العام	425		33887		79,7	1102		47799		43,4	531		24573		46,3	2054		106259		

ب - مع الساحل الفرنسي: مرسيليا[217]

ما تزال جذور العلاقات المغربية الفرنسية غامضة جداً. وحسب بعض الإشارات التاريخية غير الدقيقة، قد يكون سكان مدينة مرسيليا وصلوا إلى مياه سبتة، منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لاصطياد المرجان. ولكن الجنويين هم الذين كانوا يشكلون الوسطاء بين السواحل الفرنسية من جهة، وإفريقيا الشمالية من جهة أخرى؛ كما كانوا وسطاء بينهم وبين الشرق. ولم تنجح مرسيليا في تخطي الحاجز الإيطالي إلا ابتداء من القرن السابع/ 13 م، لتبدأ في التعامل التجاري المباشر مع المغرب، وبالخصوص مع سبتة، وذلك على حساب الجمهوريتين الإيطاليتين المتنافستين : جنوة وبيزة. فالتحالف الذي وقعته مع جنوة في 18 دجمبر 1203 م (6 ربيع الأول 600هـ)، كرس احتكار التجارة المرسيلية لمنطقة المغرب على حساب الأقاليم الفرنسية الأخرى.

بالنسبة لتجارة مرسيليا مع سبتة طيلة القرن السابع/ 13 م، نتوفر على معلومات قيمة بفضل وثائق الشركة التجارية لأسرة "مندويل" Manduel المرسيلية، ووثائق الموثق "أملريك" Amalric من نفس المدينة، وقوانين المدينة نفسها.

ونجد شهادات وصول المرسيليين إلى سبتة في القرن السابع/ 13 م ابتداء من سنة 609 هـ/ 1212 م، أي بعد عقد اتفاقية 26 نوفمبر 1212 م (24

217 - حول العلاقات مع مرسيليا انظر P. De Genival, *Les relations anciennes de la France avec le Maroc*, Rabat, 1928, C. Chevin, "Les relations de la France avec le Maroc de origines a la fin du Moyen Age", *Hespéris Tamuda*, 44, 1957. G. Hardy. Le Maroc. In *Histoire des colonies françaises et de l'expansion française*, III, Paris, Pernoud. R., *Histoire du commerce de Marseille*, T. 1, Paris, 1949. Blancard I, *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age*, t, 1 et 2, Marseille, 1884-1885. Caillè J. "Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta au XIIIe siècle", *Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, Alger, II,1957

جمادى الثانية 609)، بين مرسيليا وجنوة، ولكن يظهر أن الفترة الأكثر حيوية بالنسبة للتجارة المرسيلية تقع في النصف الأول من القرن السابع/ 13 م. فاستناداً على وثائق "مندويل"، والموثق "أملريك"، نتوفر على أسماء 13 سفينة مرسيلية أرست شراعها بمياه المدينة المغربية بين 1212 م و1248 م (609-648 هـ)، وحققت زهاء ثلاثين عملية تجارية.

وإذا كانت هذه الأرقام لا تعطينا بطبيعة الحال سوى فكرة محددة عن العلاقة التجارية بين البلدين، فإنها تشير إلى انتظام العلاقات بين الميناءين طيلة النصف الأول من القرن السابع/ 13م. ولا يعني ذلك أن تلك العلاقات قد انقطعت عند منتصف القرن. فنحن لا نعرف سوى السفن التي تذكرها وثائق "مندويل"، وسجلات العدل "أملريك"، حيث تقف الأولى سنة 1249 م(647 هـ)، والثانية سنة 1248 م(646 هـ). والواقع أن التجارة مع سبتة لم تنقطع فجأة سنة 647 هـ/ 1249 م، في وقت نجد فيه قوانين مدينة مرسيليا تنظم تعيين قناصلها في الميناء المغربي سنة653 هـ/ 1255 م. من جهة أخرى، لم يكن لمندويل أن يحتكر التجارة مع سبتة. إذ من المحتمل جداً أن يكون هناك تجار آخرون قد توافدوا على المدينة دون أن يترك لنا نشاطهم وثائق تثبت ذلك.

إن التجارة المرسيلية مع سبتة كان يقوم بها التجار المرسيليون بالأساس. ومن الممكن أن التجار السبتيين قد توافدوا على الميناء الفرنسي، لكننا لا نتوفر على أي دليل يثبت هذا الافتراض. ومن بين المرسيليين الذين كانت لهم علاقة تجارية مع سبتة، نشير بالخصوص إلى أسرة "مندويل"[218] التي تحتل مكانة

218 - Sayous A. E.,"L'activité de deux commerçants capitalistes marseillais vers le milieu du XIIIe siècle", *Revue d'histoire économique et sociale*, VII, 1929.
Idem, "Les opérations du capitalistes et commerçant marseillais Etienne de Manduel entre 1200 et 1230", *Revue des Questions Historiques*, 1930.

مرموقة في تجارة مرسيليا خلال القرن السابع/ 13 م. فقد أولت هذه الأسرة اهتماماً خاصاً بالتجارة مع المدينة المغربية، حيث كان لها ممثلها التجاري الخاص، كما كان يوجد عدل موثق، وفندق لتجار مرسيليا.

بالإضافة إلى هذه الأسرة نجد أن الأشخاص الذين كانوا يتعاملون تجارياً مع سبتة يوصفون بـ"مواطني مرسيليا"، والآخرون كانوا كلهم تقريباً من جنوب فرنسا؛ من منبوليي ونيم، أو من كوندون، وهو الأمر الذي يوحي بكون تجارة الجنوب الفرنسي كانت تتم عن طريق الوساطة المرسيلية، أو الوساطة الإيطالية أو القطلانية.

من جهة أخرى يجب الإشارة إلى دور اليهود في التجارة المرسيلية بسبتة. فيهود سبتة كانت لهم علاقات وطيدة مع أبناء ديانتهم في مختلف مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، ولقد ضمنوا للتجارة المرسيلية أسواقاً داخل البلاد، كما كانوا يقومون بسفريات تجارية من سبتة لصالح كبار التجار.

يظهر لنا من خلال هذه المعطيات المتفرقة، أن العلاقات التجارية المرسيلية السبتية قد توطدت خلال القرن السابع/ 13 م. فإبان القرن السادس/ 12 م، كانت أغلب السفن التجارية الجنوية والسفونية التي تبحر باتجاه سبتة، والتي لم تكن تستطيع عبور البحر من الشمال إلى الجنوب؛ تذهب بمحاذاة الساحل، وتمر بالضرورة على مرسيليا، حيث كان يتم استكمال شحن حمولتها. وفي بداية القرن السابع/ 13 م، أصبحت مرسيليا هي التي تلعب دور الوسيط بين السواحل المغربية والسواحل الفرنسية الجنوبية. ولكن في منتصف القرن السابع/ 13 م، نلاحظ انتقالا في النشاط التجاري لمرسيليا نحو الجهة الشرقية للمغرب، وخاصة نحو بجاية وتونس، كما نجد وثائق أخرى تؤكد أنه في نفس الفترة كانت مرسيليا تقوم بمجهودات في الشرق.

والواقع أنه في نهاية القرن، عرفت العلاقة بين المدينتين خفوتاً عقب حروب "شارل الأنجواني"Charles d'Anjou، صاحب مرسيليا، ابتداء من سنة650هـ/ 1252 م، وهو الذي عَسْكر ميناء المدينة الفرنسية على حساب التجارة. إن قلة الوثائق المتعلقة بالعلاقات التجارية بين سبتة ومرسيليا في القرن الثامن/ 14 م يفسِّر بتقلص حقيقي لهذه العلاقات. فابتداء من القرن الثامن/ 14 م، لم نعد نتوفر على أية إشارة لتجارة مرسيليا بسبتة، حيث لم يعد هناك أثر لفندقهم. ونتساءل إن لم يكن هذا التخلي عن سبتة قد تم لصالح مليلية وبادس وطنجة وأصيلة.

بموازاة هذا الانحطاط في التجارة المرسيلية بسبتة، نلاحظ التأثير المتزايد للأرغونيين في المدينة. ويمكن القول أن هؤلاء قد أخذوا مكانة المرسيليين، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى استبعاد فكرة التراجع المرسيلي عن أسواق سبتة بفعل مخاطر القرصنة البحرية.

ج - مع شبه الجزيرة الإيبيرية: مملكة أراغون

لقد كانت العلاقات التجارية بين سبتة والأندلس نشيطة جداً منذ زمن قديم، كما تدل على ذلك نتائج الحفريات الأثرية، ونتائج التنقيبات الأركيولوجية في أعماق البحر[219]. ولقد ظلت هذه العلاقات متواصلة ودائمة بين ضفتيْ الزقاق، بغض النظر عن تبدل الأنظمة السياسية بهما[220]. إن إدماج قسم كبير من شبه الجزيرة الإيبيرية في الدولة المغربية قد سهل كثيراً، بفعل الوحدة السياسية، تنقل التجار بين القارتين، ووفر لهم مناخاً سياسياً وثقافياً وبشرياً

219 - Bravo. P.J. y Monoz R., *Arqueologia submarina en Ceuta*, Madrid, 1965.

220 - انظر مثلا نموذجا من العلاقات التجارية بين سبتة واشبيلية في القرن الخامس الهجري/11م في : ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، الدار العربية للكتاب،1979، ج2/2، ص 658

مشجعاً لعملياتهم التجارية. ففي كتب التراجم نجد أسماء عدد من العلماء والفقهاء السبتيين الذين دخلوا الأندلس للتجارة، والعكس صحيح. يتعلق الأمر بنوع من العلاقات التجارية العادية المرتبطة بالسفر والعلم، بحيث لا داعي للوقوف عنده.

كان القشتاليون والبرتغاليون يتاجرون مع سبتة. لكن مصادرنا لا تمكننا من تتبع نشاطهم بدقة. وتوطدت العلاقات التجارية السبتية مع القطلانيين طيلة القرن السابع والثامن/ 13 و14 م. ويرجع الفضل إلى "شارل إمنويل دوفورك" الذي درس بعمق هذه العلاقات وأظهر كثافتها اعتماداً على كم هائل من وثائق الأرشيفات القطلانية. فمن كتابه الرائد "إسبانيا القطلانية وبلاد المغرب في القرنين 13 و14" نستمد أهم معلوماتنا حول موضوع العلاقات التجارية السبتية القطلانية[221].

فحسب المؤرخ الإسباني "كامباني" - الذي عاش في القرن 18 - يكون القطلانيون هم الأوربيون الأوائل الذين توافدوا على سبتة خلال العصر الوسيط، وقد تبعهم الجنويون. ولكن من المؤكد أن القطلانيين كان يسبقهم منافسوهم الإيطاليون، والبروفسيون، على الأسواق السبتية في القرن السادس/ 12 م. إن الاستيلاء على جزر البليار سنة627-628 هـ/ 1229- 1230 م، كان الخطوة الأولى في تحول مملكة أراغون إلى قوة متوسطية. قبل هذا الاستيلاء نفسه، كانت أنشطة القطلانيين بسبتة قوية. فـ"وثيقة الملاحة" القطلانية لسنة 1227 م(624 هـ) تظهر بوضوح أهمية سبته بالنسبة لبرشلونة. ففي إحدى الأوامر لهذه السنة حول التجارة القطلانية في بلاد المغرب، لا يتم ذكرسوى ميناء مغاربي واحد، هو ميناء سبتة. ونعرف كيف كانت العرقلة التي تتعرض

221 - Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb…* op.cit.

لها تجارة برشلونة مع سبتة، بسبب نشاط قراصنة جزر البليار المسلمين، إحدى دوافع استيلاء القطلانيين على ميورقة سنة628 هـ/ 1230 م.

والواقع أنه خلال هذه السنوات، وعلى الرغم من منافسة التجار المسيحيين الآخرين، فإن ميناء سبتة كان النقطة المغاربية التي تربطها علاقات منتظمة مع برشلونة. إن مدينة سبتة التي كانت تمثل بوابة المغرب، ستصبح المكان المفضل للرعايا الأرغونية الذين يتعاطون للتجارة. ولا شيء يثبت أنه كان يتواجد بها فندق أو قنصلية قطلانية، ولكن الأمر محتمل.

لم تكن العلاقات القطلانية السبتية تجارية فقط، وإنما ارتبطت أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالعمل بالعمل السياسي والعسكري. فعلى خلاف الجاليات المسيحية الأخرى ذات الطابع التجاري، فإن القطلانيين - كالقشتاليين والبرتغاليين لاحقاً - تبنوا سياسة التدخل العسكري السافر. حتى إن أحد الدارسين المحدثين يتحدث عن "الإمبراطورية الأرغونية"[222]، خصوصاً وأن منطقة الزقاق كانت من أسخن مناطق الصراع المغربي الإيبيري. وقد كان الجنويون - منافسي القطلانيين الأقوياء - يسيطرون على السوق السبتي. ولم يكن من السهل إزاحتهم عن هذا السوق، وانتزاع زعامتهم التي ترجع إلى القرن السادس/ 12 م. ولجأ القطلانيون إلى القوة العسكرية. فتدخلهم البحري السافر في صيف 1234 م(محرم- ذو القعدة628 هـ) في مياه سبتة، كان يكتسي طابعاً عدائياً واضحاً للجنويين. لقد أراد التجار القطلانيون اغتنام فرصة استقلال المدينة المغربية الحديث عن السلطة الموحدية، وانعزالها، لإزاحة الجنويين، منافسيهم الرئسيين، أو على الأقل إضعاف وجودهم بسبتة. لهذا السبب أحرق القطلانيون سفن جنوة التي كانت راسية بمياه سبتة.

R. Brunschvig , *La Berbèrie orientale*..., II, 432.- 222

لكن هذه الأزمة لم يكن لها مخلفات تذكر، وموقف الملك الأرغوني كان بصفة عامة لصالح سبتة خلال القرن السابع/ 13 م. فعندما منع رعاياه من مزاولة القرصنة سنة 1250 م(648 هـ)، فإنه تخلى عن استعمال القوة تجاه سبتة. كذلك لم يكن الملك "جاك الغازي"Jacques le Conquérant، ولا رعاياه التجار، متحمسين لفكرة الحرب الصليبية ضد إفريقيا، التي كان يدعو إليها كل من البابا "ألفونسو العاشر"، والكنيسة سنة 1260 م(658 هـ)، والتي كان من أهدافها الرئيسية الاستيلاء على مدينة سبتة. إنهم كانوا يفضلون الاتجار بسلام مع سبتة، ومع باقي الموانئ المغربية، عوض الارتماء في حرب صليبية غير مضمونة النتائج. ولم تخفت أنشطة القطلانيين بسبتة بعد سنة660 هـ/ 1262 م. **إن التجارة وأرباحها كانت أهم الجسور التي تختفي معهما الصراعات السياسية والاختلافات الدينية، أو على الأقل تحدُّ من غلوائها.**

وتوطدت الأنشطة التجارية بين السبتيين والقطلانيين بعد توقيع اتفاقية "السلم والهدنة" سنة667 هـ/ 1269، بين أبي القاسم العزفي، حاكم سبتة، وملك أرغون "جاك الغازي". والواقع أنه ليتمكن التجار القطلانيون من التعامل التجاري بحرية، وفي ظروف مواتية بسبتة، لم تكن هناك طريقة أفضل من عقد اتفاقية مع العزفيين، حكام المدينة. وفي السنوات اللاحقة، نجد القطلانيين يتاجرون بكل حرية، ليس في مدينة سبتة وحدها، وإنما مع الموانئ المجاورة لها كذلك مثل : الكدية، والمزمة، وغساسة.

عند نهاية القرن السابع/ 13 م، كان الأرغونيون، وخاصة تجار برشلونة وميورقة، يترددون بانتظام على ميناء سبتة. ولم يطرح إدماج مدينة سبتة في مشروع السلم المقترح سنة686 هـ/ 1287 م بين المرينيين والقطلانيين أية مشكلة. وعلى الرغم من فشل السفراء القطلانيين في عقد هذا السلم، فإن

مفاوضاتهم كانت لها انعكاسات إيجابية على الأنشطة التجارية القطلانية بسبتة. فلنا شهادات تواجدهم بالمدينة سنة 687 هـ/ 1288 وسنة695 هـ/ 1296 م.

في بداية القرن الثامن/ 14 م، وبينما نشاهد تراخ في الأنشطة الجنوية بسبتة، فإن العلاقات الاقتصادية بين الموانئ المرينية وموانئ أرغون كانت مستمرة. وعلى الرغم من غياب أية اتفاقية، فإن التجارة لم تتوقف، ولو أنها كانت تتم في جو محفوف بالأخطار. ويؤكد محضر برشلوني لسنة 1302م (702هـ)، أصدره مجلس المائة للمدينة القطلانية، أن العلاقات التجارية بين أراغون وسبتة والكدية قد حافظت على انتظامها لمدة ثلاثين سنة تقريباً، قبل إصدار هذا المحضر[223]. ويرجع بعض الباحثين هذا الانتظام إلى ما خلفته اتفاقية السلم التي وقعتها مملكة أراغون مع إمارة سبتة العزفية سنة667 هـ/ 1269م[224].

لم تكن الحروب، ولا القرصنة البحرية، ولا عدم الاستقرار السياسي بالمغرب، يكبل كلياً تجارة سبتة. ففي أعقاب إعلان العزفيين استقلالهم في سبتة سنة 704 هـ/ 1304 م، لم يتسرع ملك أراغون في إرسال أسطوله للتعاون مع المرينيين لإخضاع المدينة، على الرغم من الثمن الضخم الذي اقترحه عليه السلطان المريني مقابل مساعدته إياه. فهو لم يكن يريد أن يعرقل تجارة رعاياه بالمدينة. وعلى الرغم من تغيير حكام سبتة، فإن طابع المدينة التجاري، والأرباح التي كانت تقدمها للتجار المسيحيين، بقيت قائمة. إن القطلانيين ظلوا يتوافدون عليها وقد صارت مؤقتاً بيد النصريين. ففي هذه السنوات من القرن الثامن/ 14 م، كما كان الحال خلال سنوات القرن السابع/ 13 م، كان

---

223 - Dufourcq, *L'Espagne catalane*..op. cit.,. 163.

224 - نشاط مصطفى، **التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول**، م. س. ص 293.

للقطلانيين نشاط كبير ومثمر بالمدينة التي كانت تستقطب ما يقرب من ثلثيْ الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن الثامن/ 14 م[225]. مثلاً نعرف على الأقل عشر سفن ميورقية كانت قد اتجهت إلى ميناء سبتة بين أبريل 1314 م، ومارس 1315 م (محرم- ذو الحجة 714هـ)، وإحداها على الأقل كانت تكمّل طريقها نحو المحيط الأطلسي، باتجاه أصيلة.

إن موقع **ميورقة** ومكانة مينائها ساهمتا في إعطاء دفعة قوية للدور القطلاني في البحر، وفي العلاقات مع سبتة[226]. لقد كان الإيطاليون، مثل الفرنسيين، يتخذون في أكثر الأحيان، ميورقة محطة في طريقهم إلى المغرب. فالمعلومات التي نتوفر عليها حول السفريات التي كانت تتم شهرياً من ميورقة نحو بلاد المغرب تسمح لنا بالتأكيد على أن سبتة كانت لها مكانة متميزة في الأنشطة الميورقية خلال النصف الأول من القرن الثامن/ 14 م. إنها الميناء المغربي الأكثر ارتياداً من طرف التجار الميورقيين، والذي كان يتفوق على موانئ المغرب الأوسط. وحدهما بجاية وتونس كانتا أكثر ارتياداً من سبتة. ونعرف على الأقل إسم 33 ميورقياً كانت لهم علاقات تجارية مع سبتة بين سنة 710 و 731 هـ/ 1311 - 1331 م.

لم تتوقف أنشطة التجار المسيحيين عن التطور بسبتة طيلة العصر الوسيط. فقد أعطت المنافسة الأسبقية لبعضهم على البعض، حسب مكانتهم وإشعاعهم بالبحر الأبيض المتوسط : جنوة طيلة القرن 12 م وبداية القرن 13م، مرسيليا في النصف الثاني من القرن السابع/ 13م، والقطلانيين في القرن

---

225 - Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane*, op. cit., 555.

226 - Ch. E. Dufourcq, "La place du Maghreb dans l'expansion de la couronne d'Aragon: La route maghrébine par rapport à celle des îles et des épices", II *Congreso his. Culuras mediterranio Occ.*, 276-277.

السابع والثامن/ 13- 14م. هذا التحقيب، كما يظهر لنا في الوضعية الحالية للوثائق ولمعارفنا التاريخية، قابل لأن يُراجع على ضوء اكتشاف وثائق جديدة، أو على ضوء نتائج أبحاث في طور الإنجاز. ولكن يمكننا القول **إن سبتة لم تفقد أبداً أهميتها التجارية، على الرغم من تغير "جنسية" زبنائها، وظلت مكاناً مفضلاً لدى التجار المسيحيين طيلة العصر الوسيط.**

إن "زرارا" الذي ألف كتابه في منتصف القرن الخامس عشر (1449-1450م) يصف مدينة سبتة بكونها " زهرة مدائن القارة الإفريقية كلها... حيث نجد المسلمين الأجانب القادمين من إثيوبيا، ومن الإسكندرية، ومن أرض الشام، ومن باقي بلاد المغرب، ومن الأناضول حيث ممالك الترك، وكذا مسلمي باقي مناطق الشرق الذين يعيشون على الجانب الآخر من الفرات، ومن الهند، ومن باقي الأراضي الأخرى الكثيرة البعيدة... كلهم يأتون إلى سبتة محملين بكثير من السلع الثمينة"[227]. وظلت هذه الأهمية يرن صداها في أذهان الأوربيين عامة، والإيبيريين خاصة، حتى بعد سقوط المدينة بقرنين من الزمن، كما نستشف من شهادة البرتغالي "فالنتين فرنانديس" (ت911 هـ/ 1506م) الذي كتب يقول : " **لقد كانت هذه المدينة، في أيام المسلمين من أهم مدنهم، سواء بشموخ بناءاتها، أو بثروتها، أو بأهلها، أو بتجارتها. وفي هذا المكان بالذات، كان يوجد الميناء الرئيسي لاستيراد المواد لفائدة داخل البلاد بأسرها.** ولقد بلغت المدينة من السطوة ما جعل كل سفن الشرق والغربىالمارة بالمضيق تنزع أشرعتها"[228].

---

227 - Zurara, E. G. *Crónica da tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*, éd. F.M. Esteves Pereira, Lisbonne, 1915, p. 268- 269

228 - V. Fernandes, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, op. cit.,

4 - الصادرات والواردات

كانت سبتة، الميناء المغربي الأساسي على الواجهة المتوسطية، تشكل المنفذ الرئيس للإنتاج المغربي الداخلي الموجه للتصدير. وليس مفاجئاً إن كان الإنتاج الفلاحي أو الصناعي للمدينة، لا يكفي بالكاد لتلبية الاستهلاك الداخلي المتزايد، الناتج عن التوسع العمراني والديمغرافي السريع، وتحسين مستوى عيش السبتيين.

فالصادرات الآتية من الإنتاج المحلي كانت تنحصر في مواد قليلة، وبكميات متواضعة : فواكه، سكر، ورق، أدوات الطبخ، أدوات نسيج مصنعة، سمك ومرجان خاصة.

إن السلع المستوردة لم تكن موجّهة للاستهلاك المحلي إلا بنسبة ضعيفة. لأن أغلبها كان موجهاً للمراكز الحضرية داخل البلاد. من هنا يظهر أن دور سبتة في تيارات المبادلات التجارية المتوسطية كان قبل كل شيء دور سوق هام لإعادة التوزيع، وهو الدور الذي حمل معه دينامية في الحياة الاقتصادية بالمدينة. ومن الواضح أن ما سنقوله عن السلع المتبادلة بين سبتة والعالم الخارجي، قد ينطبق عموما على صادرات المغرب كلها.

كانت سبتة مثل باقي بلاد المغرب في العصر الوسيط، تصدر أساساً المواد الأولية الحيوانية والنباتية. إن إفريقيا الشمالية كانت مصدر 89 % من واردات جنوة من الصوف، ما بين 634 و 692 هـ/ 1237 و1293 م[229]، لقد كانت **الصوف** المغربية تأتي من القطيع الضخم بالمناطق الرعوية. وكان التجار المسيحيون يشترونها، مغسولة أو مشحمة، بكميات هائلة. وكانت بعض

229 - G. Jehel, *Les génois*... 345.

الأكباش المغربية تعطي صوفاً لينة، سماها الجنويون باسم "المرينوس" -*Mirini Mérinos* نسبة إلى المرينيين. وكان تصدير هذه المادة يتم أساساً عن طريق سبتة والكدية وأصيلة وأنفا.

وبنفس الأهمية كانت تصدر **الجلود** الخضراء أو المدبوغة. إنها أساساً جلود البقر والغنم والماعز. لقد كان الإيطاليون يبحثون كذلك عن جلود أو فراء الأرانب. أما تصدير **الشمع** فكان عاماً ببلاد المغرب. وكانت سبتة تبيع كذلك **مرجانها** الأحمر المفضل لدى التجار المسيحيين. وشكلت الفواكه والحبوب مواد تجارية رائجة. فجزء كبير من **الحبوب** المغربية كان يتم تصديره من ميناء سبتة باتجاه الأسواق المتوسطية، وحتى المشرقية. إن بناء الفندق الكبير في القرن السابع/ 13 م بالمدينة، وتعميره بحمولات القوافل من الحبوب المعدة للتصدير، لشهادة على الأهمية الكبرى لهذه التجارة بالمدينة. وأخيراً يجب أن نضيف إلى هذه اللائحة بعض مواد الصناعة التقليدية المغربية؛ كالزرابي، وبعض الألبسة، وفي أغلب الأحيان المصنوعات الجلدية.

إن "السلعة البشرية"، أي **العبيد**، لم تكن تشكل عنصراً تجارياً بالمعنىالدقيق للكلمة، ولا شيء يثبت أن العبيد شكلوا عنصراً تجارياً ذا أهمية بين سبتة وأوربا. فقليلة هي الوثائق المتعلقة بهذا العنصر[230]. والواقع أن هذا التيار التبادلي كانت تطعمه باستمرار الغارات المتبادلة بين المسلمين

---

230 - حقق التاجر الجنوي Punco Michele de Niza ثلاث عمليات تجارية في العبيد بسبتة في ثلاثة أيام في نهاية سنة 1190 وجمع خمسة عبيد بثمن يتراوح بين نصف ليرة وست ليرات..Posac Mon ,"Relaciones..." , op. cit., 16.

Verlendin Ch., *L'esclavage dans l'Europe médiévale*, Bruges, 1955, t. 1. p.610

وفي سنة 1322 بيعت أسيرة قطلانية بسبتة بـ 65 دينارا دهبيا، وكان مالكها قد اشتراها بـ 15 دينارا أو أقل من ذلك. Verlendin, *l'esclavage*...op. cit. p. 503

ثم هناك فتوى حول تاجر ذهب يبيع الزيت بالجزائر «واشترى سلعاً ورقيقاً وبعث بذلك للمرية وسبتة» **المعيار**، ج 76/9.

والمسيحيين على السواحل، والقرصنة في البحر، وما يستتبعها من مظاهر الأسر والعبودية[231]. أما ما يتعلق بالعبيد السود، فمن الثابت أن استقدامهم من السودان لبيعهم في شمال إفريقيا كان يجد كماله الضروري في بيعهم لمسيحيي شبه الجزيرة الإيبيرية.

في تيار الواردات المسيحية نحو سبتة، نجد أن الكمية الكبرى والمهمة والمنتظمة كانت تتكون من التوابل، والمواد النسيجية.

لقد كانت **التوابل**، وكذلك العطور ومواد الصباغة، من بين السلع الغالية، وذات الحجم الصغير التي تدر أرباحاً طائلة على المسيحيين الذين كانوا يحتكرونها ويمثلون الوسطاء الضروريين بين البلدان الشرقية المنتجة، وبلاد المغرب. وجزء مهم من هذه السلع كان موجها للتجارة الكمالية بالحواضر الكبرى. وتلفت انتباهنا الكميات الكبيرة من التوابل المرسلة إلى سبتة، أكبر مستورد للتوابل ببلاد المغرب[232]. فقد كانت تصل في بعض الأحيان إلى عشرة مثاقيل من القرفة، وأربعين قنطاراً من الإبزار. إن الثمن المرتفع لهذه السلع دفع ببعض التجار السبتيين إلى الذهاب لاقتنائها مباشرة من الشرق. لكن السوق السبتية ظلت خاضعة للوساطة المسيحية في هذا المجال.

أما **السلع النسيجية**، المصنعة أو على شكل ألياف، فكانت تمثل أكثر الصادرات المسيحية لسبتة. لقد كانت أنسجة "أراس"، و"شالون"، ومناديل باريس الساطعة، ومثيلتها من "بيربينيان"، وملابس "بيزيي"، و"لانكودوك"،

---

231 - حول بعض الأسرى السبتيين انظر :
Cossio J.M., " Cautivos de moros en el siglo XIII", *Al Andalus*, N° 7, 1942, 97,105
حيث يذكر أسيرين سبتيين وإثنين آخرين من أصيلا وإثنين من طنجة.

232 - استوردت سبتة من جنوة ما قيمته 522 ليرة من التوابل ما بين 1164 و1280م، بينما لم تستورد بجاية سوى 207 ليرة وتونس 193 ليرة.

وأليـاف "بورغـون"، وفساتين "لومبـاردي"، وثيـاب الملـف مـن "فلانـدرا"، و"شامبانيا"، تصل بانتظام إلى سبتة لإعادة توزيعها على الحواضر المغربية.

وكانت المواد الزجاجية والجواهر والمواد الحديدية المسيحية تبـاع كذلك بسبتة. **فالمعادن**، مثل الرصاص والقزدير، وخاصة النحاس، كانت مطلوبة لدى المغاربة، مثلها مثل الخشب. ويسترعي انتباهنا الكميات الكبيرة للفضة التي كانت ترسلها مرسيليا في القرن السابع/ 13 م لسبتة، مسكومة أو على شكل قطع. وينضاف لذلك الأحجار الكريمة والجواهر. فمنذ نهاية القرن السادس/ 12م، أصبحت مجوهرات جنوة ترسل بانتظام إلى سبتة[233].

إن كميات كبيرة من **الخمر** كانت تأتي كذلك من الخارج. وكانت سبتة تحصل عليه من جميع أنحاء البحر المتوسط، وخاصة من مرسيليا. ويظهر أنه كان من أهم صادراتها إلى المدينة, لأن قوانين المدينة الفرنسية قننت بيع هذه المادة بسبتة. إذ نجد فصلاً كاملاً من القوانين المرسيلية لسنة 1228 (625 هـ) مخصصاً لمقتضيات بيع الخمر المرسيلي في بجاية وسبتة. أما الخمر الجنوي، فكان يصل بكميات كبيرة إلى المدينة كذلك. ونتوفر على سلسلة من 22 عملية تصدير للخمر، بين سنة579 و 689 هـ/ 1184 م و1290م، يظهر سبتة كأكبر مستورد للخمر بـ116 ليرة، بينما لم تستورد تونس وبجاية في نفس الفترة سوى 14 و37 ليرة على التوالي[234]. وكان الخمر موجهاً إلى الجاليات المسيحية بفنادق المدينة. لكن المغاربة كانوا يستهلكونه كذلك، لأن القوانين المرسيلية تفرق ما بين الحوانيت التي تبيع الخمر للمسيحيين، وتلك التي تبيعه لسواهم.

---

233 - G. Jehel. *Les Génois*, op. cit., p. 353.
234 - Idem, 344.

إن المبادلات التجارية لسبتة كانت جد معقدة لدرجة أننا نجد تيارات التبادل، الذي أوضحنا خطوطها العريضة، تنعكس في بعض الأحيان. فيحدث أن تستورد سبتة الباكور مثلاً من جنوة، أو أن يصدر التجار السبتيون المواد المعدنية لإيطاليا، أو يتم إرسال الطحين من مرسيليا إلى المدينة، أو من جنوة إلى سبتة[235]. وكانت سبتة مركزاً لتصدير الكتان لكنها كانت تستورده كذلك من جنوة. وهذه الحركة في المواد الغذائية تبين غياب تخصص جغرافي للتجارة في المواد الأولية الغذائية.

5 - المسالك والطرق التجارية[236]

كانت سبتة كباقي الموانئ، تقع في ملتقى الطرق البرية والبحرية. وكان اتصالها بالداخل، يتم عبر المحور الأكثر ارتياداً، وهو محور سبتة - فاس (أو فاس - سبتة)، مروراً بطنجة وأصيلة والبصرة وكورت. والتحمت المنطقة الداخلية بالواجهة المتوسطية أكثر مما مضى في القرنين الخامس والسادس/ 11 و12 م. فالطريق الأول أصبح مضاعفاً بطريق يربط سبتة بفاس عبر "أزجان"، دون المرور بأصيلة. ويعطي الإدريسي سبعة أيام لقطع الطريق الأول، وثمانية لقطع الطريق الثاني. من هذين الطريقين كانت تعبر غالبية منتجات مراكش وفاس، ومنتجات داخل البلاد، باتجاه سبتة؛ ومنها نحو عالم حوض البحر المتوسط. وعبرها كذلك كانت تصل سلع السودان الغربي لسبتة، في طريقها إلى العالم المسيحي.

235- نفسه 355.

236 - Cherif M., "L'importance de Ceuta dans le réseau du commerce méditerranéen", *Revue de la faculté des Tétouan* والهوامش المثبتة في هذا المقال.

وبذلك **لعبت سبتة دور المنفذ الرئيسي للمناطق الداخلية الغنية**. لقد حظيت بهذا الدور لأن الموانئ المتوسطية الأخرى مثل باديس، وغساسة، ومليلية، أو المزمة... لم تستطع أبداً - نظراً لموقعها الجغرافي - الوصول إلى أهمية سبتة، ومزاحمة جاذبيتها التجارية التي كانت قد أصبحت ثابتة.

من سبتة كانت تمر الطرق التجارية التي تربط فاس بجزر البليار[237]، ولا يظهر أن أهمية محور فاس - سبتة قد تضرر من النشاط الذي طبع طريق فاس - تلمسان عبر تازة. بالمقابل، عرف نوعاً من التقلص بموازاة الأهمية التي اكسبتها الطرق المتعددة التي ربطت الواجهة الأطلسية، والأهمية التي ستأخذها هذه الواجهة ابتداء من الفترة الموحدية، وخاصة المنطقة المحصورة بين سلا وأسفي (فضالة، أنفا، مازغان)[238]. وهذا التغيير لم يؤثر بتاتاً على الحياة التجارية السبتية. فسفن المدينة وتجارها كانوا قد تعودوا على اجتياز مياه الزقاق للإبحار في مياه الأطلسي، بحثاً عن السلع والمنتجات الفلاحية بهذه الواجهة، التي ربطوا معها علاقات تجارية متينة منذ فترة مبكرة. إذ في القرن الرابع/ 10 م، يخبرنا ابن حوقل بأن سكان البصرة كانوا يبحرون في نهر سفدد، وفيه "يحملون تجاراتهم في المراكب، ثم يخرجون إلى البحر المحيط ويعودون إلى البحر الغربي، فيسيرون منه حيث شاؤوا"[239]. في القرن السادس/ 12 م كانت حبوب السهول الأطلسية تسوق بسبتة، حيث تجد رواجاً كبيراً. ولدينا فتوى على قدر كبير من الأهمية تبين تسويق القمح والشعير من مازغان إلى سبتة، وبيعه بأثمان جيدة[240]. وفي القرن السابع/ 13 م،

---

237 - Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*... op. cit. 164.

238 - محمد زنيبر، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، ضمن كتاب، **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ابن مسيك، البيضاء، سلا، 1990، ص 321 - 327.

239 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 80.

240 - **مذاهب الحكام**، 128-129.

كانت هذه العلاقات متينة. فابن سعيد يكتب قائلاً: "مازغان وهي فرضة مشهورة تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها"[241].

والواقع أن المُساحلة بين سبتة ومدن الواجهة الأطلسية كانت نشيطة، وغير منقطعة. وكان يمارسها المسلمون والتجار المسيحيون على حد سواء، على الرغم من مخاطر كثافة الضباب، والتيارات البحرية القوية، وتغير اتجاهات هبوب الرياح... وعلى الرغم من أن الاتصال بين سبتة والواجهة الأطلسية كان يتم عن طريق البر أحياناً، فإن المساحلة ظلت الأكثر استعمالاً. إن السفن المسيحية الذاهبة أو القادمة من الأطلسي كانت تجعل في أغلب الأحيان من ميناء سبتة محطة إجبارية في طريقها[242].

مع مناطق الواجهة المتوسطية والشرقية، كانت سبتة مرتبطة بطريق بحري، وآخر بري. فالطريق البحري كان الأكثر ارتياداً بفضل المساحلة النشيطة جداً التي كان يلجأ إليها سواء التجار والمتصوفة، أو المسافرون العاديون. إن تضرس المنطقة الشديد شجع الاتصال البحري بين سبتة وبادس ومليلية، وبينها وبين مدن المغرب الأوسط وإفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط. إن ابن سعيد يؤكد أن المراكب كانت ترد على المدينة "من البحر المحيط، ومن ريف غمارة".

مع السواحل الأندلسية، كانت الاتصالات كثيفة ومستمرة منذ زمن بعيد. بل إن مضيق جبل طارق شكل قنطرة رابطة بين القارتين، أكثر من كونه حداً

---

241 - ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، 137

242 - Christophe Picard, *L'Océan atlantique musulman de la Conquête arabe à l'époque almohade. Navigation et mises en valeur des côte d'Al - Andalus et du Maghreb occidental (Portugal -Espagne - Maroc)*, Maisonneuve - Larose (éd. Unesco), 1997

طبيعياً فاصلاً بينهما. إن المضيق الذي كان نقطة مرور تقليدية بين سبتة والأندلس، كان يتم اجتيازه، مع رياح مساعدة، في أقل من ثلاث ساعات فقط[243].

وأخيراً كانت سبتة تلعب دور نقطة نهاية (أو بداية) خط ملاحي وتجاري هام على خارطة المبادلات المتوسطية. فالمدينة لم تكن فقط "محطة للسفن القادمة من إسبانيا"، وإنما كانت نهاية خط ملاحي وتجاري مُثلث يربط بين جنوة وفرنسا وإسبانيا، ونقطة انطلاق (أو نهاية) للرحلات التي تجوب الساحل الشمالي لإفريقيا نحو الشرق. إن وثائق الأرشيفات الأوربية توضح هذا الدور في شبكة الملاحة المتوسطية[244]. ثم إن المدينة ستصبح نقطة ركوب البحر بالنسبة للحجاج المغاربة والأندلسيين على حد سواء.

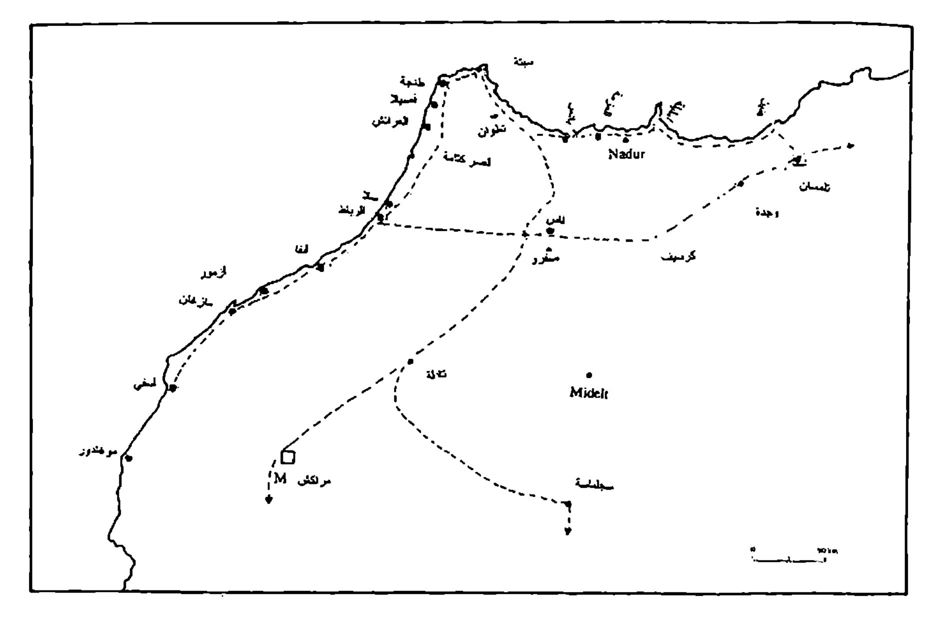
هذا الدور المضاعف لسبتة كمنفذ رئيسي على الواجهة المتوسطية لتسويق الإنتاج الداخلي للمغرب، وكنقطة نهاية وبداية طريق تجارية وملاحية متوسطية، يفسر أهمية العلاقات التجارية للمدينة مع العالم المتوسطي. وإذا كانت شبكة الطرق البحرية تعاني من مخاطر نشاط القرصنة البحرية المتبادلة بين المغاربة والأوربيين، فإن اللصوصية وانعدام الأمن على طول المسالك البرية كان هو الخطر الكبير الذي أعاق التجارة السبتية، خاصة في القرن الثامن / 14 م، رغم المحاولات التي قام بها بعض السلاطين المرينيين[245].

243 - Lévi-Provençal, E., *Histoire de l'Espagne musulmane*, T.3, Paris, 1950, p. 324.

244 - Krueger H. C., "The Wares of Echange in the Genoese African Trafic of the twelfth Century",op. cit., p. 70.; Idem, "Genoese Trade with Northwest Africa ", op. cit. p. 382-392-394.; Posac Mon C., "Relaciones entre Génova y Ceuta durante el siglo XII", *Tamuda*, 1959, pp. 165.

245 - مثل السلطان أبي الحسن الذي عمل على تعمير «طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب، (وهي خيام) يسكنها أهل الوطن، ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية، ثواباً على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها، والمرافق التي يضطرون إليها، هم وبهائمهم، وتحرسونهم ويحوطون أمتعتهم، فإن ضاع بينهم

موقع سبتة على خارطة الطرق الداخلية (القرن 6-8 هـ/12-14م)



6- ضرائب التجارة البحرية

إن اتفاقيات السلم والتجارة المبرمة بين السلطات المغربية والدول الأوربية، والتي كانت تشكل الإطار القانوني للتواجد التجاري المسيحي بالموانئ المغاربية، غالباً ما كانت تضم قسمين أساسيين :

- الضمانات المعطاة للتجار المسيحيين.
- الواجبات الملقاة على عاتقهم، مقابل تلك الضمانات.

ومن أهم الضمانات التي كرّستها تلك الاتفاقيات، هناك حماية التجار المسيحيين، وحرية المبادلات التجارية، وضمان ملكية الفنادق ومرافقها،

شيء تضمنوه، فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله »»، ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس فيغيرا، الجزائر، 1981، 429.

وضمان نقل وحراسة وبيع وتسديد قيمة البضائع، بالإضافة إلى إعفاء السلع غير المباعة من واجبات الديوانة، ومبدأ المسؤولية الشخصية[246]. أما الواجبات فنجد على رأسها : التزام التجار النصارى بارتياد الموانئ المفتوحة في وجههم، وأداء واجب الديوانة، والمعاملة بالمثل فيما يخص بعض التجار المسلمين[247].

إن التحديد الأول لم يكن نابعاً من اعتبارات عسكرية أو سياسية، بقدر ما كانت تتحكم فيه الضوابط التجارية والمالية. فقد كان يجب تركيز نقط استخلاص حقوق الديوانة، للحد من عملية التهريب والانفلات من الضرائب الجمركية. ولم يلبث البند الذي ينص على ضرورة مزاولة التجار لنشاطهم في الموانئ التي تتواجد بها الديوانة المغربية، أن أصبح البند الأول في كل الاتفاقيات التجارية المغربية الأوربية. فما هي تلك الحقوق التي كانت تجيبها الديوانة المغربية على سلع التجار المسيحيين؟

نشير في البداية إلى أن عمليات البيع والشراء كانت تتمّ داخل الديوانة وتحت إشرافها؛ سواء عن طريق البيع بالمزاد العلني، وذلك بمساعدة دلال تعينه الدولة المعنية وبحضور مفتشين وشهود[248] ، أو تتم بدون مزاد علني. والعمليتان كانتا خاضعتين لرقابة الديوانة، وهي المسؤولة عنهما. أما العمليات

---

246 - تراجع المرينيون عن هذه الضمانة في معاهدتهم مع جمهورية بيزة لسنة 1359/759 إذ ينص أحد بنودها على أنه «إن وقعت من واحد منهم [تجار بيزة] خيانة للمسلمين أو غدر في نفس أو مال فيثقف جميع من يكون ببلادنا، حرسها الله تعالى، من تجارهم، ويكونون محوطين محفوظين في نفوسهم وأموالهم إلى أن يقع الخلاص في ذلك، ويحصل الإنصاف منهم». انظر نص المعاهدة في Amari (M), *I Diplomi Arabi del R. Archivio fiorintino*, Florence, 1863. Appendice Alla prima Serie. P. 7.

247 - انظر Mas-Latrie, op. cit., 84-115

على أن اتفاقية 580/ 1184 بين الموحدين وجمهورية بيزة لم تسمح لتجار هذه الجمهورية بارتياد سوى أربعة موانئ مغاربية وهي : سبتة، وهران، بجاية وتونس.

248 - في الوثائق اللاتينية تسمى عملية البيع بالمزاد العلني *La Galiga* أو *Calga* وهي مشتقة كما هو واضح من «الحلقة». Mas-Latrie, op. cit. 193.

التجارية التي كانت تتم خارج الديوانة (في الفندق مثلاً)، فإن الديوانة لم تكن مسؤولة في حالة وقوع سوء تفاهم بين التجار. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن يصل إلى الفندق من السلع إلا ما تمّ وزنه، ومراقبته، وقياسه، وكيْله، واستخلاص ضرائبه من طرف سلطات الديوانة المغربية.

ويمكن التمييز بين نوعين من واجبات الديوانة، نجدها في جميع موانئ بلاد المغرب المفتوحة للتجارة المسيحية : الواجبات الرئيسية، والواجبات الثانوية، (أو الإضافية).

أ- الواجبات الرئيسية

كانت هذه الواجبات تُجْبى على الصادرات والواردات. ولقد كانت الرسوم الضريبية المفروضة على المستوردات الأوربية تحدد بصفة عامة في 10% من قيمة السلعة. ولقد أصبحت هذه النسبة، أي العُشر، عُرفاً، حتى أنه لم يعد يتم التنصيص عليه في المعاهدات[249]. ولم تحد عن هذه القاعدة سوى مقتضيات اتفاقية السلم والتجارة المبرمة بين الموحدين وجمهورية جنوة سنة 1160/555 م، إذ تم تخفيض العشر إلى 8 % فقط في جميع بلاد المغرب، باستثناء مدينة بجاية حيث تم الاحتفاظ بالعُشر. لكن حتى في هذه الحالة، كان رُبع مداخيل ديوانة المدينة يذهب رأساً إلى جمهورية جنوة. وسرعا ما تمت العودة إلى قاعدة 10 % ، وأصبحت سارية المفعول على التجار الجنويين.

---

249 - في الوثائق اللاتينية تسمى هذه الضريبة في بعض الأحيان «**الواجب**» *Drictum*. وفي بعض اتفاقية السلم والتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة لسنة 1186/582، تم التنصيص على أن البيزيين «عليهم أن يؤدوا ما جرت العادة بأخذه منهم من العشر على العادات المعروفة والشرائط المعلومة». انظر Amari, 399

على أن هذه القاعدة العامة لم تكن تنطبق على جميع السلع. فقد كانت هناك إعفاءات تامة تخص مثلاً المجوهرات، والأحجار الكريمة، والحلي، التي تُباع رأساً إلى القصر[250]، أو تُشترى لصالحه في الديوانة مباشرة. كما أن الذهب والفضة التي تباع للسلطان في الديوانة، أو التي تباع لدار السكة، كانت معفاة من الضرائب؛ كذلك أعفيت السفن التي تباع للمغاربة أو لحلفائهم، وجميع المبيعات التي تتم بين نصراني وآخر. كما أعفيت الحبوب من واجبات الديوانة.

أما **نصف الإعفاءات**، فكان يستفيد منها الذهب والفضة غير المسكوكين، والمجوهرات والحلي بصفة عامة التي لم تكن تؤدي للديوانة سوى 5 % فقط.

وفيما يخص ضرائب السلع المصدرة من بلاد المغرب فإنها كانت تحدد في 5 % من قيمة السلعة. وهذه النسبة كانت مبدئياً تؤدى على جميع أنواع السلع، وفي الواقع كانت هذه الضريبة تخضع للكثير من الاستثناءات الرامية إلى تشجيع التجارة. فقد كانت تعفى الصادرات من الرسوم الجمركية كلية حتى تتساوى قيمتها مع قيمة الواردات. كما كان يتم إعفاء السلع الغذائية الخاصة بتموين البحارة. أضف إلى هذا أن كراء سفينة مسيحية في ميناء مغربي كان يعطي لصاحب السفينة الحق في تصدير قيمة سلعية معفاة من الضرائب تساوي قيمة كراء السفينة.

250 - تجدر الإشارة إلى أن اتفاقية السلم والتجارة المبرمة بين السلطان أبي عنان المريني وجمهورية بيزة سنة 1359/759 م لا تقصر هذه الإعفاءات على السلع المشار إليها في المتن فقط، وإنما تسحبها على جميع السلع. فالبند الثامن من الاتفاقية ينص على أنه «إن ساق أحد من تجارهم برسم الباب العالي أسماه الله تعالى فلا يكون لأحد سبيل إلى حلها ولا نظرها حتى يبلغ الباب العالي [...] فإن اشتريت منه بالباب العالي فلا يغرم عليها شيئاً، وإن لم تشتر فيغرم عليها الغرم المعتاد». انظر: Amari, I *Diplomi*, Appendice, p. 4

ب- الواجبات الإضافية

أما فيما يخص الضرائب الإضافية (أو الثانوية) فقد كانت طبيعتها غير محددة بدقة، وغالباً ما كانت تخضع للعرف، ويجهل عددها بالضبط. وحسبنا أن "ماس لاطري" قد أحصى إحدى عشر ضريبة إضافية، تتراوح قيمتها ما بين 0.25 % و5 % من قيمة السلعة، وترجع كلها إلى واجبات الرسو، والإقلاع، وواجبات الخزن، والوزن، وأجرة عمال وموظفي الديوانة[251].

فالمترجمون الرسميون كانت أجرتهم تصل إلى 0.5 % من قيمة السلعة. أما الواجبات الإضافية الأخرى فلم يكن مقدارها محدداً في الاتفاقيات، ونجد من بينها :

- ضريبة الرطل *Rotl* التي كانت تؤدى على وزن البضائع.

- ضريبة البراءة *Albara* التي كانت عبارة عن إيصال من السلطات المغربية بالديوانة يشهد للتاجر المسيحي بأنه قد أدى الواجبات الجمركية.

- ضريبة يطلق عليها اسم "منغونة" *Mangona*، وكانت تجبى بصفة خاصة في أسفي وأنفا وسبتة[252].

- ضريبة الانطلاقة *Intalaca* التي كانت تؤدى عند الخروج من الميناء، وبمقتضاها كان للتاجر الحق في "حمل سلعته إلى أين يشاء بمناطق المملكة، دون أن يؤدي ضريبة أخرى عنها"، ما عدا بمراكش ومكناس وفاس والرباط،

---

251 - Mas-Latrie, 198-208 إن الاتفاقية البيزية المغربية لسنة 1359 م تشترط على سفن بيزة أن «تعطي سرياقاً أو مخطافاً من الحديد في كل مرة تصل بالتجارة إلى المغرب» Amari, p. 7

252 - Pegolotti (B.), *La pratica della mercatura*, op. cit., p. 275.

حيث وجب عليه دفع الضرائب المعتادة الأخرى[253]، وهذا الاستثناء هو الذي يميز ضريبة الانطلاقة عن ضريبة البراءة التي كانت تخول للتاجر إعفاء تاما من دفع ضرائب أخرى، بكل مناطق الدولة المرينية، بدون استثناء. وكانت ضريبة الانطلاقة تصل إلى 1.5 % من قيمة السلعة بآنفا[254]، لكنها ترتفع إلى 5 % بمدينة سبتة[255].

إن ديوانة سبتة كانت تجبي - كباقي الديوانات المغاربية - ما بين 17 % و18 % على سلع التجار المسيحيين، عيناً ونقداً. وأغلب هذه الواجبات كان يعود إلى الديوانة رأساً، والبقية تذهب إلى العاملين والموظفين بها وبالميناء.

ويمكن **القول إن الديوانة كانت هي المؤسسة المركزية في العلاقات التجارية المغربية الأوربية**. إنها الواسطة بين التجار المسيحيين والمغاربة والسلطة المحلية. لقد كانت تمثل، بحق، الحلقة الأساسية في سلسلة الإدارة المالية للدولة المغربية، والمراقبة عن قرب، والمنظمة بدقة.

وتجمع الدراسات الحديثة[256] على أن التجارة البحرية وضرائبها كانت حيوية بالنسبة للجهاز المخزني، المستفيد الأول من تلك الضرائب. لقد كانت هذه التجارة تساعد على تقوية الجانب المالي للمخزن واستقلاليته عن طريق تزويده بمداخيل شبه قارة، عكس الضرائب المستخلصة من القبائل، أو من

Idem, p. 276.- 253

254 - نفسه.

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*, p. 524. - 255

Ch. E. Dufourcq, "Commerce du Magreb médiéval avec l'Europe chrétienne" - 256 op. cit., p. 169., Idem, *L'Espagne Catalane*, op. cit. 563; Dhina (A.), *Les Etats de l'Occident musulman aux XIIIe et XV siècles*, Alger, 1984,. p. 396.
Rosenberger (B.), "L'histoire économique du Maghreb", op. cit., 215-2

الإنتاج الفلاحي، الخاضع للتقلبات المناخية. كما كان يستفيد منها عن طريق ممارسة الاحتكار التجاري في بعض الأحيان[257]. مثلاً كانت تجارة قطلونيا بمفردها توفر للخزينة المرينية ما يقرب من ستة آلاف دينار في بضعة أشهر من السنة[258]. ونتوفر على معطى رقمي هام يوضح أهمية التجارة البحرية وضرائبها في الاقتصاد المغاربي : ففي القرن التاسع/ 15 م، كانت الجمارك الحفصية بمدينة تونس تحصل حوالي 170 ألف دينار سنوياً، **وهو ما يقارب ثلث مداخيل الدولة الحفصية**[259].

أما بالنسبة لديوانة سبتة، فإننا لا نتوفر على أي معطى إحصائي حول مداخيلها، باستثناء تلك الإشارة الوحيدة المتعلقة بمداخيل الخزينة الموحدية على عهد أبي يعقوب الموحدي، تفيد بأن سبتة كانت من المناطق المغاربية التي تقدم مداخيل هائلة لخزينة الدولة[260]. ويجب انتظار عهد السلطان أبي سعيد المريني (توفي سنة 731 هـ/ 1331 م) ليزودنا العمري بأول رقم حول مداخيل المدينة. فحسب شهادة هذا الأخير، كانت سبتة تؤدي ما قدره 50 ألف مثقال، وراء كل من فاس ومراكش بـ150 ألف، ومكناس بـ60 ألف، وسجلماسة ودرعة بـ150 ألف[261]. ونحن لا نعرف إن كانت هذه المقادير تتعلق بجباية المدينة وحدها، أو بالمدينة و"أعمالها". ولكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تلك المقادير لم تكن تشمل مداخيل الضرائب على الماشية، ولا تلك المضروبة على غلات المجاشر

---

257 - بالإضافة إلى تلميحات **مقدمة** ابن خلدون إلى هذه الظاهرة، فإن وثائق أرشيفات قطلونيا تؤكد احتكار السلطة المرينية لتصدير القمح خلال القرن 14. انظر:

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*.. 359.

258 - نفسه، 563.

259 - Brunschvig R., *La Berbérie orientale sans les Hafsides*, t.2, Paris, 1947, p 243

260 - المراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق العريان والعلمي، ط 1، 1949، ص 255.

261 - العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ص 123- 124.

والحصون والقلاع، كما لا تندرج فيها الجزية والأعشار[262]، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار كذلك ما يقره ابن البلد، محمد بن القاسم الأنصاري، من كون نواحي سبتة كانت "معفاة من الوظيف، ومحررة من المغرم"[263]، فإنه يمكن الجزم بأن غالبية مداخيل المدينة كانت تأتي عن طريق الرسوم الجمركية التي تستخلصها ديوانة المدينة. يكفي أن نذكر بهذا الصدد أن "أعشار الزيت" التي جبتها المدينة من "مستفادها بالديوان" سنة 1250 م، كانت كافية لوحدها لتسديد حوالي سبعين ألف دينار لمملكة قشتالة نظير تجديد معاهدة صلح بين الطرفين، برغم أن موارد سبتة الجبائية هذه السنة كانت قد "تقلصت، ونضبت وانقطعت أسباب مرافقه بانقطاع أسفار النصارى له"، حسبما يستشف من رسالة ديوانية من العهد العزفي[264].

والواقع أن مدينة سبتة كانت هي المنفذ الرئيسي لسلع المغرب على الواجهة المتوسطية، ومحط أغلب السلع المسيحية الموجهة لأسواق المغرب. فبفضل موقعها الجغرافي المتميز، ومكانتها الرئيسية داخل شبكة الطرق التجارية البحرية المتوسطية، ستتمكن لمدينة من احتكار غالبية التجارة الخارجية المغربية. **وتفيد وثائق الأرشيفات القطلانية مثلاً أن المدينة كانت تستقطب أكثر من ثلثيْ الاستثمارات القطلانية بالمغرب في مطلع القرن الثامن**/ 14 م، والتي قدرها "شارل أيمانويل دوفورك"، الباحث المختص، بـ200 ألف دينارا سنوياً[265]. إلا أن الجرد الدقيق الذي قام به مؤخراً "جورج جيهال" حول الاستثمارات الجنوية ببلاد المغرب خلال القرن السابع/ 13 م،

262 - نفسه، 123.
263 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 52.
264 - خلف الغافقي القبتوري، **رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي**، م.س.، ص 120-121
265 - Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane*. 555.

يظهر لنا بدقة مكانة سبتة في العلاقات التجارية المتوسطية[266]. فمن خلال الإحصائيات التي أوردها، يتبين لنا أن سبتة وبجاية وتونس كانت تمثل 98 % من العمليات التجارية والرساميل الجنوية المستثمرة ببلاد المغرب ما بين سنة 1155 م وسنة 1290 م (550- 689هـ). أما 2 % الباقية، فكانت تتوزع على مناطق أخرى غير واضحة، أطلق عليها أسماء غير مضبوطة مثل : "إفريقيا"، أو "بلاد البربر". ومن بين الموانئ المغاربية الثلاثة التي كانت تتركز بها تجارة جنوة، والتجارة المتوسطية بصفة عامة، يظهر أن سبتة كانت هي المركز التجاري الدولي الذي يحتل من بينها مكانة السبق. فعلى مجمل الفترة كانت الاستثمارات الجنوية بها تمثل 37.5 % من عدد العمليات التجارية، و42.3 % من الرساميل المستثمرة. بينما تأتي بجاية - رغم قربها الجغرافي من إيطاليا - في المرتبة الثانية بالنسبة لعدد العمليات (30.4 %)، أمام تونس (29.2 %). بل إن الإحصائيات تفند آراء بعض الباحثين التي تفترض تراجع دور سبتة التجاري بعد سنة647 هـ/ 1250 م. إن هذه الإحصائيات تفيد بأن سبتة كانت تمثل 26-27 % من مجموع وقيمة العمليات الجنوية في المغرب الكبير كله. وبذلك تكون جمهورية جنوة وحدها قد استثمرت ما يقرب من 45 ألف ليرة في سبتة خلال القرن السابع/ 13 م، وهو رقم ضخم يوضح بلا شك أهمية المقادير الضريبية التي كانت تستخلصها ديوانة المدينة.

ومن المؤكد الآن ان الديوانة كانت أهم مؤسسة حكومية بالمدينة. بل إن سبتة هي المدينة المغاربية الوحيدة التي كانت تتوفر على أربع هيئات مالية، تسمى "دار الإشراف"، ثلاث منها مرتبطة بالتجارة الخارجية وبالبحر. فهناك "دار الإشراف على عمالة الديوان"، وكانت توجد أمام فنادق التجار النصارى،

---

266 - G. Jehel, op. cit., 332.

و"دار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة"، و"دار الإشراف على سد الأمتعة وحلها"، و"دار الإشراف على البناء والنجارة وما يرجع إليها"[267]. إن وجود هذه الهيئات المالية الأربعة، ومكانة صاحب الديوانة المتميزة، قد أعطت للمدينة وضعية خاصة. فمداخيل الديوانة المرتفعة ستعطي الغلبة للإدارة المالية بالمدينة. فصاحب الديوانة كان يتمتع بصلاحيات واسعة. حتى أن البعض نعته بـ"ملك سبتة"[268]. واتخذ بعض مديري الديوانة مجالس تضاهي مجالس الأمراء بحاشيتها وبشعرائها[269]. بل إن رئيس ديوانة المدينة كانت له من الصلاحيات ما يلامس حتى مجال السياسة الخارجية. فرئيس الديوانة بسبتة كان يلعب في بعض الأحيان دور السفير المكلف بالعلاقات مع البلدان المسيحية. إن "ناصح"، رئيس ديوانة المدينة على عهد الخليفة الناصر الموحدي، هو الذي راسل حكومة جمهورية بيزة في موضوع تجديد اتفاقية مراكش[270]. كما تولى صاحب الديوانة حتى مهمة سك العملة بالمدينة[271]، وهو الأمر الذي يُرجح أنه لم يكن يخضع دائماً لصاحب الأشغال، أو مشرف المدينة[272]. بل إن الإدارة المالية للمدينة وأعمالها كانت تنضاف إلى مهمة إدارة الديوانة، وقد يتولاها شخص

267 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، م. س. 41-42.

268 - ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، ج. 2، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955، ص 316.

269 - رفع الأديب النحوي أبو عمران موسى الطرياني قصيدة مدحية إلى القائد أبي السرور «صاحب ديوان سبتة»، فأنعم عليه بذلك، «ثم أتبعه بتحف مما يكون في الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبتة»، المقري، أحمد، **نفح الطيب**، ج. 4، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1988، ص 131.

270 - Amari. op. cit, 46-53.

271 - عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي**، م. س. ص 278.

272 - عن هذه الوظيفة، انظر عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي**، 177-179.

واحد، كما هو الشأن بالنسبة لابن همشك التنملي، الذي تولى "أشغال سبتة براً وبحراً"، في عهد الناصر الموحدي[273].

وإذا كانت رئاسة الديوانة غالباً ما أسندت إلى الشخصيات الهامة في الدولة وإلى الأمراء وأفراد الأسرةِ الحاكمة، فإن الوظيفة ذاتها سيتولاها بسبتة بعض الموالي ذوي الخبرة في الشؤون المالية، مثل ناصح، "صاحب ديوان سبتة"، و"مملوك" الخليفة الموحدي الناصر[274]، كما تولاها كبار تجار المدينة وأغنيائها. لقد كانت الديوانة هي الخطوة الأولى والأساسية نحو تسلم السلطة بالمدينة. فأبو العباس اليانشتي كان "من كبار التجار وذوي المروءة واليسار"[275]، وقد "تدرج من كاتب في الديوان إلى أن ولي الديوان، وظهر وصار له حديث مع أصحاب الدولة"[276]. كما أن ابن خلاص، الذي خلفه على رأس سبتة، كان قد تولى نفس الوظيفة، وأصبح من كبار أغنياء المدينة بفضل شراكته التجارية مع تجار مرسيليا[277]. والواقع أن مقاليد المدينة كانت قد استقلت بيد كبار تجارها الذين كانوا "يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"[278].

---

273 - ابن سعيد (أبو حسن علي)، **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، ط 2، 1980، ص 98.

274 - التجاني، **رحلة التجاني**، م. س، 1957، ص 359.

275 - ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**. قسم الموحدين، بيروت 1985، ص 294.

276 - الصفدي (صلاح الدين)، **الوافي بالوفيات**، الجزء 7، ط 2 باعتناء إحسان عباس، 1981، ص 290

277 - Cherif (M.), *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, op.cit., 1995.

278 - ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط. 2 الجزائر، 1982، ص 139.

خلاصة مؤقتة

التجارة الخارجية والاستقلال الذاتي: أية علاقة؟

إذا كانت الدراسات الحديثة تؤكد أن التجارة البحرية وضرائبها قد وفرت مداخيل قارة ومضمونة للسلاطين، وتعتبرها من أبرز علامات الازدهار الاقتصادي لمغرب العصر الوسيط، فإن هذه الأهمية لا يجب أن تحجب عنا أن التجارة البحرية، المختلفة عن التجارة الصحراوية "في اتجاهها، وتنظيمها، وموادها، وجنس أصحابها"، لم تكن "تفيد إلا الأمير وبطانته"[279]، خصوصاً في فترات الاضطراب السياسي. وإذا سلمنا بأنها كانت موجهة للتصدير أكثر منها للإيراد، وأن الميزان التجاري كان في صالح المغرب بصفة عامة[280]، فإن المداخيل السهلة التي كانت توفرها للسلاطين وحاشيتهم لم تساهم في الدفع بالقوى الإنتاجية الداخلية للتطور. هذا ما أصبح جزءاً من معطيات البحث التاريخي المغربي، وأشار إليه باحثون كثر[281]. لكن التجارة البحرية كانت من العوامل الهامة التي شجعت ظاهرة الاستقلالات السياسية إبان ضعف السلطة

---

279 - عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، 2، الدار البيضاء، 1994، ص 166-167.

280 - والواقع أن هذا الميزان لم يكن دائماً لصالح بلاد المغرب. ولقد تفطن السلطان العبدلوادي، أبو حمو، إلى عدم تكافؤ الميزان التجاري بين بلده والبلدان الأوربية. وكان يفكر في الإبقاء على التجار المتعاملين مع السودان فقط، لأن «من سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء إلى المفاسد»، **نفح الطيب**، 206/5.

281 - إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، ترجمة ميشال سليمان، بيروت، ط. 2، 1978، ص 22.

Kably (M.), *Sociét,é pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986,p. 96.

Vidiasion (Maria F.), "Le Maghreb médiéval: "mercantilisme parasitaire" ou société productrice", *Anaquel de Estudios árabes*, N°3, 1993, pp. 241-246.

المركزية. بل إننا نلاحظ أن هناك توافقاً تاماً بين نمو التجارة البحرية وتغلغلها بسبتة، وتعميق ظاهرة الحكم الذاتي بالمدينة[282].

فالازدهار التجاري للمدينة الذي تتحدث عنه النصوص العربية، وتُدعمه إحصائيات الوثائق اللاتينية، وهو الازدهار الذي يمتد على طول القرن السابع/ 13 م، قد تزامن مع انفلات قبضة السلطة المركزية عن سبتة، وظهور "منتزين" ورؤساء مستقلين، وعلى رأسهم رؤساء ديوانة المدينة. فأبو العباس اليانشتي أعلن استقلاله بالمدينة وتلقب بالموفق، واستمر على رأس سبتة ما بين سنة630 و 633 هـ/ 1233 - 1236 م. وابن خلاص رئيس الديوانة الآخر نحى نفس المنحى؛ إذ انتزى بالمدينة ما بين635 و 639 هـ/ 1238 م و1242م. أما بنو العزفي الذين استقلوا بالمدينة وحكموها بطريقة وراثية لمدة تزيد عن سبعين سنة (ابتداء من سنة647 هـ/ 1250 م)، فإنهم ارتبطوا بالتجارة البحرية ارتباطاً عضوياً، وكانوا شركاء للتجار القطلانيين[283]. بل إنهم دافعوا عن مبدأ التعايش السلمي المبني على التعامل التجاري مع العالم المسيحي[284]. ولم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي إلا بفضل القاعدة المادية (أو العسكرية) التي وفرتها لهم التجارة البحرية وضرائبها[285].

إن ظاهرة الاستقلال الذاتي نجدها كذلك بالمناطق المرتبطة بالتجارة البحرية من ساحل المغرب الأوسط، حيث ظهرت "مدن مستقلة" بمنطقة مليانة مثل : شرشل، والجزائر، وبرشك[286]، وكذلك بإفريقية حيث برزت "سلطنات" مستقلة،

---

282 - Cherif M., "Taxes maritimes et autonomie politique à Ceuta", *Revue de la Faculté des Lettre de Tétouan*, VII, 1995.

283 - Dufourcq (Ch. E.), *L'Espagne catalane*, 57. Cherif M., *Ceuta*. op. cit.

284 - خلف الغافقي القبتوري، **رسائل ديوانية**، م. س. 118-120.

285 - Cherif M., *Ceuta*. op. cit.

286 - Ch. E. Dufourcq , *L'Espagne catalane*, 268. 452. 476. 563.

كبجاية، والمهدية، وتونس؛ وهي السلطنات التي شجعتها الدول الأوربية بالدعم المادي الذي كانت توفره لها عن طريق التجارة[287]. لقد كتب "دوفورك" بخصوص هذا الترابط بين الانتزاء والتجارة البحرية قائلاً : "عندما يكون 'سيد' سبتة أو 'سيد' برشك أو 'سيد' الجزائر مستقلا فعلياً إن لم يكن قانونياً، وعندما يصبح منتز عبد الوادي سلطاناً بمليانة أو بشرشل، فإنه يكون مستعداً دائماً للتفاهم مع الأوربيين الذين يكون منافسوهم على علاقة حسنة مع خصمه الرئيسي"[288]، بل إن زعماء المناطق المستقلة كانوا - كزعماء سبتة - من كبار التجار[289].

إن التاريخ السياسي لمدينة سبتة يقدم مثالاً واضحاً عن توافق التغلغل التجاري البحري المسيحي وسيرورة ظاهرة الاستقلال عن السلطة المركزية، ليس فقط عند ضعف هذه الأخيرة، وإنما حتى في فترات قوتها، كما تشهد بذلك تجربة بني العزفي، الذين حافظوا على استقلالهم الذاتي رغم محاولات المرينيين المتكررة لإخضاعهم، ولو عن طريق اللجوء إلى طلب مساندة القوى البحرية القطلانية في بعض الأحيان. إن ما افترضه الأستاذ عبد الله العروي في معرض مقارنته بين التجارة الصحراوية والتجارة البحرية من كون "الأولى توحد، في حين أن الثانية تمزق المجتمع إن كان في حالة ضعف وانحطاط"[290]، قد يجد إثباته في الدراسة المعمقة لتاريخ المدن المغاربية الساحلية؛ وهي المدن التي قد يفصح تاريخها السياسي عن نفس الظاهرة التي لمسناها في التاريخ السياسي لمدينة سبتة. وهذا الموضوع ما يزال مفتوحاً أمام الباحثين الذين عليهم أن يتوفروا على معرفة كافية باللغة اللاتينية لاستنطاق وثائقها حول هذه الظاهرة.

---

287 - انظر Dhina, op. cit., 267-283 (وهو لا يربط ظاهرة الاستقلالات بالتجارة البحرية)

288 - Ch. E. Dufourcq , *L'Espagne catalane*, 452.

289 - Idem, 367.

290 - Laroui A., *L'histoire du Maghreb*, I, Paris, 1970, p. 201.

المبحث الثاني :

السكان والبنية الاجتماعية

أولا : عناصر السكان

1 - المسلمون

إن أول من سكن سبتة، حسب التقليد الذي كان سائداً بالمدينة حتى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، هم بربر ينحدرون من سبط ابن نوح الذي نزل سبتة بعد الطوفان[291]. إلا أن المدينة سيعمرها أفراد قبيلة غمارة التي تقع سبتة ضمن مجالها الجغرافي. وفي بداية القرن الثاني/ الثامن الميلادي، عرفت المدينة وصول الموجة العربية الأولى إليها، والمُشكّلة أساساً من جحافل الجنود العرب الفاتحين. ولكن مع ثورة الخوارج بزعامة ميْسرة، سيقوم بربر طنجة بمهاجمة المدينة، وطرد العرب منها وتخريبها، و"بقيت خراباً يعمرها الوحش مدة"،[292] حتى أعاد إعمارها ماجكس، أحد زعماء البربر. ونجح ابنه، عصام الغماري، في إنشاء إمارة بها، حملت اسمه، واستمرت حتى القرن الرابع/ العاشر الميلادي. وعرفت المدينة تحت حكم هذه الدويلة، وفود هجرة عربية ثانية، شكلتها عناصر قبيلة قلشانة من منطقة شريش بالأندلس، الذين أجبرتهم المجاعة و"أيام المحل" على مغادرة الجزيرة، والتوجه نحو سبتة، حيث ساهموا في إعادة تعميرها، ببناء منازلهم على المساحات التي اشتروها من بربر المدينة.

---

291 - **أزهار الرياض**، ج 1، 29-30 (نقلاً عن الحجاري).

292 - البكري، 204؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج 1، 203؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، 211.

ويبدو أن البكري يشير إلى هذه التركيبة السكانية عندما يخبرنا في القرن الخامس/ 11 م بأن سكان سبتة يتشكلون من العرب والبربر؛ " فعربها تنسب إلى صدف، وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة"[293].

وعرفت المدينة وصول عناصر أخرى ساهمت في تزايد عدد سكانها، فالعناصر الأندلسية هي التي شكلت العنصر الإثني الأكثر أهمية، والذي كان له تأثير كبير في تطور المدينة على جميع الأصعدة. وإذا كانت الاتصالات البشرية لم تنقطع تاريخياً بين العدوتيْن[294]، فإن وتيرة الهجرة الأندلسية إلى سبتة قد عرفت تسارعاً كبيراً نتيجة لحركة الاسترداد المسيحية، وخصوصاً بعد سقوط المراكز الحضرية الأندلسية المهمة، كبلنسية وقرطبة وإشبيلية، في النصف الأول من القرن السابع/ 13 م. لقد أدت حركة الاسترداد إلى جلاء عدد كبير من المسلمين الذين لم يكونوا يتصورون البقاء على أرض أندلسية أصبحت بيد النصارى. فبعد سقوط إشبيلية مثلاً، عرفت سبتة وصول موجة كبيرة من المهاجرين الإشبيليين، قدرها المؤرخ البرتغالي "ماسكارينة" - الذي عاش في بداية القرن العاشر/ 16 - بمائة ألف نسمة[295]. وعلى الرغم من طابع المبالغة في تقديره، فإنه يؤشر مع ذلك على أهمية سبتة كمركز لاستقبال

---

293 - البكري، 204. لكن تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من التفاخر بالأصول العربية (انظر مثلا ابن خميس، (شارك في تأليفه) **أعلام مالقة**، مخطوط خاص، ورقة 14) فإن «التضامن المديني» هو الذي كان له دور كبير في العلاقات الاجتماعية بالمدينة وليست العصبية القبلية.

294 - Romero C., *Emigradores andalusies al Norte de Africa y al Oriente Medio, siglos VIII-XV*, Tesis doctoral, Granada, 1989.

295 - Mascarenhas G. De, *Historia de la ciudad de Ceuta*, Ed. Dornellas. Lisbonne, 1918, p. 58

وانظر كذلك :

Valencia. R., "La emigración sevillana a través de Ceuta en la alta Edad Media, *Actas del Congreso Internacional del Estrecha de Gibraltar*, II, 1988, pp. 221-230.

الأندلسيين النازحين عن ديارهم، خصوصاً وأنها كانت الميناء الأول في طريقهم إلى الحواضر المغربية والمغاربية الأخرى. ومن المستحيل معرفة الأهمية العددية للعنصر الأندلسي الذي استقر بسبتة مؤقتاً، أو بصفة دائمة. فكتب التراجم، على أهميتها، لا تكفي وحدها لإعطاء تقديرات عددية عن الأندلسيين المهاجرين في فترة من الفترات التاريخية نحو بلاد المغرب.

لا شيء يؤكد لنا أن هؤلاء الأندلسيين شكلوا مجموعة متميزة، أو سكنوا أحياء خاصة بهم، أو أعطيت لهم امتيازات رسمية معينة، كما كان شأنهم في تونس الحفصية مثلاً، والتي توافدوا عليها بكثرة كذلك[296]. فالقادمون الجدد لم يكونوا يختلفون عن السبتيين، لا في اللغة، ولا في اللباس، ولا في التقاليد الغذائية، ولا حتى في الأعراف. لقد كانوا قريبين جداً من السبتيين، واندماجهم في المجتمع السبتي لم يكن يطرح أية صعوبة. إذ كانت المدينة قد عرفت التأثيرات الأندلسية منذ زمن بعيد، وكانت على المستوى الحضاري العام، قريبة جداً إلى المدن الأندلسية الأخرى.

إن مصادرنا تلقي الأضواء على النشاط العلمي لهؤلاء الأندلسيين، وتظهر دورهم الكبير في تنشيط الحركة العلمية بسبتة، وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية بها[297]. كما تبرز بوضوح كيف كانوا قد شكلوا مجالس أمرائها الذين كانوا هم أنفسهم أندلسيين، مثل اليانشتي وابن خلاص. ومع ذلك فمن المؤكد أن هؤلاء الأندلسيين قد زاولوا الحرف اليدوية، واشتغلوا بالتجارة[298].

---

296 - Brunschvig, *La Berbérie Orientale sous les Hafsides*, op.cit., II, , p. 155.

297 - Daroua M., *Les oulemas andalous au Maroc aux époques almoravide et almohade*, Thèse de 3e cycle, Paris 1, 1988.

298 - تجدر الإشارة إلى أن أهمية العنصر الأندلسي لم تغب عن بال المعاصرين. وشهادة ابن غالب واضحة في هذا الموضوع، رغم طابع «المنافرة بين العدوتين» التي يطبعها،

بالنسبة لباقي البلاد الإسلامية، كان للتيار القادم من المغرب الأوسط (وخاصة من تلمسان)، ومن إفريقية تأثيراً اجتماعياً معيناً، في حين يكاد يكون أثر تيار الهجرة المشرقية منعدماً بالمدينة[299]. بل على العكس من ذلك، ساهم السبتيون المتوجهون إلى الشرق للحج، أو للدراسة، أو للتجارة في تزايد عدد المغاربة في المدن المشرقية. وأخيراً لم يلعب الزنوج القادمون والمستَقدَمون من السودان إلا دوراً محدوداً في تشكيل التركيبة السكانية السبتية.

2 - اليهود

لا نتوفر إلا على معلومات هزيلة بخصوص تاريخ اليهود بمدينة سبتة. فبعض الباحثين يذهب إلى أن استقرارهم بالمدينة يعود إلى أزمنة بعيدة، وأن سبتة كانت "المركز الرئيسي للعلاقات بين اليهود الإسبانيين واليهود الفلسطينيين - الرومانيين من جهة، وبين القبائل الداخلية شبه البربرية من جهة

يقول: «لما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخرة المبيرة، تفرقوا بلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية. فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم وعمت خيراتهم... وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة. ولا يُستعمل بلدي ما وجد أندلسي. وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعاً لهم، ومتصرفين بين أيديهم»، المقري، أحمد، **نفح الطيب**، الجزء الثالث، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 152.

299 - من الإشارات النادرة التي وقفنا عليها بهذا الصدد إشارة في نوازل القاضي عياض إلى "رجل من أهل الشرق المستوطنين عندنا"، **مذاهب الحكام** ص 230

أخرى"[300]؛ وأن اليهود السبتيين قد اعتبروا دائماً مدينة سبتة "إحدى أقدم مدن العالم اليهودي"[301].

ويظهر أن هذا التواجد اليهودي القديم لم يستمر، لأسباب مجهولة[302]، لأن أول الإشارات التاريخية المؤكدة[303] عن الحضور اليهودي بسبتة تعود إلى نهاية القرن الخامس/11م فقط؛ ونجدها في الاستفسار الفقهي الموجه إلى يوسف بن مكاش[304]، وفي وثائق الجنيزة[305]. أما خلال القرن السادس الهجري/ 12م، فقد أصبحت الجالية اليهودية في سبتة واحدة من أكبر وأقوى الجاليات اليهودية بالغرب الإسلامي[306].

---

300 - Slouschz, "Histoire des Juifs du Maroc", *Archives Marocaines*, 1906, p. 408.

301 - نفسه، 399.؛ ويرجع الباحث الإسباني غوزالبيس غرابيوطو هذا الادعاء إلى كون " يهود سبتة، مثلهم مثل باقي يهود الغرب المسيحيي، حاولوا التخلص من تهمة أنهم ينحدرون من فلسطين، بالتأكيد على أن أجدادهم استوطنوا هذه المدينة قبل وفاة المسيح، وهذا ما وجدناه- يقول الباحث الإسباني- على سبيل المثال عند الجماعة اليهودية بطليطلة التي عثر بها على رسالة قديمة تقول أن يهود طليطلة طلبوا من يهود فلسطين العفو عن شخص المسيح عليه السلام. ليس هناك شك أن نصوصا من هذا القبيل عرفت رواجا في أماكن متعددة، لأنها ستعمل على تخليص أجدادهم من تهمة قتل المسيح، ووجدنا ذلك لدى يهود إسبانيا والبرتغال والمغرب. وبهذه المعتقدات كانوا يحاولون التصدي للانتقادات التي يوجهها لهم المسيحيون والمسلمون الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن هذه الأراضي". Gosalbes Cravioto E., *Notas para la historia de los Judios en Ceuta*, Ceuta, 1989,p. 7 (وقد أعددنا ترجمة عربية لهذا الكتاب ستصدر مستقبلا)

302 - قد يكون احتلال البيزنطيين لسبتة سنة 636 م قضي على اليهودية، إذا كان لها فعلا أي وجود بسبتة (Gosalbes Cravioto, E., *Los Bizantinos en Ceuta (siglos VI-VII)* Ceuta, 1986)

303 - حسب «سلوش» (ص 78 والذي لا يقدم أي دليل مصدري) تواجدت مدارس عبرية منذ القرن العاشر الميلادي بسبتة.

304 - Chouraqi A., *Histoire des Juifs en Afrique du Nord*, Paris,1985, p. 158.

305 - حوالي سنة 1100 سمح أبراهام، أحد اليهود ليهودي آخر بمصاحبته في سفرية تجارية إلى سبتة. Goitien., *A Mediterranean Society, The Jewish Communites in the Arab Word.*, Berkly, Los Angeles... 1967. II. 307 (ومن سبتة سترسل نسخة من سأروخ «إلى تاجر في الفسطاط» (نفسه، ج 1، ص 64).

306 - Gosalbes Cravioto E., *Notas,* op. cit., p. 21

ومن المؤكد أن تكوين هذه الجالية اليهودية بالمدينة وأهميتها قد أربطها بنشاطها التجاري، وبالعلاقات التي نسجتها مع الجاليات اليهودية الأخرى بحوض البحر الأبيض المتوسط. فقد كانت العلاقات التي تربط يهود المدينة بأبناء ديانتهم في مختلف بلدان الحوض المتوسطي تسهل العلاقات التجارية إلى حد كبير. إن تجانس الجالية اليهودية المتوسطية ودورها في سيولة الحركة التجارية والرساميل وتوزيع السلع، ليس بحاجة إلى توضيح. فهناك دراسات متخصصة عديدة أوضحت أهمية العنصر اليهودي في شبكة التجارة العالمية في العصر الوسيط. "فبفضل حركيته، ووضعيته القانونية غير الثابتة، وقدرته الكبيرة على التكيف، وبفضل موقعه على حدود الثقافات الغربية والشرقية، سيساهم العنصر اليهودي بسرية إن قليلاً أو كثيراً، في خلق شبكات من العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية بين أوربا وإفريقيا الصحراوية، عن طريق سبتة أو تلمسان أو تونس"[307]. ونعرف مثلاً اليهود السبتيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع الجاليات اليهودية المصرية، والقطلانية، والمرسيلية، والجنوية[308].

بالإضافة إلى التجار والحرفيين، وُجد بين يهود سبتة علماء في القانون التلموذي، وفي اللغة العربية وفي الطب. فنحن نعلم وجود طبيب يهودي إسمه " يوسف السبتي" كان صديقا حميما لابن ميمون، وكان يعتبر نفسه تلميذا له[309]. وتلقي المصادر العبرانية الأضواء على المكانة الثقافية لليهود بسبتة خلال القرن السادس/ 12 م. فأحد يهود المدينة الذي كان يشتغل صائغاً كتب في

307 - Jehel G., *Les Génois en Méditerranée occidentale*, op. cit., 210.

308 - Amran Cohen R., *Ceuta y el mundo cristiano mediterráneo durante los siglos XII y XIII*, Ceuta, 1986, p. 19.

309 - Lerido, A.I., *Les noms des juifs au Maroc. Essaie d'onomastique judéomarocaine*, Madrid, 1978, p. 378

آخر أيامه، بعد فشله في حرفته، "طلب مساعدة بالعبرية وبالعربية، بأسلوب جيد وخط جميل، يشهدان على تمكنه من اللغتيْن"[310]. وقد ظل هذا اليهودي يعتبر نفسه مغربياً بعد أن عاش بمصر أكثر من سبعة عشر سنة[311]. وشهدت سبتة في سنة 1179م سجالا دينيا بين أحد التجار الجنْويين، واسمه Guclielme Alfaquino الذي كان يتردد باستمرار على مدينة سبتة، مع الربّي اليهودي بها، وإسمه موسى أبْراين "Moïses Abrayn"[312]. كما وصلنا نص آخر حول مجادلة دينية بين أحد السبتيين، وإسمه أبو طالب، ويهودي إسمه صامويل، من طليطلة، وذلك سنة 1340م. ولقد ترجم نص هذه المجادلة، ألفونسو بونومي، أسقف المغرب، سنة 1350م[313]، مما يؤشر على أهمية سبتة كمركز للجدل الديني في العصر الوسيط.

وفي سبتة ولد، سنة555 هـ/ 1160 م، يوسف بن أقنين، الملقب بأبي الحجاج يوسف بن شمعون السبتي المغربي. وتلقى تعليمه بالمدرسة الجديدة التي بناها السلطان أبي الحسن المريني. لقد كان من أشهر تلامذة ابن ميمون، وإليه أهدى هذا الأخير كتابه "دلالة الحائرين"[314].

ويعتقد بعض الباحثين - دون تقديم حجة- أن يهود سبتة قد تجمعوا منذ القرن الخامس الهجري/ 11م بالمنطقة الشمالية للمدينة، عند سفح جبل المينا

---

310 - Chouraqi, op. cit 158.

311 - Goitien, *A Mediterranean Society*, I, 63.

312 - Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 29

313 - A. Lopez, *Obespos en el Africa septentrional desde el siglo XIII*, Tanger, 1941, p. 77 والجدير بالذكر أن هذه المجادلة التي تمت بين مسلم ويهودي تخلص إلى أن الدين الحق هو الدين المسيحي. ولذلك شكك الباحثون في حقيقة هذا الجدل الديني. انظر : Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p.41

314 - توجد رسالة ابن ميمون إلى يوسف بن أقنين في كتاب «دلالة الحائرين» Maïmonide, *Guide des égarés*, éd. Verdier, Paris, 1979, p. 179-180

Hacho، نظرا لميلهم ورغبتهم في العيش بحرية في تجمعات سكنية بمناطق محددة، وأن حيا يهوديا خاصا قد وجد بسبتة منذ بداية سنة 1328م[315]، وأن العبريين سيتخلون منذ هذا التاريخ، عن منازلهم المتفرقة عبر المدينة للاستقرار والتجمع في منطقة بعيدة عن المسلمين[316].

والواقع أننا لم نقف على أية إشارة إلى المؤسسات اليهودية الخاصة، كالمقبرة أو الحيّ، التي كانت ستؤكد أهمية التواجد اليهودي بالمنطقة. فالأنصاري الذي أشار إلى فنادق النصارى، لم يشر إلى أي تواجد مادي لليهود. إنه يشير إلى ربض "الحارة" الذي حاول بعض الباحثين تشبيهه - دون دليل مقنع - بالملاح[317]. كما أن تأليف يهودي سبتي أعلن إسلامه لرسالة جدالية ضد اليهودية لا يمكنه أن يبرز أهمية ذلك الحضور اليهودي[318]؛ كما لا يمكن أن يبرزها مرسوم السلطان أبي الحسن المريني لسنة 739 هـ/ 1338 م الذي يحدد

---

315 - في شعبان من عام 726 هـ/1325م أمر السلطان أبي سعيد عثمان المريني ببناء حي خاص باليهود في مدينة فاس الجديدة (ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، الرباط، 1982، ص 414) ولعل غوزالبيس كرافيوطو أسقط هذا الأمر على سبتة.

316 - Gosalbes Cravioto E., *Notas,* op. cit., p. 38.

317 - Gosalbes Cravioto C., "La judiria y los judios en la Ceuta medieval", *Boletin de la Asociación Española de Oriontalistas,* XVIII, 1982, p. 268-269.

318 - أما الرسالة فقد كتبها عبد الحق الإسلامي وتحمل عنوان «**السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود**» (انظر محمد المنوني، **ورقات**، 219) وكذلك :

Perlmann M., "Abdal Haqq al Islami, a jewish convert", *Jewish Quaterly Review,* XXXI, 1940, pp. 171-191

كما عرفت المدينة جدلاً دينيا آخر حوالي سنة 1340 بين أبي طالب السبتي واليهودي صمويل الطليطلي. انظر:

Reinhardt Klaus, "Un musulman y un judio prueban la verdad de la fe cristiana: La disputa entre Abutalib de Ceuta y Samuel de Toledo". In, *Dialogo Filosofico-religioso entre cristianismo, judaismo e Islamo durante la Edad Media en la peninsula Iberica*, BREPOLS, 1994, pp. 191-212

المناطق التي يجب على اليهود أداء الضرائب بها، وعلى رأسها سبتة وما والاها من البلاد[319].

في سنة1391م دق ناقوس الخطر في إسبانيا معلنا انتهاء التعايش بين اليهود والمسيحيين، حيث عرفت هذه السنة هجوم المسيحيين على الأحياء اليهودية في كثير من المدن الإسبانية، وأرغم اليهود على اعتناق المسيحية، مما دفع بكثير منهم إلى الهجرة نحو بلاد المغرب. ويستند (سلوتش) على رواية يهودية ليؤكد لجوء يهود ميورقة إلى مدينة سبتة وتكوين جماعة منعزلة بها منذ هذا التاريخ[320]. لكن هذه الحادثة لا يمكن التسليم بها، لأن يهود ميورقة كانوا يمارسون التجارة في ميناء مدينة الزقاق منذ زمن بعيد. صحيح أن أكثرية يهود ميورقة الفارين من القمع المسيحي لسنة1391م، لجأوا إلى الجزائر وتونس والمدن المجاورة، كما توضح ذلك الوثائق التي نشرها الباحث (بونس)[321]. ومن المؤكد أن نسبة كبيرة من أولئك اليهود، وغيرهم من يهود المدن الأندلسية، قد توجهوا إلى مدن المغرب الأقصى، وعلى رأسها مدينة سبتة، نظرا لوجود جالية يهودية بها منذ زمن بعيد، وكذا لتوفر الأمن بالمدينة.

ومما له دلالة بهذا الصدد أن مؤرخا يهوديا (هو أبراهام زاكوطو) ربط احتلال البرتغاليين لسبتة، باستقبالها لجميع اليهود الذين فروا من مملكة قشتالة، وكانوا قد تحولوا مرغمين إلى الدين المسيحي، موضحا أن هذا الأمر قد

---

319 - المرسوم، يوجد بـ«**الدوحة المشتبكة**» لأبي الحسن علي المديوني، ص 179-180.

320 - N. Slousch, "Etude sur l'histoire des juifs au Maroc. II: Les juifs marocaines de l'invasion arabe à la persécution des almohades", *Archives Marocaines*, V, 1906, p. 156

321 - A. Pons, *Los judios del Reino de Mallorca durante los siglos XIII y XIV*, 2 tomos, Palma de Mallorca, 1984

استفز الملك البرتغالي جواو الأول وأغضبه، مما دفعه لاحتلال المدينة[322].
والمؤكد أنه عندما احتل البرتغاليون مدينة سبتة سنة1415م، وجدوا بها جالية يهودية مهمة، إلا أنها كانت تمر بأزمة اقتصادية، مرتبطة بأزمات المدينة في مطلع القرن التاسع هـ/15م. وتتحدث المصادر التاريخية عن فرار يهود المدينة إلى المناطق المجاورة عقب احتلالها، خوفا من البرتغاليين[323]. أما يهود البرتغال فقد كانوا من المؤيدين للاحتلال البرتغالي للمدينة، بل شاركوا في غزوها، وابتهجوا لسقوطها[324].

3 - الجالية النصرانية: التجارة والتبشير

بخصوص الإطار المؤسساتي للجالية المسيحية بسبتة، والشروط العامة لاستقرارها وأنشطتها، لم نعثر على ما يفيد بأنها كانت تختلف عن ظروف غيرها من الجاليات المسيحية بباقي مناطق المغرب في نفس الفترة. وإذا كانت المسيحية السابقة للعصر الإسلامي بالمغرب قد ظلت قائمة إلى حدود القرن السادس/ 12 م في مناطق المغرب الأوسط والأدنى(افريقية)، فإن المسيحية "الأهلية" السبتية قد اضمحلت بسرعة، على ما يعتقد. فالعناصر الفيزيقوطية القليلية التي تم استقدامها من الأندلس إلى المغرب في القرن الثاني/ 8 م عقب فتح العرب للأندلس، قد ذابت بسرعة داخل العناصر المحلية المغربية[325].

---

322 - انظر عن هذا المؤرخ : H.Z. Hirschberg, *A History of the Jews in North Africa*, 2th ed. t 1, Leiden 1974, p. 384
وعن الدوافع الموضوعية للاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة انظر كتابنا : **المغرب وحروب الاسترداد**، م. س.

323 - Gosalbes Cravioto E., *Notas*, op. cit., p. 46

324 - Carlos Gozalbes Cravioto, La juderia y los judios en la Ceuta medieval", *Boletín de la Asociación Española de Orientalistas*, año XVIII, 1982, p. 271; Slousch, op. cit, 156; Mascarenhas, *Historia de Ceuta*, op. cit., p. 108;

325 - Mesnage, *L'Afrique chrétienne*, 512. Koehler, *L'Eglise chrétienne de Maroc*, XIV

ونعرف أنه إلى حدود سنة270هـ/ 883 م، كان ما يزال يوجد بسبتة قسّ نصراني[326]. أما مستعربو مالقة الذين تم ترحيلهم على يد المرابطين إلى الشمال المغربي سنة499 هـ/ 1106 م، فيظهر أنه ليست لهم علاقة مع المسيحيين الذين سنلتقي بهم في سبتة ابتداء من القرن السادس/ 12 م. فهؤلاء ليس لهم أي قاسم مشترك مع المسيحية المحلية القديمة، سواء على مستوى الأصل، أو على مستوى الوضعية القانونية. إنهم مسيحيون قدموا إليها في تاريخ قريب، وبقوا "أجانب" في المدينة. إنهم التجار والعبيد (الأسرى) ورجال الدين الذين ارتبط تاريخ وجودهم ارتباطاً وثيقاً بتطور التجارة المتوسطية.

لقد كان التُجار المسيحيون يشكلون الجاليات التجارية. ووضعهم القانوني كان ينبني "على أساس تعاقدي محدد باتفاقيات لمدة زمنية معينة"[327]، عقدتها القوى المسيحية مع سلاطين الدولة، أو مع أمراء المدينة، لتسهيل العلاقات التجارية. إنها اتفاقيات متعلقة بشروط استقرار المسيحيين بأرض المغرب على المستوى القانوني، بحيث تحدد :

- المجالات والبنايات الخاصة وأماكن العبادة (مقتضيات وقوانين مرتبطة بمؤسسة الفنادق).

- شروط التنقل البري والبحري على المستوى التجاري.

- واجبات الديوانة عند الاستيراد والتصدير، وإجراءات منع التهريب والقرصنة.

---

326 - Mesnage, 511-512

327 - Cf. Brunschvig, *La Berbérie orientale*... op. cit., I. 432

لم يكن عدد التجار المسيحيين كبيراً جداً في أغلب الأحوال، وأغلبهم كان يستقر بصفة مؤقتة بسبتة حتى ينتهي من عمليات البيع والشراء. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود أدلة تثبت أن بعض التجار المسيحيين كانوا يستقرون لفترات طويلة بالمدينة، وبعضهم قد يكون استقر بها بصفة نهائية. فبعض الوثائق المتعلقة بمؤسسة "المعونة" *Mahona* الجنوية[328] التي أنشئت لتعويض المتضررين من الهجوم الذي شنته القبائل المجاورة لسبتة على السفن الجنوية بميناء المدينة سنة631 هـ/ 1234 م، تترك الانطباع أن هناك استقراراً دائماً للتجار الجنويين بالمدينة. ففي بداية القرن السابع/ 13 م تم استدعاء عدد كبير منهم للإدلاء بشهادتهم في مختلف القضايا بمدينة سافونة الإيطالية. وكان يجب إعطاؤهم مهلة ستة أشهر ليتمكنوا من القدوم من سبتة مكان إقامتهم. فهذه المدة الطويلة الممنوحة لهم، لا ترتبط بمدة السفر من سبتة إلى جنوة فقط، وإنما كانت ترمي كذلك إلى السماح للمستقرين بالمدينة من تسوية مختلف أوضاعهم، قبل القدوم إلى جنوة[329]. وهناك إشارات أخرى مباشرة عن هذا التواجد الدائم للتجار المسيحيين بالمدينة، مثل امتلاك الحوانيت والمنازل بالمدينة، وكرائها لبعضهم البعض[330].

إن هذا الاستقرار المسيحي بالمدينة يطرح المشكلة الشائكة لحضور المرأة في الوسط التجاري المسيحي. فالنصوص العربية واللاتينية تبقى صامتة بخصوص هذا الموضوع. ومن المرجح أن تكون بيوت للدعارة قد أقيمت في فنادق التجار النصارى. تدل على ذلك صيغة المنع الشديدة التي واجهت بها

---

328 - Di Tucci R., "Documenti inediti sulla spedizione e sulla mahona dei Genovesi a Ceuta", *Atti della Societa Ligure di Storia,* (Gênes),t. 44, 1935

329 - Jehel, *Les Genois*, 396

330 - Idem, 383-395

قوانين مرسيليا قضية الدعارة في فنادقها. فقد كان القنصل الفرنسي بسبتة يقسم بالإنجيل بعدم فتح بيوت للدعارة في الفندق الذي يشرف عليه. من جهة أخرى، لدينا إشارات إلى وجود دور مخصصة للدعارة بسبتة، كباقي المدن - الموانئ المتوسطية، ويبدو أن سلطات المدينة كانت تشرف عليها. وكانت توجد بهذه الدور أو الفنادق نساء عاهرات، عُرفن بالخرجيرات (أو خراجيات)[331].

لقد كان التجار المسيحيون يسكنون خارج المدينة، موزعين حسب جنسياتهم على مراكز سكناهم التي عرفت في جميع المناطق باسمها الإغريقي المعرّب : الفندق. لن نقف عند أصول هذه المؤسسة التي انتشرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. فالوثائق المتوفرة تسمح بتتبع جيد لتاريخها. ولا داعي لوصف هذه البناية الواسعة، نوعاً ما، والتي كانت عبارة عن مدينة يحوطها سور، وتتوسطها ساحة مركزية، وتحتوي على جميع المرافق الضرورية للحياة اليومية؛ من حمام وخمارة وفرن ومقبرة ومحلات للنوم وأخرى للبيع والشراء، وبالتالي كانت عبارة عن سوق، وكانت تتمتع نظرياً بامتياز "الحصانة"، فحسبنا الإشارة أنه كان يقيم بها راهب للإشراف على الحياة الروحية للمسيحيين، وموثق لتحرير عقودهم التجارية وتوثيق قرارات القنصل المشرف على البناية كلها. ومن الجدير بالذكر أن فنادق التجار النصارى بمدينة سبتة كانت سبعة، تقع كلها قبالة الديوانة، في الركن الشمالي الشرقي من المدينة.

---

331 - عبد العزيز الأهواني، **ألفاظ مغربية**، م. س. 155. من جهته سيلقي اليانشتي، حاكم المدينة، القبض على الشاعر ابن طلحة وهو بصحبة عاهرات. ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، الجزء الثاني، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955، ص 364.

ثلاثة منها على الأقل كانت متلاصقة، وشكلت ما كان يسمى بـ"حي الجنويين والبيزيين والمرسيليين"[332].

لكن خارج الفنادق *extra fundicum*، كان بعض التجار النصارى يتوفرون على منازل وحوانيت مكتراة، مثل التاجر الجنوي "فيكولوسو نيبيليلا"، الذي كان يتوفر على منزل بقرب باب دار الصناعة، و"أوبيزو دي كاستيلو"، الذي كان يملك حانوتاً خارج أسوار الفندق[333].

لقد كان **القنصل** هو ممثل السلطة "المركزية" ومدير الفندق والمسؤول عن النظام داخله، وله سلطات على جميع التجار من بني جلدته. ومهما كانت الاختلافات التي عرفتها وظيفة القنصل، فإن جوهرها ظل ثابتاً. لقد كان القنصل هو المدافع عن مصالح التجار من جنسيته، سواء تجاه سلطات المدينة أو التجار الآخرين من جنسيات أخرى. كما كان يفصل في المنازعات بين رعايا بلده، ويصدر الأحكام، وكان الواسطة بين بلدييه والسلطات المغربية، وبينهم وبين سلطات "الميتروبول"، وكان له مقر خاص لكتابته ومراسلاته يسمى في الوثائق اللاتينية "*scribania*"[334]

---

332 - Mascarenhas, op. cit. p. 51- 52 من جهته يؤكد الأنصاري أن فنادق تجار النصارى كانت سبعة، «أربعة على صف واحد وثلاثة متفرقة»، (**اختصار الأخبار**، م. س.، ص 42)

333 - Jehel, *Les Génois*, 396. Dufourcq," Aperçu…", 727. note 45

334 - Brunschvig, *La Berbérie*, I. 437. Caille,"Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta", op. cit., 25-26

أول إشارة إلى scibania الجنويين بسبتة تعود إلى سنة 1214، وأولى الإشارات إلى فندقهم هناك تعود إلى سنة 1228م. إلا أن المؤسستين كانتا توجدان في عين المكان من قبل ذلك بزمن طويل ولا شك، إذا ما استحضرنا قدم علاقات جنوة مع سبتة التي ترجع إلى القرن 12م.

أما العبيد الذين كانوا يشكلون مادة "التجارة أساسية وممقوتة" في العلاقات المغربية الأوربية، فإنهم كانوا يتشكلون من ضحايا الغزوات وعمليات القرصنة البحرية المتبادلة بين النصارى والمسلمين. وكان عددهم يعرف تباينات كبيرة. إن وجودهم باعتبارهم يداً عاملة بالمدينة وخدماً وإماءاً أساساً، يجعل منهم عنصراً له أهميته في المجتمع السبتي. وفي بعض الأحيان كانت الاختلافات في العقليات والعادات بين المسيحيين والمسلمين تطفو على السطح على نحو واضح، كما هو الشأن بخصوص "علج أسير"، كان يشتغل بالمدينة في كوشة مع مجموعة من الخبازين السبتيين الذين سيسبّون أحد متصوفة المدينة المار أمامهم مع مجموعة من الفقراء، فصاح فيهم العلج الأسير قائلاً : "ما هجن دينكم. هكذا تصنعون مع العباد؟ نحن خير منكم، الذين نطعم رهباننا والقسيسين الذين لنا"[335]. والجدير بالذكر أن متصوفة المدينة كان لهم دور في اقناع بعض النصارى لاعتناق الدين الإسلامي[336].

إن وجود الجاليات التجارية بالمدينة قد جعل تدخل البعثات الدينية والإرساليات التبشيرية أمراً ضرورياً. فبيوت العبادة المنتظمة حول الفنادق استدعت حضور الرهبان والقساوسة بالمدينة. وفي سنة624 هـ/ 1227 م، كان يتولى أعلى سلطة دينية مسيحية بحي فنادق التجار النصارى بالمدينة أسقف إيطالي يسمى هوغو، "راهب الجنويين"، و"الأسقف الأعلى"[337]. وللوصول

---

335 - **تحفة المغترب**، 113

336 - نفسه، 43 (يتعلق الأمر بإسلام أحد نصارى الكرد على يد الولي عبد المالك اليحانسي سنة 665هـ،1267م، وذلك برباطه بحجار السودان من خارج سبتة)

337 - Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit .p. 51-52

إلى مركز الأبرشية المغربي، أي كنيسة مراكش، كان الأساقفة الذين يتولون إدارتها، والرهبان التابعين لها، يمرون بدون شك على سبتة أكثر من مرة[338].

وإلى جانب هؤلاء الرهبان، ظهرت بسرعة جماعات من المبشرين المسيحيين، كانوا يعملون على الاعتناء بالأسرى المسيحيين، وتزويدهم بالتعاليم المسيحية، والعمل على إطلاق سراحهم، إن أمكن ذلك. ففي نهاية القرن السادس/ 12 م، في 8 مارس 1198(21 ربيع الثاني 594 هـ)، كتب البابا إنوسان الثالث إلى الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب، ليوصيه بـ"المثلثين" *Trinitaires*، وهو التنظيم الذي كان قد أنشأه قبل ذلك بقليل في مدينة مرسيليا[339].

بل سيفكر رجال الدين النصارى في تمسيح المسلمين عن طريق نشاطهم التبشيري. ففي 609هـ/ 1212 م، تم إعدام خمسة عشر مبشراً مسيحياً، لمحاولتهم الدعوة للديانة المسيحية بالمغرب[340]. وفي يناير1220 م(شوال 616 هـ)، أعدِم أربعة من رجال الدين المسيحيين من "الإخوان الصغار" (*Frères Mineurs*) بمدينة مراكش، لنفس السبب[341]. وبعد ذلك بسبع سنوات، في عاشر أكتوبر 1227 م (شوال 624 هـ)، تم إعدام سبعة فرانسيسكانيين إيطاليين بساحة عمومية بمدينة سبتة، حيث كانوا يقومون بالدعوة للمسيحية علانية، حاملين الصليب بأيديهم[342]. وقد دُفنوا في فندق "الجنويين والبيزيين والمرسيليين"، ويوجد من بينهم "الأخ" الذي تقدّسه الكنيسة تحت إسم "قديس

338 - Dufourcq," La question de Ceuta au XIII siècle", *Hespéris*, XLII, 1955, 78

339 - Mars-Latrie (L. De), *Traités de paix*, 8

340 - Dufourcq, "Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIe siècle",*Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*,V, 1968, p. 48

341 - P. De Cénival, "L'Eglise chrétienne de Marrakech", *Hespéris*, VII, 1927, 70

342 - Lopez R., *Genovesi in Africa occidentale nel Medio Evo*. p. 9

سبتة دانييل"[343]. إنها الفترة التي كان فيها القديس "هوغو" يقوم بوظيفته الدينية دون قيود بالمدينة. وعرف القرن السابع/ 13 م محاولات عديدة لإدخال المسيحية إلى المدينة. وقد وصلتنا نسخة من الزابور تم نسخه بمدينة سبتة في سنة637 هـ/ 1239 م، صاحبه (أو ناسخه) يسمى "مارتن الفرخاني، راهب من عبيد مريم المقدسة"[344]. وهذا المعطى قد يدل على وجود دير رهبان بالمدينة. كما أن سياسة الكنيسة الرومانية وفكرة الاستيلاء على سبتة وتمسيحها التي صاغها الساسة المسيحيون في شبه الجزيرة الإيبيرية، ستلتقي مع بعضها البعض. ولم يقتصر العالم النصراني "رامون لول" في نظرته التوسعية المسيحية ذات البعد المتوسطي على البلاد الحفصية التي كان يتردد عليها بكثرة فقط، بل جعل من سبتة الهدف الأول عندما اختمرت في ذهنه فكرة غزو المسيحيين لبلاد المغرب[345]. وحوالي سنة 658 هـ/ 1260 م تمت ترقية "الأخ" لورنزو البرتغالي، وهو من جماعة الفرانسيسكانيين، وأحد المتحمسين للحملة الصليبية ضد الشمال الإفريقي، إلى مرتبة عليا في التراتبية الكنيسية، وأُعْطِيَ له مقر كنيسي في أرض *in patribus* يجب انتزاعها من المسلمين، ولم تكن تلك الأرض سوى مدينة سبتة[346].

343 - Carrière, "Les martyrs de Ceuta", in, *Le Maroc catholique*, 1924, 133. Koehler, *L'Eglise chrétienne du Maroc (1221-1790)*, Paris, 1934, XIV. Mascarenhas, *Historia de la ciudad de Ceuta*, op.cit .p 50-51. Tisserant Wiet, "Une lettre de l'almohade al Murtada au Pape Innocent IV", *Hespéris*, VI, 1926. 47

344 - انظر دراسة P. S. Van Koningsveld, "Christian-Arabic manuscripts from the Iberian Peninsula and North Africa: a historical interpretation", *Al Quntara*, Vol, XV,1994, 432-433

345 - Dufourcq, " La question de Ceuta", 74. Dufourcq (Ch. E.), *L'Espagne catalane*, 47

346 - Dufourcq, "Un projet castillan du XIIIe siècle: "La croisade d'Afrique", *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, I, 1966. 34

في نهاية التحليل، يظهر أن اهتمام الكنيسة كان منصباً على التجار المسيحيين الذين كانت تعمل على تأطيرهم. ففي 25 أكتوبر 1246 م (7 جمادى الثانية 644 هـ)، كتب الباب إنوسان الرابع إلى "أمراء" تونس وبجاية وسبتة - أي إلى أمراء المدن التجارية الرئيسية مع العالم المسيحي - ليذكرهم بأن أغلبية المسيحيين المستقرين في مدنهم يتعاطون التجارة[347].

* * *

بعد أن وقفنا على العناصر المشكلة للساكنة السبتية، تطرح قضية عدد سكانها. إن فقر الوثائق بخصوص هذه النقطة لا يوازيه سوى ضعف الدراسات في الديموغرافية المغربية الوسيطية. فالإشارات التي يقدمها الأنصاري حول مختلف المؤسسات الدينية والمدنية للمدينة (حمامات، أفرنة، مساجد، مقابر، توسيع الجامع، ظهور أرباض جديدة... إلخ)، والتي تشهد على ازدياد مطرد في عدد سكان المدينة، لا تستطيع لوحدها إزالة الضبابية التي تخيم على التاريخ الديموغرافي للمدينة. إن بعض الدراسات التي تقدر عدد سكان سبتة في العصر الوسيط بثلاثين ألف نسمة، وتجعلها تفوق تقديرات سكان حواضر أندلسية هامة، مثل : ألمرية وميورقة ومالقة وغرناطة قبل النصريين، تبقى مجرد

---

347 - Mars-Latrie, *Traités*, 13. Tissrant et Wiet, "Une lettre…", op. cit., 47
في الحقيقة هناك سلسلة من الرسائل البابوية لـ(إينوسان الثالث) سنة 1198 ولـ(هونوريوس الثالث) سنة 1226 ولـ(غريغوا التاسع) سنة 1233 و 1237 ولـ(إينوسان الرابع) سنة 1246 و 1251 كان من بين أهدافها كلها " استمرار المسيحية، ومساعدة الأسرى المسيحيين وحتى التحريض على عمل المبشرين الفرانسيسكيين الذيت كانوا يجوبون البلدان الإسلامية". ولقد شارك الجنويون في هذا النشاط نظرا لتداخل المصالح الاقتصادية والدوافع الدينية في سياسة الجمهورية الجنوية. وليس جزافا أن تضم حملة الأخوين فيفالدي Vivaldi- التي انطلقت من جنوة سنة 1292م للوصول إلى خليج غينيا عبر مضيق جبل طارق- فرانسيسكيين من بين أعضائها. (انظر : جورج جيهال، **"جنوة وبلاد المغرب"**، م. س. ص 108)

افتراض[348]. والمؤلفون الذين يحكون قصة استيلاء البرتغاليين على المدينة، ونزوح أهلها عنها لا يعطون أية تقديرات لعدد سكانها. ولم يحدد الحسن الوزان عدد كانونات المدينة، كما كان يفعل بخصوص الحواضر الأخرى. ومع ذلك، فإنه يقرّ أن المدينة ظلت مذ فتحها الإسلامي "تنمو باستمرار، سواء فيما يتعلق بعدد السكان أو بشرف أرومتهم، إلى أن صارت أجمل مدن موريطانيا، وأكثرها سكاناً"[349]. وراء هذه المبالغة يمكننا القول إن المدينة كانت تعرف في بعض الفترات التاريخية مشاكل مرتبطة بالتزايد السريع لعدد سكانها. فأحد متصوفتها في العصر الموحدي لاحظ أن المدينة "لا تحتمل الزحام، ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام"[350]. إن الاستقرار السياسي النسبي الذي تمتعت به المدينة خلال العصر الوسيط جعل منها مركز احتضان للأندلسيين الذين طردتهم حركة الاسترداد المسيحية، ومكان جلب للمغاربة بصفة عامة.

---

348 - Gozalbes Cravioto C.," El agua en la Ceuta medieval", *Transfretana*, 5, 1993, p. 61; Idem, "La demografia de la Ceuta medieval", II *Congreso International El Estrecho de Gibraltar*, (Ceuta, Novembre, 1990), Vol. III

349 - **وصف إفريقيا**، 317

350 - **تحفة المغترب**، 176

التراتبية الاجتماعية

إننا لا نتوفر على معلومات دقيقة حول مسألة توزيع الخيرات واقتنائها بسبتة في العصر الوسيط. ويصعب تحديد المكانة التي تحتلها كل فئة اجتماعية في صيرورة الإنتاج. وإن كنا نستطيع التمييز بين درجات متعددة وأصناف مختلفة داخل البنية الاجتماعية المحلية، فإنه لا يمكننا الكلام إلا عن "تراتبية اجتماعية"، نميز داخلها بسهولة بين كبار التجار وصغارهم، والحرفيين، والعبيد والعامة؛ فضلاً عن فئات كانت مكانتها لا تُحدد بالمعايير المادية الصرفة، كفئة الشرفاء والعلماء والمتصوفة. أما أصحاب الأراضي والمستفيدين من ريعها، فنكاد لا نجد لهم ذكراً في مصادرنا التاريخية. إن الاقتصاد السبتي كان يرتكز على النشاط التجاري والحرفي، وليس على المضاربات العقارية والاستغلال الزراعي.

1 - كبار التجار والحرفيين

من المؤكد أن مكانة خاصة يجب أن تُفرد لكبار التجار المتخصصين في التجارة الخارجية التي كانت أهم نشاط اقتصادي بسبتة يسمح بالأرباح، وتراكمها الضروري لخلق "بورجوازية".

إن القوة الاقتصادية لهذه الفئة من التجار، ووزنها، وتأثيرها السياسي، ومكانتها الاجتماعية، كانت بالغة الأهمية. وقد كان حكام المدينة أنفسهم جزءاً من هذه الفئة. فاليانشتي وابن خلاص كانا من بين أكبر وأغنى تجار سبتة، قبل أن يتوليا مقاليد السلطة بالمدينة. وأبو طالب العزفي كانت له علاقات تجارية خاصة مع القوى المتوسطية، وكان يملك الربع في سفينة قطلانية. وإذا كانت هذه الفئة لا تملك أية وضعية قانونية خاصة معترف بها رسمياً، أو تستفيد من

امتيازات معينة، فإنها شكلت "بورجوازية" عليا فعلية وقادرة على التأثير بصفة حاسمة في مقاليد المدينة وقراراتها السياسية، وتوجيهها حسب مصالحها الخاصة. فالحركة التي أتت بالعزفي إلى السلطة بسبتة سنة647 هـ/ 1250 م، كانت تتمتع بدعم تجار المدينة، لأن السياسة المالية الحفصية بها - والتي كان يطبقها صاحب الأشغال الحفصي - كانت قد أضرت بمصالح تجار المدينة. وعندما وصل العزفي إلى السلطة، أدار شؤون المدينة بمراعاة تامة لمصالح الفئة المتنفذة بها، أي كبار التجار. ذلك ما يظهر واضحاً من خلال المقارنة التي أقامها ابن عذاري بين صاحب الأشغال الحفصي الذي "كان قد أضر بهم [سكان سبتة] بظلمه وجوره"، وبين أبي القاسم العزفي الذي "ضبط المدينة لنفسه باشتداده وجده في مصالح أهلها بغاية جده واجتهاده"[351].

في القرن السابع/ 13 م، أي في فترة كانت المدينة تعرف أوج أزدهارها التجاري، وارتباطها مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، ستثير درجة غنى هذه الفئة انتباه ابن سعيد المغربي، المتردد على المدينة وعلى أهلها، ويؤكد لنا أنها "ركاب البحرين، شبه الاسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة"[352].

إن الأرباح التي راكمتها هذه الفئة من التجار المرتبطين بالعالم المتوسطي وبلاد السودان، مكنتها من إنشاء بعض المؤسسات، والمعالم المعمارية الدينية والمدنيّة بالمدينة التي تشهد على سخائها، ولكن على قوتها المالية قبل كل شيء. وهناك كثير من الأمثلة التي توضح لنا ذلك. فوالد القاضي

---

351 - ابن عذاري، 398

352 - ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، م. س، 139

عياض بنى مسجداً وحبس أرضاً للدفن بالمنارة. وبعد وفاته ترك سبعة عشر ألف دينار[353]. وأنشأ أبو الحسن الشاري (ت. 650 هـ/ 1252)، الذي كان على درجة كبيرة من الغنى، على الرغم من أنه "لم يباشر قد ديناراً ولا درهماً، أنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه واللائذون بجانبه"[354]، أنشأ أول مدرسة في تاريخ المغرب، حملت إسمه (المدرسة الشاريّة)، مع خزانتها الكبيرة المحبسة عليها، والمكان المخصص لدفن طلبتها. كما أن أمراء المدينة أنفسهم، والعزفيين منهم بصفة خاصة، أعطوا للمدينة بعض أجمل وأضخم معالمها العمرانية التي ظلت مرتبة باسمهم حتى سقوط المدينة سنة 818/ 1415م[355]. إن آثارهم تعكس درجة إشعاعهم ومكانتهم داخل الأوساط الحاكمة وكذا المثقفة. ويشير المقري إلى ذلك في معرض حديثه عن مآثر الشريف أبي العباس الحسني، حيث يقول : "وله بسبتة آثار تحكي الآثار العزفية"[356]. وكانت هذه الفئة تعمل على التميز عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى. فقد كان لها أحياؤها الخاصة، وأماكن لعبها المخصصة لها، بل حتى مقابرها كانت خاصة[357].

وبعد ذلك نجد التجار المتوسطين والصغار، وأهل الحرف، وأهل الأسواق، وبائعي التقسيط المزاولين لنشاطهم في الأسواق والحوانيت، بمفردهم أو بمساعدة أفراد آخرين. ومن الراجح أن التجار الكبار هم الذين كانوا يزودونهم بمواد الاستهلاك اليومية التي يبيعونها في حوانيتهم أو حوانيت

---

353 - **التعريف بالقاضي عياض**، 112

354 - **الذيل والتكملة**، ج 8، ص 201

355 - الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 30، 34، 38، 39، 40،...

356 - **أزهار الرياض**، الجزء الأول، 39-40

357 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 33 الزقاق الأعظم هو «زقاق الأكابر عند أهل سبتة»، بخصوص المرامي، كانت جلسة الحفير «مخصوصة بالقاضي وصدور الفقهاء من العدول»، ص 47

الأحباس المنتشرة بأسواق المدينة. ويمكن افتراض أن وضعية هذه الفئات قد عرفت تحسناً ملموساً في القرن السادس والسابع/ 12 و13 م. ومن بين المؤشرات على ذلك، امتلاك عدد كبير من التجار الصغار لمنازلهم، وحتى لحمام خاص، وهو أحد رموز اليُسْر في المدن الإسلامية في العصر الوسيط[358].

ضمن هذه الفئة نجد كثيراً من العلماء والفقهاء، لارتباط التجارة والعلم في سبتة الإسلامية. فالفقيه عدي بن علي القيسي كان "يتعيش من بضاعة له يديرها في تجارة كان شديد الاحتياط فيها، والتحرز من مواقعة خلل يدخل عليه بسببها"[359]. أما علي بن محمد الحضرمي فقد جمع بين مزاولة التجارة والتدريس، حيث كان "يدير بضاعة له في تجارة أكثرها في إقامة أواني الخشب المخروطة، وأكثر ما كان يتردد بين رندة وإشبيلية وسبتة وفاس ومراكش"، وكان "ينتصب لتدريس ما كان لديه من المعارف، ريثما يتم غرضه في البيع والإقامة"[360]. بينما كان علي بن أحمد الأزدي عطاراً بالمدينة، ومؤذناً بجامعها[361]. في حين كان ابن الخراز الجذامي الذي كان يقرئ بزقاق الخشابين "يتحرف بالقراقين ببيع القرق"[362]، وقد اغتنى محمد بن جوبر الأنصاري وأصبح من "ذوي اليسار" من "تجارة يديرها بقيسارية سبتة"، وتبضيع مساعديه وأفراد عائلته للقيام بعمليات تجارية خارج سبتة، مع الإقراء

358 - Hernandez Diaz J., "Los baños arabes de Ceuta", *Academia*, 1978
كان منزل الأنصاري يتوفر على حمامين، (ص 35)
359 - **الذيل والتكملة**، ج 5، ص 141
360 - نفسه، ج 8، ص 182
361 - نفسه، 182
362 - ابن الزبير، **الصلة**، قسم الغرباء، في **الذيل والتكملة**، ج 8، ص 539

بمسجد سويقة سردينة[363]. في وقت لزم فيه محمد الأنجري، الأستاذ بمسجد القفال، "حانوته بـ[سوق] الموثقين، فكان بها في عيش رغد، ونعمة تامة"[364]. ويمكننا أن نسوق أمثلة أخرى تؤكد التزاوج التام والتداخل العميق بين الأعمال التجارية والنشاط العلمي لسكان سبتة.

2 - العبيد والعامة

في أسفل السلم الاجتماعي نجد العبيد، بيضاً وسوداً. وقد عرف عددهم ـ كما رأينا ـ تبايناً كبيراً. فمن جهة كان يميل نحو الارتفاع، بسبب التجارة والقرصنة والحروب، ومن جهة أخرى كان يميل نحو التقلص، بفعل الوفيات والعتق أو الشراء.

إن عدد العبيد السود لم يكن قليلاً بسبتة. ولدينا فتوى تشير إلى تجمُّع السود والسودانيات بمناسبة الزواج، وإقامة الحفلات الليلية بالمدينة، وما يصاحبها من موسيقى ورقص وصخب، اعتبرت كبدع بالمدينة[365]. وفي القرن التاسع/ 15 م يشير الأنصاري إلى مقبرة "أحجار السودان" خارج المدينة[366] التي ربما كانت في أصلها سوقاً للعبيد. وفي سبتة دُفن "ريحان الأسود"، أحد كبار الأوجه الصوفية المحلية الذي كان عدد كبير من أفراد النخبة السبتية

363 - **الذيل والتكملة**، ج 6، ص 341
364 - **بلغة الأمنية**، 46
365 - **مذاهب الحكام**، 87
366 - يشير ابن هشام اللخمي (**ألفاظ مغربية**، 318)، أن السبتيين كانوا «يقولون للموضع الذي يباع فيه الرقيق معرض». وكان لفظ العجم يدل عندهم على السودان خاصة. بينما يرى أن العجم هم «الروم والفرس والبربر وجميع الناس سوى العرب» (**ألفاظ**، 297).

يودون أن يدفنوا بجانب قبره[367]. من جهته، استطاع "زورارا" أن يشاهد العبيد السود بعد سقوط المدينة بيد البرتغال[368].

ولم تلعب العُبودية سوى دور ثانوي في الاقتصاد السبتي. فاليد العاملة المستعبدة لم تكن ضرورية في مجالات الإنتاج التي يقوم عليها الاقتصاد المحلي. صحيح أننا نجد العبيد في بعض مجالات الحرف التقليدية[369]، ويمكننا أن نفترض وجودهم في مزارع قصب السكر، أو نجدهم مجدفين على السفن[370]. لكن يبدو أن العبيد كانوا يُستخدمون أساساً في الأعمال المنزلية كخدم، وجوار،[371] وامتلاكهم كان من رموز التفاوت الطبقي[372].

قليل من العبيد البيض كانوا يبقون في وضعية العبودية إن هم اعتنقوا الإسلام. فالعتق الذي توصي به الديانة الإسلامية، مُورس بسبتة، وخصوصاً لصالح الموالي والجواري. فنجد إشارات إلى "الموالي العلوج" الذين كانوا يشغلون مناصب إدارية مهمة في سبتة، كإدارة المصائد، التي كان يتولاها في منتصف القرن الثامن/ 14 م، العلج المولى "فرح"، الذي كان يأتي إلى ميناء

---

367 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 19؛ **التشوف**، 158-159

368 - لقد تقدم عامل المدينة «أمام سبتة مصحوباً بعبديْن أسودين يلبسان لباس أحمر...»
Robert Ricard," Le Maroc septentrional…", op. cit., 26

369 - في المخبزات مثلاً، انظر، **تحفة المغترب**، 113

370 - **مذاهب الحكام**، 235-240 حيث نجد نقاشات فقهية حول «عبيد المراكب»

371 - تشير إحدى فتاوى القاضي عياض إلى «العلجة مرية» التي كانت قد حازت ثقة أسرة سبتية، (**مذاهب الحكام**، 247) وأخرى تشير إلى ابتياع «ربع وخادم» لأحد المحاجر (نفسه، 250)

372 - كان صداق الأمير أبو الوفاء العزفي لزوجه الخلدونية 600 دينار وثلاثة إماء، اثنتان من السودان وواحدة من بنات الروم (انظر عقد صداقه الذي نظمه شاعر سبتة والمغرب ابن المرحل، في؛ أحمد بن القاضي، **جذوة الاقتباس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1974، 330-332

المدينـة علـى حـصانه، محفوفـاً بأعوانــه، لمراقبــة مـداخيل الميـنـاء[373]. بعـض المعتوقين الآخرين كان لهم الحق في ميراث أسيادهم[374].

أما أولئك الذين تسميهم المصادر بـ"العامّة"، والذين كانوا يشكلون خليطاً غير متجانس من الأفراد الأحرار، فإننا نلمحهم بصعوبة في ثنايا الكتابات التاريخية. فهي تضع العوام على هامش المجتمع، وعلى هامش التاريخ، بما أنها لا تتحدث عنهم إلا بمناسبة حدوث انتفاضة ضد ظلم أو طغيان، أو في فترات القحط والمجاعة، أو عندما ينهضون لطرد عامل جائر، أو ممثل لسلطان[375]، أو عندما يُستعملون لفرض سلطة دون غيرها[376].

هذه الفئة "المُتجاهلة" - لأنها دائماً ضحية الأحكام المسبقة للمؤرخين، وكتاب التراجم المنتمين في غالب الأحيان إلى النخبة الحضرية - ستجد المتحدث باسمها في كتب المناقب التي تلقي بعض الأضواء على هؤلاء المعذبين في الأرض، والذين كانوا يلتفون حول من يعتني بهم من الأولياء والمتصوفة.

يتعلق الأمر أساساً بساكنة محرومة من وسائل الإنتاج الاقتصادية : متسكعين، حمالة، سقائين، طالبي الصدقة، عمال مياومين...إلخ. إن توزيع بعض شخصيات المدينة الإدارية[377] والمتصوفة خاصة للطعام على هؤلاء، لم

373 - **أزهار الرياض في أخبار عياض**، الجزء الأول، 1939، 33
374 - انظر مثلا : **مذاهب الحكام**، ص 260،88-263
375 - **البيان المغرب**، القسم الموحدي 350؛ **بلغة الأمنية**، 54؛ **نفح الطيب**، ج 131/3
376 - لقد تم طرد السلطة النصرية من المدينة وافتتحها الجيش المريني «عنوة بأمر أشياخها وموافقة عامتها»، **روض القرطاس**، 393
377 - كان الشريف أبو العباس الحسيني يصنع أنواع المطاعم الرفيعة، ويتبسط في ألوانها ويطعمها الغني والفقير، والقوي والضعيف ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه، (**أزهار الرياض**، ج 1، 14)

يكن ليخفف عنهم وضعيتهم الهشة، ولو أن تلك التوزيع كان يعبر عن نوع من التضامن بين السكان، ويعكس روح الخير والإحسان، كما تدل على ذلك بعض المؤشرات الأخرى؛ مثل وجود "جنان المساكين" و"حانوت أحباس المساكين" بالمدينة، أو كما يدل على ذلك التقليد الذي كان قد ترسخ عند السبتيين، والمتمثل في شيوع الوصية بالثلث على المساكين، وتحبيس بعض المنافع، مثل الحوانيت، على المحتاجين[378].

3 - الشرفاء : فئة مغلقة وامتيازات مفتوحة

نعلم أن الإسلام لم يعرف إلا فئة شرفاء واحدة وراثية تنحدر من نسل الرسول (ص). وانتشر الشرفاء الإدريسيون بسرعة في المغرب. وتبعهم تاريخياً الشرفاء الحسينيون الذين سيعرفون كذلك باسم السبتيين، أو الصقليين، لأنهم كانوا قد استقروا لفترة بصقلية في خدمة الفاطميين. وبعد سقوط الجزيرة بيد النورمانديين رحلوا إلى الأندلس قبل أن ينزحوا إلى سبتة في بداية السيطرة الموحدية، على ما يرجح[379].

تمتع هؤلاء الشرفاء الحسينيون حتى نهاية القرن الثامن/ 14 م بامتيازات خاصة في المدينة. ولتقوية استقلالهم عمل العزفيون على الارتباط بالشرفاء

---

378 - **مسائل أبي الوليد بن رشد**، ج918/2-919.

379 - حول الشرفاء بالمغرب المريني، انظر الدراسات القيمة للأستاذ محمد القبلي، «**مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور السعديين**» ضمن كتابه **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الرباط، 1987، 79-126 وكذلك كتابه :

Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, Paris, 1986

وقارنه بدراسة :

Beck. Herman L., *L'image d'Idris II. Ses descendants de Fâs et la politique sharifienne des sultans mérinides (656-896\1258-1465)*, Leiden, 1989

ومصاهرتهم[380]. وعرفت المكانـة الرمزيـة للشرفاء بسبتة إشـعاعاً خاصـاً بعد إقامة العزفيين الاحتفال بعيد المولد النبوي، وتعميم المرينيين الاحتفال بـه بسائر بلاد المغرب[381]. كما أن الدور السياسي الذي لعبه الشرفاء بالمدينـة لم يكن أقل تأثيراً. فعندما استولى النصريون على المدينة سنة 706 هـ/1306 م، لم يتردد سلطان غرناطة فـي إجلاء العزفيين، حكام المدينـة، بينمـا لـم يجرؤ علـى إبعـاد الشرفاء الحسينيين "المتعـاونين"، لأن "أهل البلد مطبقون علـى تعظيمهم"[382]. فهؤلاء الشرفاء كانوا قد أصبحوا "سياسياً قابلين لاستخلاف العزفيين" فـي حكم المدينة[383]. بل أصبح من المؤكد الآن أنهم كانوا من بين الأسباب التـي أدت إلـى الاختفاء السريع للعزفيين من المسرح السياسي السبتي فـي بدايـة القرن الثـامن/ 14م. والواقع أن الأهمية التـي أصـبحت لهؤلاء الشرفاء، ومزاحمتهم للعزفيين المتـأخرين، هـي التـي سـتدفع الأميـر العزفـي يحيـى إلـى إبعـادهم عـن المدينـة، وتغـريبهم إلـى الجزيـرة الخـضراء سـنة720 هـ/ 20-1319 م؛ "فاعترضـتهم مراكـب النـصارى فـي الزقـاق وأسـروهم". وعمـل السلطان أبـو سـعيد المرينـي على افتـدائهم، "رعايـة لشرفهم، وفـدى كبيـرهم وأبـاه علـى ثلاثـة آلاف دينـار"، وافتدى الجميع "بحمل مال"[384]. ولم يلبث هؤلاء الشرفاء بعد افتدائهم أن أبعدوا الأسرة الغزفية عن حكم المدينة.

أما السلطان أبو الحسن المريني فقد أجرى على الشرفاء الحسينيين بسبتة "جرايـات كافيـة، ومرتبـات شـهرية علـى قدرهم، ذكورهم وإنـاثهم، مـع الكسوة

---

380 - ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته**... 81
381 - انظر الفقرة المخصصة للأعياد بسبتة
382 - ابن السكاك، **نصح الملوك**، ص 30 (ذكره القبلي، **مساهمة**، 86)
383 - Kably, *Société*, 294
384 - القبلي، **مساهمة**، 90

الجارية في سابع المولد"[385]. وازدادت أهمية هذه الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بالمدينة على عهد السلطان أبي عنان، حسبما تؤكد ذلك الشهادات الثمينة التي احتفظ لنا بها المقري بخصوص مكانة الشريف أبي العباس أحمد، رئيس البيت الحسيني بسبتة، والذي كان قد خلف أباه على رأس مجلس الشورى بالمدينة، والذي أصبح ابنه، أبو عبد الله، مزوار شرفاء سبتة[386].

إن شهادة المقري التي استقاها على ما يبدو من الكتاب الضائع "الكواكب الوقادة في ذكر من دفن في سبتة من العلماء والصلحاء القادة"، شهادة فريدة، لا نجد مثيلاً لها في المؤلفات المغربية الأخرى. يقول: "وقدمه السلطان أبو عنان ناظراً على بلده سبتة، وأمر صاحب قصبتها ألا يقطع أمراً إلا بمشورته، فكان العمال يخالفونه ويشاورونه، فإذا رأى من أحدهم خروجاً عن العادة، أو حيفاً على الرعية، كتب إلى السلطان في شأنه، فيعزله من فوره، ويعوضه بغيره [...] وكان يأتي إليه في الموضع الذي أعده لجلوسه برياضه الذي بالصفارين صبيحة كل يوم، صاحب القصبة، كائناً من كان مسلماً عليه ثم ينصرف، ثم يأتي الوالي على قباضة الجباية مسلماً ثم ينصرف بعد تقبيل قدميه، ثم يأتي صاحب الشرطة، وكذا جميع أمراء سبتة، إلا القاضي، لمكان خطته".

وكان السلطان أبو عنان "يعطيه العطاء الجزل [...] وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد [...] ويخلع عليه الخلع الملوكية، ويعد له ديناراً مسكوكاً يصنع بمدينة مراكش، زنته مائة دينار ذهباً، يدفع له ذلك مع جائزته [...] ويصحبه في وجهته تلك من الضعفاء والتجار ما لا

385 - ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**... م, س، 152

386 - Prémare (A. L. De), *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes des voyage d'un Andalou au Maghreb (1344-1345)*, Lyon, 1981, p. 100

يحصى كثرة، ويتولى هو الإنفاق على الجميع من ماله، ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت سفره وقفوله".

من جهة أخرى "كان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثين ديناراً من الذهب العين في رأس كل شهر [...] وكان فائد مضرب الميناء لهذا الشريف أبي العباس الحسيني دون أن يشركه غيره، وكان له بمضرب أويات يوم يضرب فيه ويومان لبيت المال [...] ويتصل بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار وسبع المئة [...] وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفيْ دينار في اليوم"[387].

لقد شغل أغلب الشرفاء الحسينيين مناصب إدارية وتعليمية بالمدينة[388]. ومن الجدير بالذكر أنه وُجد منهم من كان يحترف العمل اليدوي بالمدينة، مثل النجارة[389]، التي كانت مهنة محترمة جداً بسبتة.

ويصعب تحديد عدد الشرفاء بالمدينة في القرن الثامن/ 14م. فالأنصاري يؤكد أن قبور الشرفاء الحسينيين بمقبرة الشبكة البراني، خارج الباب الأحمر "عدد كثير، جمعتهم روضة واحدة"[390]، كما أن مقبرة الولجة كانت تضم نحو اثني عشر قبراً من قبورهم. من جهته يخبرنا المقري أنه كان لهؤلاء الشرفاء "نحو الثلاثين قبراً في روضتهم المنسوبة إليهم، بالجانب الشرقي من رابطة

---

387 - **أزهار الرياض**، ج 1 ص 39-43

388 - حول الشرفاء القضاة بسبتة انظر **بلغة الأمنية**، 49-50؛ الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 24-25؛ **أزهار الرياض**، ج 1، ص 24، ج 8، ص 290؛ وحول الشرفاء المدرسون، انظر النباهي، **المرقبة العليا**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948، 141؛ **الإحاطة**، ج 2 ص 179؛ **بلغة الأمنية**، 40

389 - الأنصاري (37-38) يشير إلى شريفين يشتغلان بالنجارة

390 - نفسه، 24-25

الفصال"[391]. ويبدو أن التباين الطبقي والتمايز الاجتماعي كان يُراد له أن يستمر بادياً للعيان في أرض الواقع، ولو في أماكن العبرة، وتذكر الآخرة.

وهناك أرستقراطية بالمولد والنّسب، قوية بطريقة أخرى، كانت قد ولدت مع الموحدين، وزالت بزوالهم من سبتة : إنها الأرستقراطية التي كان يشكلها "السادة"، أمراء الموحدين وشيوخهم وولاة المدينة منهم. وبعدها يجب أن نعطي أهمية خاصة للعائلات الكبيرة بالمدينة: أي "البيوتات"، مثل بني الحضرمي، بني خلدون، بني عياض، بني الرنداحي... الذين كانوا قد ربطوا مصالحهم بمصالح حكام المدينة في أغلب الأحيان، عن طريق المصاهرة[392]، وكأنهم كانوا يعملون بحكمة ابن خلدون[393]. ويمكننا افتراض أن مجلس "الشورى" بالمدينة، والوفود التي كانت تمثل المدينة في المناسبات الرسمية لدى السلطات المركزية كانت تتشكل من أفراد هذه الأسر الأرستقراطية التي غالباً ما نجد ذكرها متبوعاً بأوصاف ذات أبعاد أدبية وأخلاقية مثل : "الفضلاء"، أو "الكبراء"، أو "الأعيان"، أو "الوجهاء"...إلخ

---

391 - **أزهار الرياض**، ج 1، 42

392 - مصاهرة العزفيين لبني خلدون (**التعريف بابن خلدون**، 41)، مصاهرة بني جمر لولاة المدينة، **الإحاطة**، ج 3، ص 415؛ مصاهرة العزفيين للحضرميين (**الإحاطة**، ج 4، ص 12؛ **جذوة الاقتباس**، 332) بالإضافة إلى مصاهرة العزفيين للحسينيين والرنداحيين...

393 - إنها الحكمة القائلة «لا بد لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذوي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي، وإن لم يكن له ذلك، أصبح مهباً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام»، **المقدمة**، 392

4 - العلماء والمتصوفة

لم يمثل العلماء الذين كانوا يتولون، تقليداً، المهام الدينية والثقافية بالمدينة، فئة اجتماعية متجانسة. وإذا أضفنا إليهم المتصوفة والطلبة، و"جميع مديري الضمير"، فإننا سنحصل على مجموعة واسعة جداً، متنافرة بالضرورة، ولا تجد وحدتها إلا في أنشطتها العلمية والتربوية التي لم تكن تنفصل عن عالم التجارة في سبتة خلال العصر المسيط. لذلك لا يمكننا أن نصفهم بـ"الطبقة"، وإنما بـ"هيأة" توجد داخلها مختلف الأصول السوسيو - اقتصادية. وإلى حد كبير كانت هيأة العلماء - عكس هيأة الشرفاء - تبدو كنسق مفتوح، يسمح بالحركية الاجتماعية، ويقدم للمجتمع إمكانات واسعة للتسلق والارتقاء الاجتماعي، للتقرب من البورجوازية المحلية وأرستقراطية المدينة[394]؛ خصوصاً أن مدينة سبتة اشتهرت بالعلاقة الوطيدة بين العلم والتجارة والسياسة[395].

إن العلماء والمتصوفة كانوا الوسطاء الطبيعيين بين السكان والسلطات. فالتأثير الذي كانوا يمارسونه إما بشكل مباشر -عن طريق الفتاوى والأحكام بين المتخاصمين- أو بشكل غير مباشر عن طريق "النصيحة" التي يقدمونها للسلطات، وكذلك بواسطة السلوك الأخلاقي والثقافي النموذجي الذي يقدمونه بسيرتهم الذاتية[396]، كان تأثيراً كبيراً داخل المجتمع السبتي.

---

394 - أمثلة في **بلغة الأمنية**، 32، 33، 40، 41، 55

395 - Ferhat. H,. "Le pouvoir des fuqaha dans la cité: Sabta du XII au XIVe siècle", In, *Saber religioso y poder politico en el Islam*, Madrid, 1994, pp. 53-70

396 - محمد الشريف، **جوانب من الحياة اليومية لمتصوفة الأندلس من خلال السر المصون لطاهر الصدفي**، ضمن كتاب **الغرب الإسلامي : نصوص دفينة ودراسات**، م. س..

Berque, J. *Les Ulama, fondateurs insurgés du Maghreb*, Paris, 1982, 227

ويمكننا القول إن أهمية العلماء لا يجب أن نبحث عنها في وضعيتهم السوسيو - اقتصادية المتباينة، وإنما في المكانة التي يحتلونها في الضمير والممارسة الجماعية. إن الولاة الذين كانوا يملكون القدرة على الأمر بالعقاب والسجن، لم يكونوا يشغلون في ضمير السكان نفس المكانة التي كان يشغلها العلماء والمتصوفة. فهؤلاء كانوا يمثلون السكان أمام أفراد السلطة، ويعبرون عن طموحاتهم وآمالهم، ولو بطريقة عنيفة إن اقتضى الأمر. إن المثال الذي يقدمه لنا أبو الحسين الصائغ، أحد متصوفة المدينة (ت. 600 هـ/1204م) في هذا المجال، لا يحتاج إلى تعليق : "غضب أبو العلا إدريس [...] أمير سبتة الشديد البأس على الناس، يوماً على أهلها، فأمر أن يحشر الناس خارجها في صعيد، وصعد صرحاً كان صنع له هنالك من الخشب، واجتمع الناس، رفيعهم ووضيعهم، وطال بهم المقام، وضرتهم الشمس، فلم يكلمهم ولا أذن لهم في الانصراف والتفرق، إلى أن انتهى الخبر إلى أبي الحسين ابن الصائغ [...] فجاء حتى بلغ من مرقب أبي العلاء بحيث يعاينه، ثم رفع رأسه إليه، وكان في صوته جهارة، وفي كلامه إرهاب، فقال له : انصب صراطك، وضع موازينك [...] ثم رد رأسه إلى الناس، وقال : امشوا من هنا. فافترق الحفل طاعة لأمره لمعرفتهم بمكانه عند الله تعالى، ونزل أبو العلا عن مرقبه ذلك، واختلط بالناس"[397].

محمد الشريف، «تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال المستفاد في مناقب العباد لمحمد التميمي»، ضمن كتاب **الغرب الإسلامي : نصوص دفينة ودراسات**، م. س.

397 - **الذيل والتكملة**، ج 8، 415 (أمثلة أخرى ص 416)؛ أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، القاهرة، 1933، 284)

المستوى المعيشي

إن أي تقويم مقبول لمستوى المعيشة للسبتيين في العصر الوسيط لن يأخذ مغزاه إلا بتحليل ثلاثة عناصر من معاييره الأساسية، وهي : التغذية والسكن واللباس؛ باعتبارها ظواهر ثقافية واقتصادية، فضلاً عن كونها "مؤشر جيد على مستوى المعيشة"[398]؛ مع إبراز الفروق بين شرائح المجتمع، وإقامة تمايزات واضحة بين أنماط الحياة الخاصة بمختلف الفئات الاجتماعية بالمدينة. لكن مادتنا المصدرية شحيحة جداً فيما يخص هذه المواضيع الدقيقة من الحياة اليومية للسكان، الأمر الذي لا يسمح لنا إلا بتقديم ملاحظات عامة حولها، مع التركيز على الطابع الجماعي للعناصر الثلاثة.

1 - الأكل: هاجس الأمن الغذائي

إن كانت مسألة تزويد المدينة بالمؤن في أوقات الحرب والحصارات لم تقلق كثيراً بال السبتيين، ما دام البحر يوفر لهم مصادر غذائية هامة، وعن طريقه كانوا يحصلون على مواردهم الضرورية الأخرى، فإن الاعتماد الكلي عليه لم يكن ليضمن لهم الاستقرار الغذائي دائماً، خصوصاً إذا ما تعرضت المدينة لحصار مزدوج، بحري وبري[399]. فالمحيط الجغرافي للمدينة يعتبر فقيراً من الناحية الفلاحية. ولم يكن بمقدوره أن يلبي الاحتياجات المتزايدة للمدينة بتزايد ساكنتها. وهناك شبه إجماع لدى المؤرخين العرب بخصوص فقر المدينة وناحيتها فيما يتعلق بإنتاج الحبوب. فقد رآها ابن الخطيب " عديمة

---

398 - Burguière A., "L'anthropologie historique", In. Le Goff. J., (sous la direction de), *La Nouvelle Histoire*, Paris, 1978, p. 47

399 - Lathan J. D., "The Stratigic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period", *Islamic Quaterly*, XV, 1971, 199

الحرث، فقيرة من الحبوب"[400] ويؤكد الحسن الوزان أن بادية المدينة "هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائماً من قلة الحبوب"[401]، وهو الأمر الذي حتم على مدينة الزقاق ربط علاقات تجارية مع الخارج لضمان تموينها بهذه المادة وبالخضروات، لسد حاجيات السكان المتزايدة، حتى أنها أصبحت من أكبر مخازن القمح المغربي المعدّ للتصدير على البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط.

وإلى جانب هذه التبعية الغذائية المطلقة للخارج ستنضاف الأوبئة والمجاعات التي لم تكن نادرة في تاريخ المدينة، وخاصة خلال القرن الثامن/ 14 م. إن أكبر مجاعة عرفتها المدينة في تاريخها الوسيط هي مجاعة سنة 634 هـ/ 40-1239 م، "التي لم يعهد مثلها في الأعوام الفارطة قبلها"، حسب شهادة ابن عذاري. فقد "كان الغلاء المفرط، والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة، حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام". وطبعت هذه المجاعة الذاكرة الجماعية للسبتيين الذين أطلقوا على هذه السنة "عام سبعة"، حيث أصبح "مشهوراً عندهم، يتمثلون به بينهم". وإذا ما صدقنا صاحب "البيان المغرب"، فإنه ابتداء "من هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام، حيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة"[402]. وبعد قرنين، يخبرنا الأنصاري[403] أن المدينة كانت تتوفر على أربعين ألفاً من المطامير المعدة لخزن الزرع، "متفرقة بالديار وببعض الحوانيت، ما عدا مخازن الفندق الكبير [...] والأهراء التي

---

400 - ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، م. س. ، ص 146
401 - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص 317
402 - ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، بيروت، 1985، ص 351 وسيؤكد لنا ابن الخطيب بأن المدينة «أمينة على الاختزان» **معيار الاختيار**، 146
403 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**، 42

بالقصبة [...] وأحسنها ما كان في أعالي البلد، كطالعة الميناء، وفي أسناد الربى السبعة جهة الجنوب". إنه رقم مرتفع جداً. وعلى الرغم من طابع المبالغة الذي قد يطبعه، فإن الأبحاث الأركيولوجية تؤكد العدد الكبير للمطامير التي كانت تتوفر عليها المدينة، سواء لخزن الطعام أو لجمع المياه[404]. إنه رقم يعكس جيداً الانشغال العميق لساكنة سبتة بهاجس الأمن الغذائي الذي كان يهددها باستمرار.

إن التطور المذهل لذلك النظام الوقائي يؤكد لنا نجاعة الإجراء المتخذ. فالحبوب التي كانت تصل سبتة من السهول الأطلسية، كانت تخزّن في هذه المطامير "الستين سنة، والسبعين سنة"، دون أن يعتريها تغيير، "لطيب البقعة، واعتدال الهواء، وكونها جبلية"[405].

إن الفندق الكبير الذي بناه أبو القاسم العزفي كان كذلك مخصصاً لخزن الزرع، وكان "يحتوي على اثنين وخمسين مخزناً، ما بين هرى وبيت، تَسِع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لا تبلغ الحصر". ويضيف الأنصاري منوهاً بمكانة هذا الفندق الذي كان من "الآثار الغريبة" بسبتة : "ومن ضخامته أن له بابين : باباً إلى صحنه، والآخر إلى الشوارع [...] تدخل على البابين الجمال بأحمالها [...] فإذا أبصر الرائي ما يدخل منها على الباب

---

404 - E.Fernández Sotelo, *los silos en la arquelogía ceutí*, I,Transfretana monografía, 2001, (138p.), II, Transfretana -monografía , 7, 2005, (102 p.)
Posac Mon C., "Datos para la arqueologia musulmana de Ceuta", *Hespéris-Tamuda*, Vol. I. 1960, p. 160

405 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**، 24

الأعلى، ودورانها في تلك الشوارع بأقتابها، وغرائر الزرع المحملة عليها، هاله ذلك وتعجب"[406].

إن هاجس الاحتياط من المجاعة انعكس حتى في سلوك أهل سبتة الغذائي، وطريقة أكلهم. وقد ترك لنا ابن الخطيب شهادة ساخرة ومنتقِدة في نفس الوقت لعادات الأكل عند السبتيين التي اعتبرها "حسنة تُعَدّ من الذنوب"، مبيناً أن "تكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصّون البلالة مصّ المحاجم، ويحملون الخبز في الولائم بعدد الجماجم"[407].

والواقع أن التغذية العادية للسبتيين كانت تُستوحى في مجموعها من تقليد فنّ الطبيخ الأندلسي المغربي، كما تصفه لنا كتب الطبيخ المغربية الأندلسية في العصر الوسيط[408]. وسيكون من الصعب علينا أن نعدّد الأطباق المتعددة جداً، وطرق تحضيرها المعقدة، التي يصفها لنا أولئك الكتاب المتخصصون في فن الطبيخ[409]. ويمكن افتراض أن عدداً غير قليل من تلك الأطباق كانت تحضر في سبتة. ولكن إذا اقتصرنا على الإشارات المصدرية المباشرة حول الغذاء السبتي، فإن معلوماتنا قليلة وناقصة بالضرورة. فباستثناء كتب الطبيخ المتخصصة، و"النظرية" في نفس الوقت، فإن المصادر العربية التي نتوفر عليها، لا تولي اهتماماً لهذا الموضوع. فيجب حدوث مجاعة على الأقل لنجدها تتطرق لموضوع التغذية.

---

406 - نفسه، 38

407 - ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، 146

408 - **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، نشر هويسي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 9-10، 1961-1962، ص 176

409 - يصف ابن رزين التجيبي طريقة تحضير أكثر من 400 طابقاً غذائياً في كتابه «**فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**»، نشر م. بن شقرون، الرباط، 1981

لقد رأينا في حديثنا عن الإنتاج الفلاحي بالمنطقة أهم الخضر والفواكه التي كانت تتوفر عليها المدينة، ومدى تنوعها. لكنها لم تكن تشكل سوى تكملة غذائية وموسمية في أغلب الأحيان. لقد كانت تساهم في إغناء مائدة الأغنياء، بينما لم تكن الغالبية العظمى من السكان قادرة على استهلاكها إلا بالنزر القليل.

إن أساس التغذية كان هو الحنطة، التي كانت تدخل في تحضير مجموعة من الأغذية، كالجشيش (عبارة عن حريرة من القمح والخضر) والعصيدة، والكسكس... وكانت الخبز تصنع من السميد أحيانا[410]، بينما كانت الخضر الجافة (القطاني) مثل العدس، والفول، والحمص، تستهلك بكثرة.

ولا يمكن أن نأخذ التقاليد الغذائية لمتصوفة المدينة مؤشراً على تغذية الفئات الشعبية السبتية، لأن أولئك كانوا يقضون عمرهم في الصيام، أو الاقتتات على النبات... ولكنهم كانوا يساهمون في بعض الأحيان في إشباع البطون الجائعة بفضل الطعام الذي كانوا يقدمونه لمريديهم ولفقراء المدينة، في المناسبات الدينية وغيرها. إن المثال الذي يقدمه لنا وليّ المدينة، عبد الملك اليحانسي، مثال فريد في بابه. فقد كان يستعد لعيد المولد بما "يكفي الواردين من الطعام، مع كثرة الترادف والتوارد. [...] كان أولئك الواردون يزيدون على عشرة آلاف بأعداد. فكان يذبح لهم ما يكفيهم من البقر والغنم، فيأكل المحتقر والمحترم [...] فيبقى الطعام والسماع في كل ناحية ثمانية أيام متوالية"[411]، كما كان يصنع طعاماً للفقراء في نفس المناسبة، مكوناً من الكعك والعسل[412]. ويبدو

410 - **المقصد الشريف**، 98

411 - **تحفة المغترب**، 108

412 - **المقصد الشريف**، 100-101

أن هذه الوجبة كانت هي الطعام الاعتيادي الذي كان يقدمه متصوفة المدينة، لأننا نجد ولياً آخر يقدم نفس الوجبة، مع إضافة السمن لها[413].

إلا أن توزيع المتصوفة أو السلطات[414] أو أغنياء المدينة[415] للطعام على المعدمين، سواء بدافع تضامني، أو خوفاً من انتفاضات العامة، لم يكن يكفي وحده لإزالة البؤس عن فقراء المدينة.

ويوضح لنا أحد كتاب الطبيخ في العصر الموحدي، أنواع اللحوم التي كانت تستهلكها الفئات العليا من المجتمع السبتي، وهو يتحدث عن طريقة تحضير عجل مشوي للسَّيد أبي العلا الموحدي بسبتة. يتعلق الأمر بأخذ كبش فتي سمين ومسلوخ، أفرغ جوفه من أحشائه، "ثم يدخل في جوفه إوزة مشوية، وفي جوف الإوزة دجاجة مشوية، وفي جوف الدجاجة فرخ حمام مشوى، وفي جوف الفرخ زرزور مشوى، وفي جوفه عصفور مشوى أو مقلي، كل ذلك مشوية مدهونة بالمرقة الموصوفة للشواء [...] ويدخل الكبش في التنور المحمى [...] ثم يدخل في جوف العجل، وتخاط عليه، ويجعل في تنور، ويترك فيه حتى ينضج ويحمر، ثم يخرج ويقدم"[416].

ولم يكن اللحم هو الغذاء الأساس للسبتيين، وحصراً الفئات الشعبية. لقد كان يستهلك بالخصوص في المناسبات الدينية والعائلية. ولكن يمكننا الافتراض أن السمك كان هو الطبق المفضّل والاعتيادي لدى السبتيين. لقد كان السمك هو المادة الغذائية التي لا تنقص المدينة. وقد كان سكانها يحصلون عليه في بعض

---

413 - **الذيل والتكملة**، ج 8، ص 417

414 - وخاصة العزفيين، **البيان المغرب**، 398

415 - مثل الشريف أبو العباس الحسيني، **أزهار الرياض**، ج 1، ص 33، 38، 41، 44

416 - **كتاب الطبيخ**، 32-142/33

أيام الأسبوع مجاناً من بعض مصائد المدينة، ومن مينائها[417]. بل إنه غذاء المتصوفة والفقراء والمعوزين، حتى أن أكل السمك ارتبط بالغباء و"تبليد الذهن"، وإضراره بملكة الحفظ، حسبما يستشف من اعتقاد أندلسي وصلنا على لسان الفقيه الأندلسي ابن رشد الجدّ، الذي لقي القاضي عياض بقرطبة، وعندما "رأى نبله وفضل ذكائه، قال : عجباً لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء؟" ولقد أجابه القاضي عياض بكلام بعيد عن الذكاء بقوله : "والله ما أكلت سمكاً منذ عقلت"[418]. ولقد ترك لنا أحد مؤلفي كتب الطبيخ في القرن السابع/ 13 م، الطريقة التي كان السبتيون وسكان غرب الأندلس يحضرون بها "المروج"، وهو طبق من السمك المطهي في الزيت باستعمال الخل والمري ومجموعة كبيرة من التوابل، كالفلفل والكمون والصعتر والقرفة...[419]. كما أن بعض الأطباق من السمك الجيد لم تكن في متناول الجميع. فقد انتقد الفقيه العزفي تبذير سكان سبتة في بعض المناسبات، بحيث كان يحضر "طاجن من حيتان ينفقون فيه ثلاثين درهماً"[420].

من بين الحلويات العائلية أو المعدّة للبيع التي كانت منتشرة في المجتمع السبتي، هناك الحلوى المعروفة باسم "**النصبة**" التي كانت تحضر بمناسبة عيد النيروز وعيد العنصرة، وكان يدخل في تحضيرها السكر والفاند والفواكه والتمر والزبيب والتين والجوز واللوز والجلوز والقسطل والبلوط والصنوبر وقصب السكر والأترج والنارنج والليم[421]. وفي نفس المناسبات كانت تصنع

---

417 - **أزهار الرياض**، ج 1، ص 43
418 - نفسه، ج 5، 79
419 - **كتاب الطبيخ**، 176
420 - العزفي، **الدر المنظم**، 21
421 - نفسه

حلويات أخرى تأخذ شكل مدن محصنة، تسمى "**المدائن**"، والتي نجد لها أوصافاً عديدة في كتب الأدب. ولقد ترك لنا أبو العباس العزفي نقداً لاذعاً، ووصفاً بليغاً، لعادات تحضير هذه الحلويات بمناسبة احتفال السبتيين بأعياد النصارى، قائلا : "وأضافوا من بدع وشنع ابتدعوها، [...] موائد نصّبوها لأبنائهم ونسائهم وصنعوها، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذوو اليسار نصبات في الديار كما نصب أهل الحوانيت فنضدوها، فقوم أباحوا أكلها لعيالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب وفي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها ثم باعوها"[422]. وانتقد أبو العباس أحمد العزفي تحضير هذه الحلويات بسبب ما يصرف فيها من مبالغ طائلة، بلغت سبعين ديناراً للنصبة في بعض الأحيان، واعتبر تحضيرها "بدعاً وشنعاً"، ابتدعها السبتيون مجاراة للأندلسيين الذين كانوا يقلدون المسيحيين في احتفالاتهم بأعياد الميلاد، والعنصرة، والنيروز[423].

إن القهوة والشاي لم يكونا قد عرفا بعد في إفريقيا الشمالية في هاته الفترة. ولكن **الحشيش** كان معروفاً بسبتة ابتداء من القرن السابع/ 13 م. فقد أورد البادسي في ترجمته للولي عبد الملك اليحانسي، أنه أتاه "فقير من المشرق برسم زيارته، ومعه جراب من ورق القنّيب، المعروف عند المستعملين له بالحشيشة". ويؤكد المؤلف أن الأمر يتعلق بنبتة الكيف، إذ أن الفقير المشرقي عندما رأى قناديل الزجاج والسماع والشطح قال : "إنما يصلح استعمال ذلك

---

422 - **الدر المنظم**، 20

423 - نفسه، 21

المعلوم في هذا الوقت [...] فعزم أن يأكل منه شيئاً ويعود إلى دار الشيخ"[424].
ومن المؤكد أن الحشيشة انتشرت في أوساط المتصوفة التي استعملتها لزيادة الحماس الذي تذكيه الأذكار الصوفية. وربما كانت الفئات المثقفة تتعاطاها كذلك. فابن خميس ترك لنا شعراً يفضل فيه استعمال الحشيش على شرب **الخمر**[425].

أما هذا الأخير، فقد كان يستهلك رغم أنه من المحرمات. ومن المعروف أن القاضي عياض "اضطره الشرع إلى إقامة حدّ الخمر على الفتح بن خاقان" عندما أتاه مخمراً إلى مجلس قضائه[426]. كما أن قوانين مدينة مرسيليا تتحدث كثيراً عن الخمر المصدر إلى سبتة، وتميز بين الحوانيت التي تبيعه للمسيحيين، والحوانيت التي تبيعه للمسلمين[427].

وأخيراً، نشير إلى أن كثيراً من علماء المدينة أكلوا "**البلاذر**" لإذكاء ملكة الحفظ والفهم لديهم. ويبدو حسب بعض التراجم أن النتيجة كانت إيجابية في أغلب الأحيان، على الرغم من أن شربه كان يسبب اختلالات عقلية وجسدية في البداية[428]. أما الطعام الخفيف الذي كان يؤكل بين الغذاء والعشاء، فكان يعرف بسبتة باسمه اللاتيني : "**مارندة**"[429].

---

424 - **المقصد الشريف**، 101
425 - **درة الحجال**، 163-164 لم ينتشر الحشيش انتشاراً واسعاً إلا في القرن السابع الهجري. يقول الشيخ الأبلي «أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الططر للعراق، واستعمال الحشيشة» انظر، **نفح الطيب**، 247/5
426 - **التعريف بابن خلدون**، 112
427 - Mas-Latrie, 89 وكذلك ابن سعيد، **المغرب**، ج 2، ص 364
428 - **الصلة**، ج 1، ص 299؛ **المدارك**، ج 8، ص 196؛ **بلغة الأمنية**، 25
429 - الأهواني، **ألفاظ**، 313

2 - السكن

إذا كان الولي عبد الملك اليحانسي قد اشتكى في القرن السابع/ 13 م من صعوبة الحصول على منزل بمدينة سبتة، ملاحظاً أنها "لا تحمل الزحام، ولا تعين على ما يجب من صلة الأرحام"[430]، فإن ابن الخطيب يشير في القرن الثامن/ 14 م إلى "وجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان" بها[431]. ويمكن أن نفترض أن ارتفاع عدد سكان المدينة، وعدم إمكانية توسعها باتجاه الشرق، دفع بالسبتيين إلى تكوين أرباض بالجهة الغربية من المدينة، وحتى بناء المنازل العليا؛ إذ وجدت بنايات من ثلاثة طوابق بالمدينة[432].

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تنظيم المنزل السبتي[433]. ولكن من الراجح أن البنية المعمارية لبيوتات سبتة لم تختلف كثيراً عن منازل الجنوب الإيبيري، أو عن بعض منازل المغرب والمنازل الفاسية خصوصاً. فعلى مساحة مربعة أو مستطيلة كانت قاعات لمنزل تتوزع على الصحن، أو المجلس، الذي كان الداخل يمر عبره بعد اجتيازه لعتبة المنزل، واختراقه للبهو. وكانت القاعة العلوية المنفردة تسمى في سبتة، كما كانت تسمى في قرطبة وفاس، باسم "المصرية". وكثيراً من المنازل كانت لها جنات ملاصقة[434] تضفي عليها برودة منعشة في الأوقات الحارة، وتقدم

---

430 - **تحفة المغترب**، 167

431 - **معيار الاختيار**، 146

432 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 37

433 - ظهرت دراسات إسبانية حول المنزل السبتي في القرن الرابع عشر الميلادي استنادا على نتائج حفريات أجريت حديثا في بعض أحياء المدينة، ونشرت نتائجها مؤخرا. انظر بالخصوص :

J. M. Hita Ruiz y F. Villada Paredes, *Un aspecto de la sociedad ceuti en el siglo XIV : Los espacios domésticos*, éd. Museo de Ceuta, Serie Minor, Estudios y Ensayos, Ceuta 2000 ; Id. "Unas casas merinies en el arrabal de Enmedio de Ceuta", *Caetaria*, n° 1, Algesiras, 1996, pp. 67-91

434 - **مذاهب الحكام**، 193

للعين منظراً كان ينـدر بالمدينـة. ومـن المؤكـد أن بيوتـات كبـار تجـار المدينـة وأرستقراطيتها كانت "تقترب كثيراً من شكل المدارس، من حيث زخرفتها، وتعكس من جهة، الثراء المادي والذوق الجميل لأصحابها، ومن ناحية أخرى تعقد المجموعات البشرية التي تحتضنها من حريم وخدم وغيرها"[435].

إن التنميق الداخلي للمنزل السبتي لم يختلف عن مثيله الأندلسي[436]. فقد تأثرت أرستقراطية المدينة بمثيلتها بالضفة الشمالية للمتوسط، وهي التي ستعمل على نشر استخدام الزليج. فالمؤرخ البرتغالي "زورورا" انبهر أمام أناقة منازل الأرستقراطية السبتية، وصرح قائلا : "إن من لم يكن يملك سوى خربة حقيرة بالبرتغال سيقيم في منزل واسع، منمق بزليج متعدد الألوان، وبالجبس وبسطوح جميلة، أطرافها من المرمر الأبيض المصقول جداً [...] والمفروشة بأسرة رطبة، والمليئة بأثاث غالي الثمن"[437]. لكن الفقراء كانوا لا يجدون سوى الحصور البالية، والوسادات من دوم، للجلوس وللنوم.

إن الأدوات المنزلية السبتية كانت بسيطة في مجملها. فبجانب الأدوات الضرورية والمصنوعة من الخزف، أو من الخشب، لتحضير الأطعمة والاحتفاظ بها، فإن أحد أهمّ الأثاث المنزلي هو ذلك الصندوق المسمى "المنشار"[438] المزود ببلج، والذي كان يستعمل لحفظ الأموال والحلي والملابس الثمينة. أما الزرابي المزخرفة، والمستوردة من الخارج في بعض الأحيان، فكانت خاصة بالأغنياء.

---

435 - زليخة بن رمضان، "**التخطيط المادي لمدينة سبتة الإسلامية: محاولة في إعادة بناء التركيبة الحضرية**"، مجلة كلية الآداب تطوان، ج 3، 1989، ص 70

436 - بخصوص تنميق حيطان المنازل السبتية، انظر :

Fernando Villada Paredes y José Manuel Hita Ruiz, " Pinturas murales de época islámica en Ceuta", *Aynadamar*, n°1, 2002, pp. 269- 313

437 - Zurara, in Ricard, Le Maroc septentrional, p. 16

438 - الأهواني، **ألفاظ مغربية**، 150؛ **مذاهب الحكام**، 247

وكـان يعتمـد لتوفير الإضـاءة علـى القناديـل. ولقد وصـلتنا عيّنـات جميلـة منها، تؤكد أناقة أثاث المنزل السبتي[439]. أما القناديل الزجاجيـة التـي نجد إشـارة إليها في القرن السابع/ 13 م، فلا يبدو أنهـا استُعملت علـى نطـاق واسـع، مثلهـا مثل الشموع التي كانت أكثر تكلفة، وأقل انتشاراً، والتي لم يكن يستعملها سـوى الأغنياء، وخصوصاً في الحفلات[440].

لقد كانت أزقة المدينة تغلق بـأبواب يقيم عليها حراس بالليل، يسمون محلياً باسم "**البياتين**"، وكانت "تجري عليهم الجرايات"[441]. وإذا صدقنا بعض المؤلفين، فإن أبواب المنازل السبتية كانت قصيرة وضيقة، وأغلبها كانت ملبسة بالحديد[442].

في ضواحي المدينة، وخاصة ببليونش، شيدت الأرستقراطية السبتية منـازل للراحة، عرفت باسم "**المُنية**". فالشريـف أبو العباس الحُسيني كـان يتـوفر علـى عدة مُنيات، مثل منية "العبا"، ومنية "الحافة"[443]. لكن منازل بليونش التي ما تـزال بقايـا بعضها قائمـة، كانـت محصنة بـأبراج مقببـة، وذات طـابع دفـاعي. ومـن الـراجح أن أشكال تلك المنازل هي أشكال قديمة، وتشبه منازل بادية غرناطة[444].

---

439 - Posac Mon, *Estudios*, Pl. 11-13 Fernandez Soeto E., *Sala Municipal de Arqueologia*, Ceuta, 1980, p1. 44-46

440 - **المقصد الشريف**، 101 يشير إلى قناديل من زجاج، وكذلك :
"Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", *Hespèris-Tamuda*, XXIV, 1986, p. 11

441 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 34

442 - نفسه، 9. Zurara, in Ricard," Le Maroc septentrional".
Damiao de Gois, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521*, Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal. éd. et traduction R. Ricard, Rabat, 1937, 148

443 - **أزهار الرياض**، ج 1، 33، 37؛ **مذاهب الحكام**، 247

444 - Terrasse H, "Quelque remarques sur les édifices de Beliounech", *Al Andalus*, 27, 1963, p. 218

3 - اللباس

من المؤكد أن اللباس كان يعكس الفروق الاجتماعية أكثر مما كان يعكسها الغذاء. فالزي يحمل من الدلالات والعلامات ما يفصح عن الاختلافات العميقة بين مكونات المجتمع السبتي. لكن المعلومات حول لباس السبتيين قليلة جداً. فنحن لا نتوفر على رسومات تبين لنا بعضاً من تلك الألبسة التي تشير إليها مصادرنا في بعض الأحيان، دون تحديد لشكلها، ولا للمواد الداخلة في صناعتها. فالنصوص تقتصر على وصف لباس هذا الفقيه أو ذلك العالم بكونها "حسنة"، أو "فاخرة"، أو "رثة". كما أن المصطلحات المستعملة للدلالة على اللباس غالباً ما يصعب تحديدها في غيبة سياق مفسر لها. إضافة إلى أن أغلب تلك الإشارات تتعلق باللباس الاستثنائي الذي لم يكن بطبيعة الحال هو اللباس الاعتيادي للسكان. لقد ترك لنا ابن سعيد[445] شهادة عن "فلسفة" لباس أبي القاسم عبد الرحمان العثماني، أحد كتاب ولاة سبتة، الذي "كان مشهوراً بالرفاهية"، وكان يثير الانتباه بتأنقه في لباسه، حتى أنه أصبح موضع تهكم السبتيين. فقد كان "له في ذلك حكايات محفوظة، وأمور عند أهل سبتة ملحوظة، منها أنه كانت له ثياب النزاهة، وثياب الحمام، وثياب العرس [...] لكل حال ما يليق بها".

ومن المؤكد أن لباس أهل البادية لم يكن هو لباس أهل المدينة. فابن سعيد يورد أن أحدهم "دخل على ابن زهر.. وعليه زي البادية، إذ كان يسكن بحصن سبتة، فلم يعرفه"[446].

445 - ابن سعيد، **اختصار القدح**، 196

446 - المقري، **نفح الطيب**، ج7، ص 9

إننا لا نعرف لباس السبتيات، وإذا كنا لا نتوفر على أية دراسة بهذا الصدد، فإننا نتساءل إن لم تكن الأندلسيات المتواجدات بكثرة بالمدينة، واللائي نعرف معرفة جيدة لباسهن[447]، قد أشعن طريقة لباسهن بين السبتيات.

ويظهر أن اللباس العادي كان يتمثل في قميص من قطن أو من صوف وسروال[448]. كما أنه غالباً ما تتم الإشارة إلى "الجبة". فتلك التي كان يرتديها الأغنياء كانت، دون شك، مصنوعة من الحرير ومطروزة، بينما اقتصرت العامة والمتصوفة على جبة من الصوف أو القطن. ومنذ أن توسعت العلاقات التجارية مع أوربا، بدأت الجبة تختفي لدى الطبقات العليا أمام الانتشار السريع للملف المستورد من البلدان المسيحية. ومع ذلك، فإن اللباس الفوقي المنتشر ظل هو "البرنس"، الذي كان السبتيون يسمونه "الغفارة"[449]. كما أن برانس قصيرة بطربوشها التي تغطي الرأس والكتفين لم تكن مجهولة لدى السبتيين، لأنها كانت تصنع بالمدينة، وتسمى "الكبوط"[450]. ومن المؤكد أن أرستقراطية المدينة كانت تتخذ فراء القلنية لباساً لها. فقد كان أهل الأندلس من المسلمين والنصارى يستعملون ذلك الفراء[451].

---

447 - Lévi-Provençal, *Histoire de l'Esagne Musulmane*, III, pp. 424-429. Arié R., "Quelque remarques sur le costume des Musulmans d'Espagne au temps des Nasrides", *Arabica*, XII, 1965. Idem, *L'Espagne Musulmane au temps des Nasrides*, pp. 382-387

448 - القاضي عياض، **المدارك**، 87، 175 يشير في ترجمة الفقيه السبتي ابن عبد الرحيم الكتامي، الذي ولاه يوسف بن تاشفين قضاء فاس، أنه أجبر سكانها على «لباس السراويلات نساء ورجالا ولم يكونوا يلبسونها قبل»

449 - الأهواني، **ألفاظ مغربية**، 300

450 - انظر، الفصل الخاص بالصناعة

451 - **نفح الطيب**، 198/1

وفيما يخص لباس الرأس، انتشر استعمال "العمامة"، وكذلك القلنسوة والشاشية[452]. أما بالنسبة للأحذية، فنلاحظ أن استعمال "القرق" كان منتشرا لدى النساء والرجال، وكذلك "البلغة". ولم تكن "الريحية" مجهولة لدى السبتيين. وفي الحمامات كان يستعمل القبقاب. أما الفقراء والمعدومون فقد كانوا يسيرون حفاة[453].

من بين أدوات التجميل نجد "الحنة"، التي استعملها الرجال والنساء على حد سواء. ولبست المرأة الخمار، بينما كانت الجواري سافرات.

هل كان هناك لباس خاص بمناسبة الموت؟ إحدى رسائل أهل سبتة بعد سقوط المدينة سنة 818 / 1415م تشير إلى أنه بعد دخول البرتغاليين للمدينة "لبس سكانها مسوح العهن والوبر والشعر، وقلبوا القلانس البوالي والنعال السود"، وتوجهت "نساؤهم بشمارير اللبد وسعف الدوم". كما كنّ أول من لبس "**الريحية**" ذات اللون الأسود، وهي التي بقيت سائدة بالمنطقة إلى السنين الأخيرة[454].

4 - الماء: تقنيات التجميع والتوزيع

من القضايا ذات الارتباط الوثيق بالمستوى المعيشي للسبتيين هناك مشكلة الماء. بل من المؤكد أن قضية الماء كانت من بين أهم المشاكل التي واجهت سكان سبتة في حياتهم اليومية. فكيف استطاع السبتيون توفير مادتهم

---

452 - **التعريف بالقاضي عياض**، 112؛ الأنصاري، اختصار الأخبار...م. س.، 40؛ ابن هشام، **ألفاظ**، 293

453 - Ferhat H., "Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", *Hespèris-Tamuda*, XXIV, 1986, p. 14

454 - رسالة منشورة على هامش **اختصار الأخبار**، ص 76-80

الحيوية؟ وكيف استعملوها وخزّنوها؟ وما طرق تجميعها وصرفها؟ وكيف تدخلت هذه المياه في إضفاء طابع خاص على المنشآت العمرانية بالمدينة؟

تعترض الباحث صعوبات جمّة عندما يحاول أن يتعرف على طرق تجميع المياه وتوزيعها بسبتة الإسلامية. وهذا موضوع دقيق مرتبط بالمرافق الأخرى الدينية والاقتصادية والعمومية للمدينة. فباستثناء نص فريد حول معالم المدينة، وهو "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار" لمحمد بن قاسم الأنصاري السبتي، الذي أفرده الباحثون ما يستحق من عناية؛ بحيث تعددت طبعاته، وترجم إلى لغات أجنبية عديدة، فإن النصوص المتعلقة بالجوانب المعمارية السبتية قليلة، ونكاد نفقدها فيما يخص موضوع الماء وتقنيات تجميعه وتوزيعه. فالنصوص العربية التي أولت اهتمامها للمسألة مرتبطة أساسا بمنطقة بليونش، إحدى متنزهات الأرستقراطية السبتية خلال العصر الوسيط. فقد أطنبت النصوص في وصف خصبها الزائد، ومتنزّهاتها وعيونها الجارية ووديانها... إلخ. أما قضية الماء بالمدينة نفسها، فإنها نادرا ما أثارت انتباه المؤرخين. كما أن شهادات الجغرافيين العرب بقدر ما هي قليلة، وتعيد بعضها البعض، فإنها متضاربة وتحتاج إلى تأويل، كما سيتبين لنا في حينه.

إن الغموض في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، وغياب التحريات الأثرية، هو الذي يفسر لنا تضارب آراء الباحثين المحدثين فيما يخص تموين المدينة بالماء. فالأستاذ جرمان عياش يرى أن المدينة "لم تكن تتوفر على ماء"[455]، وأن تزويدها به كان يتم من الخارج، أي من بليونش. بينما

455 - G. Ayache, "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", *Hespéris- Tamuda*, vol. XIII, 1972, p. 12

يؤكد أوغست موليبراس، الذي زار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر، أن "سبتة تتوفر على ميزة كبيرة مقارنة مع باقي المناطق التي تحتلها [إسبانيا] على الساحل الريفي : إنها مزودة بكثرة بالماء. فعيونها وخزانات مائها، وصهاريجها، تحميها من الموت عطشا"[456]. والواقع أن الرأيين في حاجة إلى تعديل. فلم يكن تزويد المدينة بالماء متوقفا على الخارج كلية، ولم يكن باطن شبه الجزيرة السبتية زاخرا بالمياه الجوفية.

أ) الموارد المائية الطبيعية :

من بين خمسة أمور يرى ابن خلدون أنه يجب مراعاتها عند اختطاط المدن، نجد أربعة منها كانت تنقص مدينة سبتة؛ وهي الماء وطيب المراعي والمزارع والشجر. بل إن صاحب "المقدمة" وضع مسألة المياه على رأس الأمور التي يجب مراعاتها في أوضاع المدن، "لجلب المنافع وتسهيل المرافق للبلد"[457].

فخلافاً للمدن الأخرى، لم يكن وجود مدينة سبتة مشروطاً بعنصر الماء. فالأرض التي تقوم عليها شبه الجزيرة السبتية مكونة من أحجار شستيّة مانعة لنفاذ المياه، ولا تسمح بخلق فرشات مائية مهمة تحت أرضها. إن قلة الماء كان إحدى الثوابت التي لم تقف حائلاً أمام تطور المدينة، لأن سكانها تمكنوا بوسائل متعددة من الحصول على المياه الضرورية. ومن المؤكد أن العيون التي كانت تتدفق في سبتة لم تكن تلبي كل حاجيات السكان. وباستثناء "عين ماء لطيفة، لكنها لا تجف البتة" أشار إليها الإدريسي بأعلى جبل الميناء[458]، فإن أغلب

456 - A. Moulièras, *Le Maroc inconnu*, t. II, Paris, 1899, p. 710
457 - ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت. 1992، ص 371
458 - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص 427

عيون المدينة لم تكن تقدم سوى صبيب ضعيف، وفي فترات محددة من السنة. وإذا كانت مصادر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تشير إلى عيون عديدة ذات صبيب ضعيف بشبه الجزيرة السبتية، وتجف في أغلب فترات السنة، باستثناء عين الميناء والقبة[459]، فإنه يصعب التسليم بكونها كانت موجودة كلها خلال العصر الوسيط.

ب) السقايات

يخبرنا الأنصاري في بداية القرن التاسع/ 15 م أنه كانت توجد بسبتة خمس وعشرون سقاية عمومية. وضمن هذا العدد يجب على الأقل إدخال بعض العيون التي كانت تقع داخل المدينة أو بالأرباض. والملاحظ أن أغلبية السقايات التي يذكرها الأنصاري في كتبه "اختصار الأخبار"، كانت **سقايات اصطناعية**، بمعنى أن الماء لم يكن ينبع منها مباشرة، بل كان يجلب إليها إما بواسطة القنوات، أو أنها كانت عبارة عن جباب تخزن مياه المطر. ونذكر من بين سقايات سبتة :

- **سقاية باب الشواشين** : لا يطرح موقعها على الخارطة الحالية لسبتة مشكلا، كانت تقع بازاء باب الشواشين، من أبواب جامع سبتة (الكاتيدرائية حاليا) بطرف العطارين (شارع *O'Donnell* حاليا)، وأول سماط العدول (شارع *Jaudenes* حاليا). ولقد اعتبرها الأنصاري " أبدعها صنعة ووضعا [...] ذات

459 - Gozalbes Cravioto C, "El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval", *Boletin de la Asociación Española de Orientalistas*, VII, 1981, p. 229-230; Idem, "El agua en la Ceuta medieval: obtensión, almacenamiento y distribución", *I Congreso de Historia y Medio Fisico, El agua en zonas áridas : arqueologia e historia*,1989, pp. 779-796

Idem, "El agua de Ceuta medieval", *Transfretana,* V, 1993, p. 62-63

العنابيب النحاسية والألواح الرخامية، والزخرفية والتنميق"[460]. وقد تم اكتشاف صهاريج كبيرة مزدوجة ومتصلة ببعضها البعض في شارع *Independencia* و *Jaudenes* يبدو أن لها ارتباطا مع هذه السقاية، أو مع الحمام المجاور للجامع[461]. ومع ذلك، فإن المكان الذي توجد فيه هذه السقاية هو عبارة عن طبقة سميكة من الحجر الشستي الذي يمنع تكوين أي حوض، أو إمكانية توفير جيوب مائية في أي فترة من السنة. لذلك يفترض أن هذه السقاية كانت تزوّد بواسطة قناة "الأقواس المنحنية" الآتية الذكر[462].

- **سقاية جب الميناء** : يخبرنا الأنصاري أنه من بين السقايات المعدة لسقي الدواب، من الخيل وغيرها "سقاية جبّ الميناء، العظيم الهيكل" الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي. لقد كان عبارة عن " صهريجين مشتركين، يمد أحدهما الآخر، قد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشا بألواح الصخر المنجور أتم إحكام وأكمله"[463]. يمكن القول أن جب الميناء كانت مفتوحة، وتجمع مياه الأمطار المنحدرة من جبل المينا (جبل هاشو حاليا). لذلك، فإنها لم تكن صالحة للشرب إلا في الحالات الاستثنائية.

- **سقاية القبة** : كانت سقاية القبة تقع، حسب الأنصاري، بالربض البراني، وهي عبارة عن " صهريج مستطيل متصل ببئر قريبة التناول، طيبة الماء، وعليها قبة على أربعة أعمدة، وإلى جانبها آثار متعددة للسبيل، وربما بلغ

---

460 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 40؛ Gozalbes, El agua… op. cit. p. 63

461 - C. Posac Mon, " La arqueológia en Ceuta entre 1960 y 1970", *Noticiario Hispanico Arqueológico*, XV, 1971, p. 233

462 - نفسه

463 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، ص 40

الثمانين"[464]. هذه السقاية تطابق بلا شك عين "*Chafaris*" البرتغالية، أو عين "*San Antonio*" التي تظهر في عدة خرائط إسبانية وبرتغالية، وتوافق حاليا "حدائق الجمهورية الأرجنتينية". إن هذه السقاية بآبارها الثمانين، دفعت بعض الباحثين إلى افتراض أنها آبار لها علاقة بشبكة هدرولوجية تحت- أرضية، تربط البئر الرئيس بالآبار الأخرى التي قد تكون حُفرت على مسافات مشابهة[465]. إلا أن الأبحاث الأركيولوجية لم تؤكد بعد هذا الافتراض.

ج) نقل المياه

تتضارب نصوص المؤرخين والجغرافيين العرب عندما تتعرض لطرق نقل المياه بمدينة سبتة الإسلامية. ففضلاً عن النقولات التي لا تأخذ بعين الاعتبار تطور تقنيات النقل المستعملة بالمدينة، فإن المصادر تذكر، عندما لا تلوذ بالصمت، استعمال "الشواني" أو "الشواتي" أو "الظهر" في عملية نقل المياه. وطرق النقل هذه تظل غامضة في غيبة سياق مفسر وموضح لها[466]. فابن حوقل يقول إن ماء المدينة "من داخلها يستخرج من آبار بها معين، ومن خارجها أيضا"[467]. أما البكري، فيذهب إلى أن "حماماتها يجلب إليها الماء على

---

464 - نفسه

465 - Gozalbes, El agua…op. cit., p. 63

466 - ابن حوقل (**صورة الأرض**، بيروت، 1963، ص 79) يقول: إن ماء المدينة«من داخلها يستخرج من آبار بها معين ومن خارجها أيضا» أما البكري، فيذهب إلى أن «حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر» **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، نشر دي سيلان، باريس، 1965، ص 103 بينما يخبرنا ابن عذاري بأنه «يجلب الماء إلى حماماتها من البحر»، **البيان المغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال... الجزء الأول، 202؛ في حين يرى العمري (ص 137-138) أن «شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر من بليونش وغيرها» وأن «حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواتي» بينما ينتقل القلقشندي قوله «الماء يجلب إليها من الشواني حتى للحمامات التي بها»

467 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، 1963، ص 79

الظهر من البحر"[468]، بينما يخبرنا ابن عذاري بأنه " يجلب الماء إلى حماماتها من البحر"[469]؛ في حين يرى العمري أن شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر من بليونش وغيرها"، وأن "حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواتي"[470]، بينما ينقل القلقشندي عن غيره قوله : "الماء يجلب إليها في الشواني حتى للحمامات التي بها"[471].

وبما أن العيون السبتية كانت تعطي صبيباً لا يغطي بتاتاً احتياجات السكان، فقد وجد منذ العهود القديمة، ضرورة جلب الماء من الحقول الخارجية عن طريق **مجرى مائي اصطناعي**. إن بقايا قناة مائية بنواحي سبتة تطرح بعض المشاكل في وجه المؤرخين والأركيولوجيون. فعلى بعد بضع كيلومترات من سبتة، في اتجاه "الحدود" المصطنعة مع المغرب، وعلى مقربة من جدول "*Las Bombas*" بالقرب من شاطئ "طاراخال"، توجد بقايا قناة أطلق عليها اسم "الأقواس المنحنية" *Arcos Quebrados*. إن بقايا هذه القناة ما تزال بادية لحد الآن، وهي عبارة عن ركيزة للقوس الرئيسي، علوها حوالي 15 متر، وبجانبها بقايا ثلاثة أقواس أخرى فقط. وقد ظل قوس واحد منها - وهو أصغرها- قائما. إن تركيب القناة غير منظم، فهي مكونة من أحجار مشذبة في الزوايا، ومضمومة لبعضها البعض بملاط كلسي[472].

---

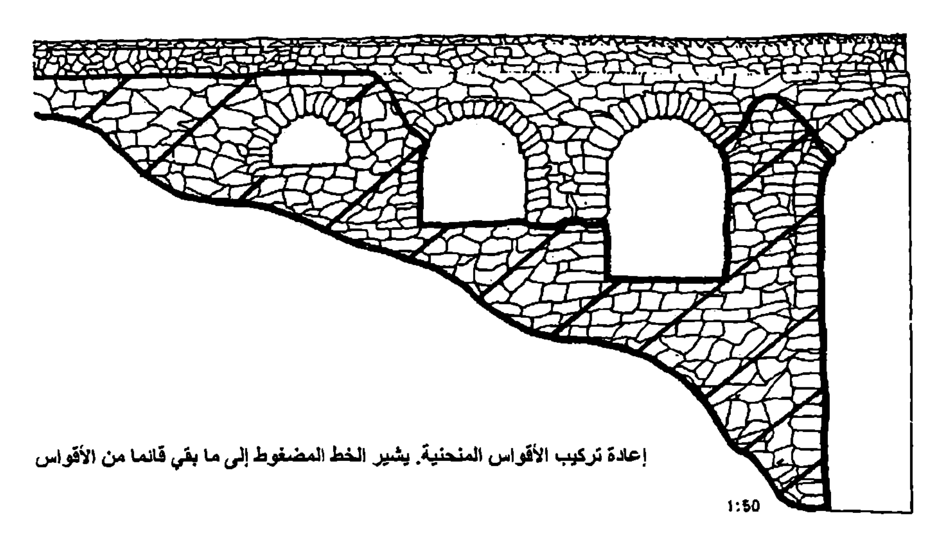
468 - أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، نشر دي سلان، باريس، 1965، ص 103

469 - ابن عذاري، **البيان المغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، ج 1، ص 202

470 - ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر) تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988، ص 137- 138

471 - القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 5/ 153

472 - Posac Mon C., "El acueducto romano de Arcos Quebrdos", *Segovia y la Arqueologia romana*, Barcelone,1977, pp. 325-327



إعادة تركيب الأقواس المنحنية. يشير الخط المضغوط إلى ما بقي قائما من الأقواس

ترجع القناة من الناحية الأركيولوجية إلى الفترة الرومانية المتأخرة، أو إلى الفترة البيزنطية. ويُعتقد أنها بنيت في فترة كانت فيها سبتة موضوع صراع بين السلطة الفيزيقوطية والسلطة البيزنطية[473]. إن موقعها كان سيكون مستحيلا عندما تتعرض المدينة لهجوم من ناحية الجنوب، أي من الناحية القاريّة. فهل كان الخطر الوحيد الذي تعرضت له المدينة طيلة العصور القديمة يأتي من جهة البحر فقط؟

لقد كان للـ"الأقواس المنحنية" تخطيط ملتو. فهي بذلك يجب أن تسير بمحاذاة البحر. إن أول ذكر لهته القناة في النصوص العربية يرجع للبكري الذي أشار إلى ذلك المنحى عندما يقول إنها كانت تسير "مع ضفة البحر القبلي"[474]، وبالتالي فمن الممكن أنها كانت تخترق الربض البراني. إن قربها من البحر هو الذي يفسر لنا قول ابن عذاري بأن ماء المدينة " يجلب إلى حماماتها من البحر"، أو قول العمري بأن "شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر".

473 - Gozalbes, El agua…op. cit., p. 66

474 - البكري، 104

من جهة أخرى، يخبرنا البكري بأن ماء سبتة كان يجلب "من نهر أويات مع ضفة البحر القبلي في قناة إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع"[475]، أي المنطقة الوسطى لسبتة. ونعتقد أنه انطلاقاً من هاته المنطقة الوسطى كانت القنوات الصغرى توصل الماء الشروب إلى السقايات الأخرى بالنواة الحضرية.

ويبدو أن هذه القناة لم تعد تلبي كل حاجيات المدينة المائية المتزايدة بتزايد عدد سكانها، وتوسع نسيجها الحضري؛ أو أنها تعرضت للتلف، الأمر الذي استدعى ضرورة البحث عن وسائل أخرى لجلب المياه للمدينة. ففي القرن السادس/ 12 م يخبرنا صاحب كتاب "الاستبصار" أن الخليفة الموحدي، أبا يعقوب، أصدر أوامره سنة 580 [1181 م] "بجلب الماء إليها من قرية بليونش المذكورة على ستة أميال من سبتة، في قناة تحت الأرض، حسبما جلبه الأوائل في قرية قرطاجنة وغيرها، وشرع في العمل، فعرضت أمور أوجبت التربص إلى حين يأذن الله تعالى بذلك، والرجاء الآن مؤمل، ونحن في سنة 87[5]"[476]. وإذا كنا لا نعرف مصير المشروع الموحدي، فإن بليونش التي كانت مقصد العائلات السبتية الميسورة خلال فصل الصيف، هي التي كانت تتوفر على مياه غزيرة. إن الأبحاث الأركيولوجية توضح وجود نظام واسع ومعقد للزراعة ولتخزين المياه بهذه المنطقة[477].

---

475 - نفسه

476 - **مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 137

477 - Cressier P. (et al.). *El urbanismo rural de Belyounech*, op. cit., pp. 327- 349
H. Terrasse, Recherches archéologiques d'époque islamique en Afrique du Nord, *Compte rendu de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de 1976*, Paris, 1977, pp. 590- 611

د- أساليب أخرى لاستخراج المياه وجلبها

ولم يكن جلب الماء من بليونش العملية الجديدة، ولا الوحيدة، التي لجأ إليها السبتيون للحصول على الماء، فقد وجدت طرائق أخرى لاستخراجه. يتعلق الأمر بماء البحر المستعمل في الحمامات كما يستشف من شهادات البكري، والعمري والقلقشندي، السالفة الذكر.

ومن المحتمل أن يكون الأمر المتعلق **بنظام الناعورات الرافعة للماء** والتي تحركها الدواب، بحيث تستخرج المياه من البحر وتصب في المصاريف التي توزعها بدورها على الصهاريج والحمامات. ويشير الأنصاري إلى هذه الطريقة، ولا شك، عندما يخبرنا أن الميضأة الكبرى، ميضأة الجامع الأعظم، كان يجلب إليها الماء **بالدواليب**. كما أن المقري يشير إلى نفس التقنية في معرض حديثه عن مآثر الشريف أبي العباس الحسني، إذ يقول : " وله بسبتة آثار تحكي الآثار العزفية، كالرياض الأعظم الذي أمام باب الميناء الأسفل، الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنعته، وجلب إليه الماء **بالدواليب**، حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة"[478].

هذا، وقد استعملت طريقة أخرى أشار إليها كل من العمري، وأبي الفدا، والقلقشندي، وهي حمل الماء بواسطة المراكب. وأخيراً فإننا لا نعدم وجود **السقائين** الذين يحملون المياه على أكتافهم، أو على دوابهم[479] بسبتة في العصر الوسيط.

---

478 - المقري، **أزهار الرياض**، ج 1/39-40

479 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 43

هـ - تخزين الماء: الأحواض والصهاريج

لقد أشار ابن حوقل إلى استعمال الآبار بسبتة منذ القرن الرابع الهجري/ 10م[480] قائلا : " وماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين"[481]، ولكن نادراً ما كانت هذه الآبار تعطي مياهاً غزيرة. وفي كل الحالات كان ماؤها أجاجاً ورديئاً. فقد وصف ابن الخطيب آبار المدينة بكونها "غير بكيّة"، ولا غزيرة[482].

ولا تشير مصادرنا إلى استعمال الخزانات والصهاريج لتخزين مياه الأمطار وجلبها إلا ابتداء من القرن السابع/ 13 م. فقد أشار إليها كل من أبي الفدا والعمري والقلقشندي والأنصاري. فالعمري يقول : " وفي داخلها صهاريج من ماء المطر"، أما أبو الفدا والقلقشندي، فيؤكدان أن ماءها مجلوب، "ولها صهاريج من المطر"[483]

ويبدو أن الصهاريج والجباب أصبحت لها أهمية كبيرة في المدينة، حتى صارت كتب التواريخ تحرص على تسجيل سنوات إنشائها، وتعدها من المنجزات التي تستحق التنويه. فالأنصاري يتحدث عن سقاية "جب الميناء العظيم الهيكل الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي، وخلده أثراً غريباً بعده"[484]. بينما سجل صاحب "الذخيرة السنية" بناء الفقيه العزفي للجب بأسفل الميناء من مدينة سبتة ضمن أهم أحداث المغرب سنة 654 هـ/1256م[485]. بل

480 - ابن حوقل، **صورة الأرض**، 79
481 - نفسه
482 - ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، 146
483 - القلقشندي، 157؛ العمري، 137- 138؛ أبو الفدا، **تقويم البلدان**، 133
484 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 40
485 - مجهول، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط، 1972، ص 82

إن المطامير التي استعملت على نطاق واسع بالمدينة لتخزين الحبوب، كانت في بعض الأحيان تستعمل لخزن المياه، كما توضح ذلك نتائج الأبحاث الأركيولوجية[486].

أما المؤرخون البرتغاليون، فقد أشاروا كذلك للصهاريج. فـ "زورارا" يخبرنا أنه كانت توجد "صهاريج وسقاية قرب الباب المسماة باب المينا، التي تشرع على الربض الشرقي نحو جبل هاشو الحالي"[487]. وقد ترك لنا أحد الكتاب البرتغاليين وصفاً لأحد هذه الصهاريج، بما ينمّ عن أهميتها في تزويد السكان بالماء الشروب. يقول : "إنه صهريج جميل وكبير، مقبب، ويحتوي على أكثر من ثلاثمائة عمود من حجر. وسطه كله مغطى بالزليج أو بالآجر المزلج". وبعد أن يشبه هذا الصهريج بقرية من خمسمائة نسمة، يخبرنا أن "المسلمين كانوا يجمعون في هذا الصهريج كميات هائلة من المياه، بالإضافة إلى العيون التي تتدفق بالمدينة". ويبدو أن سلطات المدينة لم تتكلف وحدها بنفقات صيانة هذا الصهريج، لأن "كل السفن التي تأتي إلى هنا وتريد أن تتزود بالماء، كانت تؤدي قدراً معيناً لإصلاح هذا الصهريج"[488]. ويبدو أن هذه المعلمة قد تعرضت للتلف قبل بداية القرن التاسع/ 15 م، لأن الأنصاري لم يشر إليها بتاتاً في اختصار أخباره، رغم حرصه على الإشادة بمآثر المدينة، القائمة منها والمندثرة.

ومن بين أهم الصهاريج المائية التي كانت تزود سكان المدينة بالماء، نشير بصفة خاصة إلى صهريجين كبيرين على مقربة من الجامع الكبير،

---

486 - Posac Mon., *Datos para la arqueologia*, op. cit. p. 161

487 - Ricard R., *Le Maroc septentrional*, op. cit. 9-10

488 - Valentin Fernandez, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal*, Traduction par P. de Cenival et T. Monod, Paris, 1938, 21

أحدهما كان يجمع مياه الأمطار، لكن ليس فقط عن طريق فتحة الجب، وإنما بواسطة طريقة معقدة لصرف المياه. أما الصهريج الآخر فكان يجمع المياه المنقولة بواسطة قناة الأقواس المنحنية[489].

ونتوفر على مثال لصهريج كبير عُثر عليه في سراديب إحدى البنايات في بداية شارع *Jaudenes*، وقد درسه الباحث الأركيولوجي الإسباني، كارلوس بوساك مون[490]، كما عُثر على صهريج آخر يتكون من مستودعين مستطيلين ومتصلين ببعضهما[491].

إن هذه الصهاريج كانت لها علاقة - ولا شك- بقاعة وضوء الجامع الكبير، أو بقاعة المدرسة الجديدة، أو بالحمامات الملحقة بها. كما إن كثيرا من هذه الصهاريج كانت توجد قرب جبل المينا، لاحتواء المياه السيالة من سفوحه. ويشير الأنصاري بدوره إلى " صهريجين مشتركين يمد أحدهما الآخر" بجبل المينا[492].

و- ترشيد استعمال الماء بسبتة: التخصص في الاستعمال

على عكس المناطق التي يتوفر بها الماء بكثرة، والتي كانت تستعمل نوعية واحدة من الماء في جميع الاستعمالات والوظائف، فإن قلة الماء في سبتة دفعت بالسكان إلى الاستفادة من جميع أنواع المياه الموجودة، وإلى استغلالها حسب نوعيتها، مما خلق نوعاً من التخصص في وظائفها. لقد استُعمل صنفان أساسيان من المياه في الحمامات وفي البيوت الميسورة، وكذا

---

489 - Gozalbes, *El agua..*, op. cit.. 69

490 - C. Posac Mon, *Estudio arqueológico de Ceuta*, Ceuta, 1962, 43

491 - Idem

492 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، ص 40

في ريّ البساتين داخل المدينة نفسها[493] : الماء الشروب وماء البحر. لقد كان ربض المينا في هوامش جبل المينا نفسه، يستفيد من مياه الأمطار ومياه الآبار التي كانت توجد هناك بلا شك. كما كان يتم الحصول على الماء المخصص للشرب وللحمامات كذلك من الجباب والآبار التي كان تتوفر عليها أغلب المنازل السبتية[494]. وعندما تجف الآبار في فصل الصيف، كان يتم التزود من العيون أو من الصهاريج الكبيرة التي كانت توجد بجوار الجامع الكبير. وفي هذا الصدد، يشير "بوساك مون"، وهو يستند على أبحاثه الأركيولوجية، أن منازل سبتة كانت تتوفر على بساتين ملاصقة لها، تجري إليها المياه بواسطة سقايات صغيرة، أو في أنابيب من الرصاص والطين. إن أغلب المكتشفات الأثرية المتعلقة بفوهات الآبار تم العثور عليها بمنطقة الربض الأوسط[495].

ولقد أشارت المصادر - التي تجمع على أن حمامات المدينة كانت تستعمل مياه البحر - إلى هذا التخصص. من جهة أخرى نجد الأنصاري يلمح إليه في معرض حديثه عن مياه أحواض جبل المينا، التي لم تكن كلها شروباً. فهو يشير إلى "السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها"، وعلى رأسها سقاية جب الميناء، "العظيم الهيكل المشهور"[496].

من جهة أخرى نجد أن كثيراً من الصناعات تحتاج إلى كميات هائلة من الماء، مثل الطاحونات المائية، والمقاصر، والدباغة، إلخ. ويستنتج من "اختصار الأخبار" أن جميع مرافق المدينة الصناعية كانت تتوفر على كميات

---

493 - يشير زورارا إلى المنازل ذات البساتين في الطرف الغربي، بين المدينة وأفراك.
انظر : R.Ricard, *Le Maroc septentrional*.. op. cit., p. 11
494 - Posac Mon, *Estudio arqueológico de Ceuta*, p. 43
495 - نفسه، 45
496 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 40

كافيـة مـن الميـاه. فهـو يـشير إلـى أن غالبيـة مقاصـر المدينـة كانـت توجـد قـرب "القالات"، التـي كان الماء يجري فوقها داخل قواديس[497]، أما طـواحين المدينـة، فقد كانت جميعها بمياهها، "لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء، ولا من غيره أصلا"[498]

بفـضل هـذه التقنيـات، وبفـضل التخـصص فـي اسـتعمالهم للميـاه حـسب الحاجة، نجح سكان سبتة فـي التغلب علـى مشكلة قلة المياه بمدينتهم. بل إنهم نجحوا في تزويد جميع المرافق بالمـادة الأساسية حسبما يستخلص مـن وصـف الأنصاري لسبتة في القرن التاسع/ 15م. إنه وصف يترك الانطباع لدى القارئ بأن مـشكل المـاء كـان قد وجد الحل بـصورة نهائيـة بكل أنحـاء المدينـة، وعلـى جميع المستويات. فهو عندما يتطرق للمرافق المحتاجة للميـاه، مثل السقايات والميضآت والمقاصر وغيرها، يقدم لنا عنها وصفاً لا يدع مجالاً للشك في وفرة المياه بالمدينة. فعند تعرضـه مـثلاً للحمامـات بالمدينـة يقول : "وعدد الحمامـات المبرزة للناس اثنان وعشرون حماماً"، ويـصف حمـام القائد بكونـه "بلـغ الغايـة في الكبر، يسع المئين من الناس". أما "حمام عبود بناحية المينـاء [فكـان] نظيـر حمام القائد فـي الـضخامة والهيكـل"، كمـا كـان "بالقصبة عشرة حمامـات"، بـل كان "بكل دار من ديار سبتة حمام ومسجد إلا القليل". أما بخصوص الطـواحين المائة والثلاث فإنها كانت جميعاً "بمياهها فيها لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء مـن سـقاء ولا مـن غيـره أصـلا". ويخـتم الأنـصاري شـهادته بـالقول : "وكـذلك

497 - نفسه، ص. 49- 50
498 - نفسه، 43

جميع مساكن سبتة، حيثما كانت بأقطار المدينة، حتى ذلك موجود في المصريات والعليات المحملة"[499].

لقد عرف السبتيون كيف يحصلون على الماء، وكيف يخزنونه، حتى أصبحوا من مهرة استعماله. لقد تم تجاوز مشكلة الخصاص في الماء بطريقتين : تنويع طرق الحصول عليه بشكل يضمن أقصى غزارة ممكنة، ولو عن طريق الحصول على كميات صغيرة. ومن جهة أخرى، تحقيق ما يمكن أن نسميه بالتخصص في وظيفة كل نوع من أنواع المياه، مع ترشيد استغلالها على أحسن وجه.

أما بنية توزيع الماء بسبتة خلال العصر الوسيط، فقد ظلت صالحة لتزويد المدينة بالمادة الحيوية طيلة العصر الحديث والمعاصر[500]. وإلى حدود بدايات القرن العشرين، كانت البنية الوسيطية كافية لتلبية حاجات سكان شبه الجزيرة السبتية.

ومن الثابت الآن أن عملية تنظيم شبكة المياه من أهم العوامل التي ساعدت على إنشاء العديد من المنشآت المعمارية التي كانت تزخر بها مدينة سبتة الإسلامية. فالسقايات والميضآت مثلاً، تعتبر أشكالاً معمارية ذات قيمة فنية وزخرفية أضفت رونقا على الطرق العامة بالمدينة، ومنشآتها العمومية والخصوصية[501].

---

499 - الأنصاري، **اختصار الأخبار**...م. س.، 34-35، 39-41، 43، 49-50

500 - Gozalbes Cravioto, "*El abastecimiento de agua*", op. cit. 238

501 - إن وصف الأنصاري يفصح جليا عن هذه العلاقة بين الماء والزخرفة المعمارية. يصف لنا حمام القائد ناصح قائلا : "وهذا الحمام... قائم على أعمدة الرخام، مفروش بألواحه الساطعة البياض، والمسلخ متسع الساحة... وسقفه قبة مرتبة متقنة على أربع حنيات، وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض، وفي وسط الصهريج سارية مجوفة، فوقها

IV - الأعياد

إدخال الاحتفال بعيد المولد النبوي

إلى جانب العيدَيْن الدينيين، عيد الفطر وعيد الأضحى، احتفل السبتيون بعيد آخر غير محددة بوضوح طبيعته ومقتضياته (مبدئياً صيام وصدقة) : إنه عاشر محرم أو "عاشوراء". أحد متصوفة المدينة كان يصنع الطعام للفقراء في هذا اليوم، ويكثر من الإنفاق عليهم، واعتاد على ذلك الاحتفال، ولم يكن يتركه ولو اضطر للاستدانة[502]. وكانت النساء يشاركن بكثافة في هذا العيد، دون أن يثير ذلك حفيظة الفقهاء[503]. لكن هذا العيد سرعان ما خبا بريقه مع بداية الاحتفال بعيد المولد النبوي. كما أن ليلة السابع والعشرين من رمضان كانت مناسبة لإقامة "السماع والرقص" والذكر في المنازل والمساجد[504].

لقد احتفل السبتيون كذلك ببعض الأعياد الموسمية المعروفة بأسمائها الفارسية، مثل : "النيروز" (أو النوروز)، و"المهرجان" (أو العنصرة) الذي له علاقة بالنبي يحيى بن زكريا. ولم يكن يُحتفل به في شهر سبتمبر، كما كان

طيفور من الرخام الموصوف يصعد الماء في جوف السارية إلى أن يفور في الطيفور، وفيضه يملأ الصهريج" (ص 34- 35). أما ميضأة المدرسة الجديدة، فيقول عنها (ص 141) : " تحتوي على بيوت ثمانية ومطهرة كبيرة، وفي كل منها نقير من الرخام يصب فيها ميزاب من النحاس، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج الملون، وقبتها مونقة، ومن بعضها صنائعها نور البابونج يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصنعة، ويجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب". أما سقاية باب الشواشين، فكانت أبرع سقايات المدينة "ذات العنابيب النحاسية والألواح الرخامية والزخرفية والتنميق" (ص 40)

502 - **التشوف**، 271

503 - "Un nouveau document sur la grande mosquée de Sabta", p. 7-14

504 - **البيان المغرب**، 397

الحال في المشرق، وإنما في 24 يونيو من تقويم جوليان. وإلى هذين العيدين يجب أن يُضاف عيد يناير[505].

إن المصادر تبيّن أن النيروز كان مناسبة لإقامة الزواج، وكانت العادة أن تصنع حلويات بهذه المناسبة على شكل مدائن مسيجة. أما فيما يخص المهرجان، فإن الطابع السحري - الديني الذي كان يرافق طقوسه الشعبية، قد أضفي عليه طابع الغرابة والطرافة. فقد كانت توقد النار، وكانوا يضعون "جمارة تحت أسرتهم تفاؤلا وأمارة ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجمارة"، ويرشون المنازل بالماء، وتلقى أوراق الكرنب في الملابس، ولا يغتسل في ذلك اليوم، ويتم إخراج الملابس لتبتل ليلاً... إلخ[506].

لقد صدمت هذه الاحتفالات والطقوس المصاحبة لها - فضلاً عن الإقبال الذي كانت تلقاه لدى سكان المدينة - الفقيه أبو العباس أحمد العزفي. فقد كان السبتيون المعاصرون لفقيهنا "يعظمون شأن البدع الثلاث : الميلاد، وينير، والمهرجان [...] فهم يرتقبون مواقيتها، ويفرحون بمجيئها [...] واستسهلوا هذه البدع حتى ألفوها وعظموها، حتى صارت عندهم كالبدعة المتبعة". وكانت الحوانيت تغلق أبوابها وكذلك القيسارية وسوق العطارين، وجميع من "لا يبيع ما يحتاجون إليه" في تلك المناسبة؛ مع ما "في ذلك لضعفائهم من الدلالين وغيرهم قطع المعايش، وتعذر الأرزاق". كما كانوا "يطلقون الصبيان من المكاتب". وقد رأى العزفي أن "من أعظم أسباب هذه البدعة وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها، والتفخيم لشأنها، وانقيادهم لهن في

---

505 - حول جميع هذه الأعياد، انظر العزفي، **الدر المنظم**، 1-3

506 - نفسه

ذلك عاماً بعد عام، حتى رسخت في صدورهم، وتصورت في عقولهم، وتاقت إليها أنفسهم".

وحسب الفقيه العزفي فإن الأندلسيين كانوا قد تأثروا بأعياد النصارى بسبب مجاورتهم لهم، ومخالطتهم لتجارهم : "وما سرى ذلك إلى هذه العدوة، إلا بالاتباع لهم والقدوة، وما عبر من ذلك البر [الأندلس] إلى هذا البر [المغرب] بدعة أشنع منها ولأضر".

إنها الأسباب التي دفعت أبا العباس العزفي إلى تأليف كتابه "**الدر المنظم، في مولد النبي المعظم**"[507] ، لدعوة بلدييه للتخلي عن مجاراة النصارى في احتفالاتهم، وتنبيههم على عيد ميلاد نبيهم المصطفى.

على المستوى العملي قام الفقيه بتلقين ذلك للنشء الصغير، لأن ذلك أنجع وأنفع. "فأخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسبتة، ويشرح لصغارها مغزى هذا الاحتفال، حتى تسري ذلك لآبائهم وأمهاتهم بواسطتهم"[508]، ثم دعا إلى تعطيل الصبيان يوم هذا المولد.

ولقد أكمل ابنه أبو القاسم محمد العزفي تأليف الكتاب، وعندما وصل إلى حكم المدينة سنة 648 هـ/1250 م قرر، في نفس السنة، الاحتفال **لأول في تاريخ الغرب الإسلامي**، بعيد المولد النبوي، ليصبح بذلك **أول من أدخل** هذه المناسبة الدينية ذات المضاعفات السوسيو - دينية الكبيرة في تاريخ المغرب. ولقد أهدى كتابه للخليفة الموحدي، المرتضى(توفي 665 هـ/1266م)، الذي

---

507 - توجد منه نسخ في كثير من الخزانات، وقد قامت بتحقيق جزء منه فاطمة اليازدي وقدمته لنيل دبلوم الدراسات العليا - كلية الآداب، الرباط، 1987). ونشر مقدمته مع ترجمتها الإسبانية

F. de la Granja, "Fiestas cristianas en al Andalus", *Al Andalus*, XXXIV. 1969

508 - المنوني، **ورقات**، 268

أصبح يحتفل بعيد المولد النبوي في مجالسه الخاصة، مسجلاً بذلك "تباعداً إيديولوجياً" واضحاً مع المهدوية[509].

وتم تعميم الاحتفال بهذا العيد رسمياً بالمغرب المريني في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف، سنة 691 هـ/1292م، بإشارة من الفقيه أبي طالب العزفي، ابن أبي القاسم، أمير سبتة في هذا التاريخ[510]. وتحت حكم السلطان المريني أبي سعيد سينضاف الاحتفال باليوم السابع لمولده (ص)، وبعد ذلك تكلفت الدولة بنفقات الاحتفالات بليلة المولد في سائر مناطق المغرب[511].

على المستوى الشعبي، أصبح الاحتفال بعيد المولد في سبتة مناسبة لتوزيع الطعام، وتعطيل الدراسة، وإغلاق الحوانيت والصنائع. وكان الناس "يمشون في الأزقة يصلون على النبي، عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي، عليه السلام، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام"[512].

ومن المؤكد أن الاحتفال بعيد المولد قد كرس الوضعية الممتازة للشرفاء بالمدينة. ويمكن التساؤل إن لم يكن الشرفاء الحسينيون هم الذين يقفون خلف هذه المأثرة السبتية التي كان بنو العزفي أداتها المنفذة.

---

509 - **البيان**، 446 - Kably, *Société*, 286

510 - يقول ابن مرزوق الخطيب أن أبا يعقوب المريني هو "أول ملك قام بالمغرب بإقامة ليلة المولد الشريف؛ وكان العزفي، رضي الله عنه، قد أقامه بسبتة، **وبه وقع الاقتداء**"، انظر: **المناقب المرزوقية** لأبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري. أطروحة لنيل الدكتوراة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2004، القسم الثاني، ص 211 (نسخة مرقونة)

511 - المنوني، **ورقات**، 268

512 - **البيان المغرب**، 398

أمـا المتـصوفة والعامـة، فقـد كـانوا يهتمـون اهتمامـاً كبيـراً بهـذا اليـوم، ويشاركون فيه بحماس. إن هذا الارتباط الوطيد بالمتصوفة هو الذي يفسر ذلك الانتشار السريع لظاهرة الاحتفال بعيد المولد. فبهذه المناسبة، كان الولي السبتي الكبير، أبو مروان عبد الملك اليحاسني، يصنع لمريديه الطعام، وتقام ليالي السماع[513].

ومع ذلك فإن المولد قد أثار معارضة بعض العلماء، باعتباره "بدعة". لكن هذه المعارضة لم تكن تنتقد سوى المظاهر الخارجية للاحتفال، وخاصة تلك المرتبطة بالممارسة الصوفية (رقص، سماع واستعمال آلة اللهو) عند الاجتماع في ليلة المولد... كما أن هناك من أنكره خيفة وقوع "المناكر، واختلاط النساء والرجال"[514]. وعندما ترسخ العيد في التقاليد الدينية، لم يجد المدافعون عنه صعوبة في إيجاد نوع من "الإجماع" عليه وعلى فوائده. فتتم الإشارة إلى الخدمات التي يسديها عن طريق إطعام الفقراء، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وقراءة القرآن؛ وإلى مظاهر الفرح التي يدخلها على القلوب؛ فرحة كان الفقيه المؤسس يريدها أن تمس قلوب الأطفال قبل كل شيء. أما الدفاع عن الموسيقى واستعمال آلات الطرب، فمهمة تولاها عالم المدينة، ابن الدراج السبتي، وذلك في كتابه "**الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع**"[515]. والجدير بالذكر أن ابن الدراج لم يكن غير تلميذ الفقيه أبي العباس العزفي، وكاتب أميرها أبي القاسم العزفي.

---

513 - البادسي، **المقصد الشريف**، 100-101

514 - ابن عياد، مذكور في المنوني، **ورقات**، 280-281

515 - ابن الدراج السبتي، **الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع**، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، 1981

إن الاحتفال بعيد المولد قد غطى، من دون شك, على ما سواه من أعياد موسمية. ومع ذلك فإن هذه الأخيرة لم تمنح تماماً. ففي بداية القرن الثامن/ 14 م ذكر ابن عباد الرندي أن الأمير العزفي "لم يبلغ كلية غرضه في إبطال أمر النيروز والمهرجان"[516]. وفي نفس الفترة نجد كاتباً يؤلف مؤلفا يدافع فيه عن النيروز[517].

516 - ابن عباد، ذكره محمد بن شريفة، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق محمد بن شريفة، فاس، 1971، 241

517 - ابن فرحون، **الديباج المذهب**، القاهرة، 1351 هـ، 304

خاتمة[518]:

في صبيحة يوم الأربعاء 14 جمادى الثانية من عام 818 هـ (21 غشت 1415م) غزت البرتغال مدينة سبتة، الثغر التاريخي في علاقات المغرب ببلدان شبه جزيرة إيبيريا، وبوابته الرئيسية على عالم البحر الأبيض المتوسط، مستغلة ما كان يعانيه المغرب آنذاك من تفكك واضطراب وأزمات في أواخر عصر بني مرين[519]. ولم يكن ذلك الغزو حدثا بسيطا، بل إنه شكل منعرجا في تاريخ المغرب، تولدت عنه نتائج سياسية واقتصادية ما نزال نعاني من انعكاساتها السلبية حتى الوقت الراهن. فقد أضحى المغرب بعد ذلك "مِثل العملاق الذي فُقِئتْ عيناه" اللتان كان يطلّ بهما على عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، وحرم بذلك من التواصل مع محيطه المتوسطي، وانكفأ على نفسه لينشغل بفتنه الداخلية عن المجال الحيوي المتوسطي؛ وانقطعت السبل التي كان يمكن أن تصله بالنهضة التي اعتملت في أوربا في القرون الثلاثة اللاحقة. وأدى احتلال المدينة إلى أفول نجمها بعدما أن كانت محجّ تجار أوربا والعالم، وتحولت إلى مجرد ثكنة عسكرية، تعيش على نفقة البرتغال، وأصبحت مصاريف تحصينها والدفاع عنها تثقل كاهل الخزينة البرتغالية[520].

---

518 - لم تتضمن الطبعة الأولى من هذا الكتاب خاتمة أو خلاصة. لأن الكتاب هو مجرد ترجمة لفصلين من أطروحة جامعية شاملة عن مدينة الزقاق، بخلاصاتها وآفاق البحث التي تفتحها. في الواقع، إن أي الكتاب ينطق بما فيه من خلال المسطور من كلماته، مثلما ينطق بما فيه من وراء تلك السطور. إلا أن الملاحظات النقدية لبعض الزملاء الأساتذة أقنعتني بضرورة تضمين هذه الطبعة الثانية خلاصة مركزة، ارتأيت أن أخصصها لانعكاسات فقدان المغرب لمدينته السليبة، وقد أقتبست جل عناصرها من دراسة أستاذنا المرحوم محمد زنيبر، لأنها تعبر عن كثير مما خالجنا ونحن بصدد إعداد هذه الطبعة الثانية.

519 - حول دافع الغزو البرتغالي لسبتة انظر كتابنا : **المغرب وحروب الاسترداد**، تطوان، 2005

520- Jacques Paviot, " Les Portugais et Ceuta 1415- 1437", in *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, Paris, 1998, p., 428-432

ولعل أوضح ما كتب عن نتائج ضياع سبتة وانعكاس ذلك على المغرب هو ما نجده مسطرا بقلم المرحوم الأستاذ محمد زنيبر في دراسته المعنونة بـ " محمو فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط"[521]، والذي نقتبس منه هذه الفقرات الموحية جدا. يقول : " لم يقتصر الضياع على سبتة بمفردها. بل إن التفوق البحري للدول الإيبيرية، بما فيها البرتغال، جعلها تمارس حصارا بحريا صليبيا على الساحل المغربي المتوسطي. ونتج عن ذلك انغلاق السوق الكبيرة التي كانت تتنفس منها التجارة الفاسية ومن ورائها الاقتصاد المغربي، وبالتالي اختلال التوازن الاقتصادي الذي يضمن لمدينتيْ فاس وسبتة مستوى عاليا من الثراء والازدهار قبل القرن الخامس عشر الميلادي.

وهكذا تقلصت سبتة في عهد الاحتلال الأجنبي وخرجت وتحولت إلى مدينة صغيرة، ولم تعرف شيئا من الانتعاش إلا في قرننا الحالي بسبب تجارة التهريب.

[...] إن ضياع سبتة من المغرب أدى إلى كل هذه النتائج السلبية التي كانت، في الحقيقة، مأساة كبرى ما زالت لم تدرس ولم تعرف في كل أبعادها.

وأخطر تلك النتائج تجلت في **إفقار الشمال المغربي** الذي انسدت منافذه وتدنت موارده، وتراجع إنتاجه، وانطوى على نفسه اقتصاديا ليقتصر على إرضاء الحاجات المحلية، أي على سد الرمق. وهي حقائق تظهر لنا، بكل جلاء، من خلال العودة إلى المصادر.

إن ضياع سبتة تلاه **حرمان المغرب من شاطئه المتوسطي**، وضياع مليلية ومراكز أخرى على نفس الساحل. ولم تستطع الدولة المغربية لا في

---

[521] - زنيبر محمد، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، م.س. ص 326 - 327

المرحلة الأخيرة من حكم المرينيين، ولا في عهد الوطاسيين، ولا في عهد السعديين أن تعيد للمغرب مركزه وحضوره في البحر المتوسط. كما أنها لم تعمل أي شيء لتلافي الخسارة الحاصلة في الاقتصاد بالمنطقة، بل إنها واجهت التطورات السلبية الخطيرة باستسلام، فتركت سبتة والشمال لشأنهما، لا نستثني من ذلك إلا بعض المحاولات العسكرية الفاشلة، واتجهت بالنظر والاهتمام إلى الساحل الأطلسي. لكنها لم تستطع أن تعوض الضياع الحاصل من جرأة ضياع سبتة، ولا أن توجد مجالا لنشاط جديد، اللهم إلا ما كان من حركة الجهاد البحري الذي قامت به جماعات من المتطوعين. وبالجملة فالمغرب لم يستفد كثيرا من الواجهة الأطلسية لسببين رئيسيين :

1- تدهور البحرية المغربية وتخلفها تقنيا، وقلة استعدادها لمنافسة البحرية الأوربية الآخذة في التطور والتوسع واختراق البحار العالمية الكبرى.

2- حصار البرتغال وإسبانيا وعدوانهما المتواصل طيلة القرنين 16 م و 17م على شواطىء المغرب الأطلسية، وترتب عن كل ذلك تحول سلبي خطير في تاريخ المغرب الاقتصادي. لقد كان المغرب قبل هاته الفترة يحضر كعضو أساسي في نشاط الاقتصاد العالمي، لأنه كان متحكما في البحار، وكانت له أساطيل ومبادلات ومعاهدات تجارية مع دول البحر المتوسط. فإذا به يحرم من كل تلك الإمكانات والوسائل، وإذا به يضطر إلى الانطواء إلى قبول وضع التهميش الذي فرضته عليه الدول الأوربية القوية الناهضة. **فالتخلف الذي نعاني منه اليوم، ونحاول الخروج منه، يبدأ تاريخه من هذه الفترة بالذات.**

إن ضياع سبتة كان في أصل هذه التطورات الخطيرة وما زال يرمز إليها حتى الآن. إن كلا من سبتة والمغرب يعانيان من الفرقة الحالية. فالمغرب

يفقد الآن في سبتة ميناء جيدا ومدينة تاريخية يعتز بماضيها وأمجادها، وجزءا من ترابه الوطني، كما يتضرر من الدور المراد لها حاليا كمركز للتهريب والتجارة اللاقانونية التي تضرب اقتصاده في الصميم. وأما سبتة، فهي تعاني من كونها مدينة قائمة على أساس غير طبيعي وغير سليم، أساس تطبعه الوضعية الاستعمارية والإرث الصليبي، وتتحكم فيه مصالح لا علاقة لها بمصلحة الشعبين الإسباني والمغربي.

[...] إن تحليل الأحداث التاريخية بكل موضوعية هو الذي قادنا بصورة منطقية إلى لمس مشكل سبتة بالنسبة للمغرب الحالي. فالتاريخ يبين لنا ثلاث مراحل في هاته القضية :

1- مرحلة وجود سبتة جزء من أرض المغرب. وحينئذ قامت بدورها كعامل في تحريك الاقتصاد المغربي وتنشيط المبادلات التجارية.

2- مرحلة وجود سبتة خارج التراب الوطني المغربي بسبب العدوان الاستعماري، وهي التي تبتدأ من سنة 1415م هنا نكشف النتائج السلبية التي منها حصار المغرب عسكريا واقتصاديا وإفقار المنطقة الشمالية، وتدهور مدينتي فاس وسبتة، بحيث تحولت سبتة على يد المستعمرين إلى خنجر مغروس في جسم المغرب، يضعفه ويستنزف دمه، ويتحداه ويهدده.

3- مرحلة استمرار سبتة تحت الحكم الاستعماري، برغم استقلال المغرب وبزوغ عهد تصفية الاستعمار. وقد برزت الآن ضرورة إنهاء هذا الوضع الشاذ المتنافي مع التطور الجاري في العالم نحو التحرر، ومع إقامة علاقات ثنائية بين المغرب وإسبانيا تكون مطهرة من رواسب العقلية الاستعمارية الصليبية القديمة".

لائحة المصادر والمراجع

1) المصادر

- الأزموري، أبو عبد العظيم (ت. بداية ق 9 هـ) : **بهجة الناظرين وأنس العارفين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1343
- الأنصاري، محمد بن القاسم (ت. بعد 825 هـ) : **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 3، الرباط، 1983
- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي (ت. 658 هـ): **التكملة لكتاب الصلة**، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1956 (وطبعة كوديرا، مدريد، 1889-1888؛ وطبعة الدكتور عبد السلام الهراس، مطبعة الرشاد، الدار البيضاء، د. ت.)
- ابن أبي زرع الفاسي، علي (ت. حوالي 741 هـ) : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت. 578 هـ) : **كتاب الصلة**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966
- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل (كان حيا سنة 766 هـ) : **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1983
- البكري، أبو عبيد : **كتاب المسالك والممالك**، طبعة تونس، 1992
- ابن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، الدار العربية للكتاب،1979
- البناهي المالقي، أبو الحسن : **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، بيروت، 1989
- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (النصف الثاني من ق. 6 هـ) : **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971
- التادلي، أبو يعقوب يوسف ابن الزيات (ت. 627 هـ) : **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، نصوص ووثائق، 1، الدار البيضاء، ط 1، 1984
- التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف (ت. 730هـ/1329م) : **برنامج التجيبي**، تحقيق عبد

الحفيظ منصور، ليبيا - تونس، 1981

- التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف (ت. 730هـ/1329م) : **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1975

- التنبكتي، أحمد بابا، (ت. 963 هـ/1036)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، 1989

- الجزنائي، علي : **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1991

- ابن الحاج النميري، إبراهيم بن عبد الله : **فيض العباب وإفاضة قفداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق د. محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990

- ابن الحاج النميري، إبراهيم بن عبد الله : **مذكرات ابن الحاج النميري**، نشرها Al. De Premare تحت عنوان :

Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes de voyage d'un andalou au Maroc, 1344-1345, P.U. Lyon, 1981

- الحموي، ياقوت : **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

- الحميري، ابن عبد المنعم : **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ) : **الإحاطة في أخبارغرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2. القاهرة، 1973

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ) : **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة،(د. ت)

- ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق كمال شبانة، الرباط (د. ت)

- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) : **كتاب العبر...**، دار الكتب العلمية، ج 6، بيروت، 1992

- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) : **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992
- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ) **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**، تحقيق محمد ابن تاويت، القاهرة، 1951
- ابن الدراج السبتي، **الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع**، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، 1981
- ابن رزين التجيبي : **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، تحقيق د. محمد ابن شقرون، ط 1، الرباط، 1981
- الرعيني، أبو الحسن علي (ت. 666 هـ) : **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق إبراهيم شبوخ، دمشق، 1962
- ابن رشد، **مسائل أبي الوليد بن رشد** : تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الدار البيضاء، 1992
- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ن. 708 هـ) : **صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، الرباط، 1993
- ابن سعيد، (أبو حسن علي): **المغرب في حلى المغرب**، الجزء الثاني، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، 1955
- ابن سعيد (أبو حسن علي): **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة - بيروت، ط 2
- السقطي، أبو عبد الله محمد : **رسالة في آداب الحسبة**، نشر ليفي بروفنسال وكولان، باريس، 1931
- ابن سماك العاملي : **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979
- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت 594 هـ) : **المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)**، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، ط 3، 1987
- ابن الطواح، عبد الواحد محمد (ت. بعد 718 هـ)، **سبك المقال لفك العقال**، تحقيق محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995

- العزفي، أبو العباس أحمد (ت. 633 هـ) : **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1989
- العزفي، أبو العباس أحمد (ت. 633 هـ)، **إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد**، تحقيق د. محمد الشريف، المجمع العلمي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت. 749 هـ) : "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**" (مملكة افريقيا ما وراء الصحراء وممالك افريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس) تحقيق د. مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988
- عياض، (القاضي) أبو الفضل بن موسى بن عياض (ت. 544 هـ) : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد أعراب وآخرون، 1983
- عياض(القاضي) وولده محمد : **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، 1990
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد (عاش بعد سنة 712 هـ) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** (قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت- دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985
- ابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله محمد الحاتمي المرسي (ت. بعد 638 هـ) : **رسالة روح القدس**، نشرها آسين بلاثيوس، مدريد غرناطة، 1939
- الغبريني أبو العباس أحمد (ت. 714 هـ) : **عنوان الدراية**، تحقيق عادل نويهض، بيروت، 1969
- الغرناطي، أبو حامد، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1991
- ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين (ت. 799 هـ) : **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1972
- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ) : **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ) : **درة الحجال في غرة أسماء الرجال**، تحقيق أحمد أحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1970

- ابن القطان، أبو علي حسن بن محمد بن الكتامي (ت. 628 هـ) : **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، 1990

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 809 هـ) : **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1968

- القشتالي، أحمد بن إبراهيم الأزدي : **تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان**، تحقيق فرناندو دي لا جرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 17، مدريد، 1972- 1973

- مؤلف مجهول، **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، نشر هويسي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 9-10، 1962-1961

- مؤلف مجهول، **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بثغر سبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1984

- المراكشي، ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت 703 هـ) : **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الخامس، قسم 1.2، حقيق إحسان عباس، بيروت، 1965؛ السفر الثامن، حقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1984

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ) : **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ): **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق دة. سلوى الزاهري. أطروحة دكتوراة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2004، (نسخة مرقونة)

- ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد التلمساني (ت. 1014 هـ) : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، نشر بعناية عبد الرحمان طالب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986

- الماجري، أحمد بن إبراهيم بن أحمد (ت. منتصف ق 8 هـ) : **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح،** ط مصر، 1933
- المراكشي، عبد الواحد (ت. 581 هـ) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العربان ومحمد العربي الخطابي، القاهرة، 1949
- المقري، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ) : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1997
- المقري، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ): **أزهار الرياض في أخبار عياض**، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1973
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي: **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، 1983
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت. 914 هـ) : **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى افريقية والأندلس والمغرب**، نشر محمد حجي وآخرون، ج12، الرباط، 1983

2) المراجع الحديثة

- الأهواني، عبد العزيز، "ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة"، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج 1، 1957
- باشا، نجاة، **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة**، تونس، 1976
- برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب اللإسلامي، الطبعة الأولى 1988
- بنشريفة، محمد، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق محمد بن شريفة، فاس، 1971
- بوشرب، أحمد، "المخططات البرتغالية خلال القرنين 15 و 16"، ضمن كتاب **في النهضة والتراكم : دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ**

محمد المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986

- جيهال، جورج، "جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط"، مجلة كلية الاداب بتطوان، العدد 8، 1997، ص 97-126

- زنيبر محمد، «محور فاس - سبتة وأهميته في العصر الوسيط»، ضمن كتاب: **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ابن مسيك، البيضاء، سلا، 1990

- الطيبي، أمين توفيق، **دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية**، طرابلس، 1989

- الشريف، محمد، **الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية وكلية الآداب تطوان، ط. 2، 1999

- الشريف، محمد، **المغرب وحروب الاسترداد**، تطوان، 2005

- العروي، عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ط.2، الدار البيضاء، 1994

- القبلي، محمد، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، 1987

- القبلي، محمد،"**حول الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط**"، المناهل، عدد 69-70 يناير 2004

- المنوني، محمد، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب الرباط، ط2، 1998

- موسى، عز الدين أحمد، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، بيروت 1983

- نشاط، مصطفى، **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط**، مكتبة الطالب، وجدة، 2005

3) المراجع باللغات الأوربية

- Amari M., *Diplomi arabi del real archivio* fiorintino, Floranza, 1863

- Amran Cohen R., *Ceuta y el mundo cristiano mediterráneo durante los siglos XII y XIII*, Ceuta, 1986

-Arié,(Rachel), L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, (1232-1492), Paris,éd. De Boccard, 1973

- Arié,(Rachel), "Quelque remarques sur le costume des Musulmans d'Espagne au

temps des Nasrides", Arabica, XII. 1965
- Ayache (Germain), "Beliounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", Hespéris- Tamuda, vol. XIII, 1972, pp. 5-36
-Bautier (H.), "Sources pour l'histoire du commerce maritime en Méditerranée du XIIe au XIVe siècle", dans *Actes du IV Colloque International d'histoire Maritime*, Paris, 1959, pp. 137-177
-Bautier (R. M.), "Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du Nord et l'équilibre méditerranéen du XIIe au XIVe siècle", *Bulletin philologique et historique du comité des Travaux historiques et scientifiques*, 1953-1954
- Benhain Mesmoudi R., Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450/1058- 59 à 830/1426-27), Thèse de Doctorat, Paris I, 1994
- Benramdane Zoulikha, Ceuta du XIIIè au XIVè : siècles des lumières d'une ville marocaine, Publications de la Faculté des Lettres de Mohammadia, 2003
- Blancard (Louis), *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age*,2 vol., Marseille , 1884-1885.
- Berque, J, *Les Ulama, fondateurs insurgés du Maghreb*, Paris, 1982
- Bravo. P.J. y Monoz R., *Arqueologia submarina en Ceuta*, Madrid, 1965.
- Burguière A.,"L'anthropologie historique", In. Le Goff. J., (sous la direction de), *La Nouvelle Histoire*, Paris, 1978
- Cahen C., "Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au Haut Moyen Age" *in, les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damas, 1977
- Caillè J., "Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta au XIIIe siècle", *Mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, Alger, II,1957.
- Carrière (Th.),"Les marthyrs de Ceuta",in, Le Maroc Catholique,1924,pp. 132- 136
- Cénival, P. De, "L'Eglise chrétienne de Marrakech", *Hespéris*, VII, 1927
- Cherif M., "Ceuta dans les écrits récents", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VII. 1994
- Cherif M., *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, Paris, L'Harmattan, 1995
- Cherif M., "Notes sur la pêche maritime à Ceuta au Moyen Age", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, N° IV. 1990

- Cherif M., "Notes sur les activités commerciales de Gênes à Ceuta aux XIIe et XIIe siècles", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, VI, 1993
- Cherif M., "Taxes maritimes et autonomie politique à Ceuta", *Revue de la Faculté des Lettre de Tétouan*, VII, 1995
- Chouraqi A., *Histoire des Juifs en Afrique du Nord*, Paris, 1985
- Chovin (Gisèle),"Aperçu sur les relations de la France des origines à la fin du Moyen Age", Hespéris, T. XLIV, 1957, pp. 249- 298
-Cipolla.C.,"Sans Mahamet Charlemagne est inconcevable",Annales ESC,XVII, 1962
- Clément, J. F., "L'historiographie récente au Maroc", Lettre d'information de l'AFEMAM, 2,1987
-Cressier P.(et autres), El urbanismo rural de Belyounech. Una aproximación metodológica a un yacimiento islamico medieval del norte de Marruecos" in Arqueologia espacial.Congreso sobre el Microespacio, Teruel, 1986, pp. 327- 349
- Daroua M., Les oulemas andalous au Maroc aux époques almoravide et almohade, Thèse de 3e cycle, Paris 1, 1988
- Devis,(Jean), "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. XIe- XVe siècles", Revue d'Histoire Economique et Sociale,50 (1972), pp. 42-73; 357-397
- Dhina (A.), Les Etats de l'Occident musulman aux XIIIe et XV siècles, Alger, 1984
- Di Tucci R.,"Documenti inediti sulla spedizione e sulla mahona dei Genovesi a Ceuta", Atti della Societa Ligure di Storia, (Gênes),t. 44, 1935
- Dufourcq, Ch. E.,L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIVe siècles,(de la bataille de Las Navas de Tolosa 1212 à l'avènement du sultan Abu L'Hasan 1331), Paris, PUF,1966
- Dufourcq Ch. E., "Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe Chrétienne et marine musulmane: données connues et problèmes en suspens", Revue d'Histoire et de civilisation du Maghreb, Tunis, 1979, t 1
- Dufourcq, Ch.E, "Aspects internationaux de Majorque durant les derniers siècles du Moyen-age", Nayurqa, IX, 1949
- Dufourcq, Ch. E., "La question de Ceuta au XIIIe siècle", Hespéris, XLII, 1955,

pp. 67- 126
- Dufourcq, Ch. E.,"Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIe siècle, Revue d'Histoire et de Vivilisation du Maghreb, Alger, 1968, pp. 37- 62
- Dufourcq, Ch. E., "Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du Moyen-Age", Anuario de Estudios Medievales (Barcelona), X, 1980
- Dufourcq, Ch. E., "La place du Maghreb dans l'expansion de la couronne d'Aragon: La route maghrebine par rapport à celle des îles et des épices", II Congreso his. Culuras mediterranio Occ.,
- Dufourcq, Ch. E.,"Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XIIIe siècle",Economies et Sociétés au Moyen-Age,Mélanges Edouard Perroy, Paris, 1973
- Doumerc B., "La crise structurelle de la marine vénitienne au XVe siècle. Le problème du retard des mude", Annales ESC. Mai-juin, 1985
- Enamorado, Virgilio M. Epigrafía y poder; Inscripciones áarabes de la Madrasa al-Jadida de Ceuta, Ceuta, 1998
- Ferhat H., Sabta des origine au XIVe siècle, Rabat. 1994, 15,468.
- Ferhat H., "Sabta, état biblographique", Hespéris- Tamuda, 28, 1990, pp. 163-181
- Ferhat. H, "Le pouvoir des fuqaha dans la cité: Sabta du XII au XIVe siècle", In, Saber religioso y poder politico en el Islam, Madrid, 1994, pp. 53-70
- Ferhat. H, "Un monument almoravide : la grande mosquée de Ceuta/ Sabta (approche textuelle), Anaquel de Estudios Arabes, 4, 1993, pp. 77-85
- Fernandes, (Valentin), Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506- 1507), trad. Française par P. de Ceneval et Th. Monod, Paris, 1938
-Godinho,V.M.,*L'Economie de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles*, Paris, 1969
-Godinho,V.M.,*Historia économica e social da expansao portugaisa*,Lisbonne, 1947
- Gois, Damiao de, *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521*, Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal. éd. Et traduction R. Ricard, Rabat, 1937
- Goitien, S. D., *A Mediterranean Society, The Jewish Communities in the Arab Word.*, Berkly, Los Angeles... 1967
- Goittein, S. D.,*Jews and Arabs: their Contacts through the Ages*, New York,

Schochen, 1959
- Goittein, S. D., "The Unity of the Mediterranean World in the "Middle" Middle Ages", *Studia Islamica*, XII, 1960.
- Gordillo Osuna, M., "Continuidad hispánica de Ceuta", *Africa*, N° 246, 1962
- Gozalbes Cravioto, C., *Ceuta en los portulanos medievales*, Ceuta, 1997
- Gozalbes Cravioto C., " El agua en la Ceuta medieval", *Transfretana*, 5, 1993
-Gozalbes Cravioto C., "La demografia de la Ceuta medieval", II *Congreso International El Estrecho de Gibraltar*, (Ceuta, Novembre, 1990), Vol. III
- Gozalbes Cravioto C., "El agua en la Ceuta medieval: obtensión, almacenamiento y distribución", *I Congreso de Historia y Medio Fisico, El agua en zonas áridas : arquiogia e historia*,1989
- Gozalbes Cravioto C, "El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval", *Boletin de la Asociación Española de Orientalistas*, VII, 1981
- Gozalbes Cravioto C., "La judiria y los judios en la Ceuta medieval", *Boletin de la Asociación Española de Oriontalistas,* XVIII, 1982
- Gozalbes Cravioto E., *Notas para la historia de los Judios en Ceuta siglos XI-XVI*, Ceuta, 1988
- Granja, Fernando de la, "Fiestas cristianas en al Andalus", *Al Andalus,* XXXIV,1969
- Hammam, M., "La pêche et le commerce de poisson en Méditerranée occidentale (Xe- début XVIe siècles). Tableau historico-géographique établie d'après les sources musulmanes, in *L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age*, Rabat, 1995
- Hardy, G., Le Maroc, in *Histoire des colonies françaises*, t. III, Paris, 1931
- Hernandez Diaz J., "Los baños arabes de Ceuta", *Academia*, 1978
- Hita Ruiz, J. M. y Villada Paredes, F., *Un aspecto de la sociedad ceuti en el siglo XIV : Los espacios domésticos*, éd. Museo de Ceuta, Serie Minor, Estudios y Ensayos, Ceuta 2000
- Hita Ruiz, J. M. y Villada Paredes, F., "Unas casas merinies en el arrabal de Enmedio de Ceuta", *Caetaria*, n° 1, Algesiras, 1996, pp. 67-91
- Hoover C. B., "The Sea Loan in Genoa in the twelfth Century", *The quaterly Journal of Economic* XI, 1926

- Idris, H. R., "Commerce maritime et kirad en Berbérie oriental d'après un recueil inédit de fatwa médiévales", *J.E.S.H.O.*, 3/4, 1961, pp 225-239
- Jehel G., *Les Génois en Méditerranée occidentale (fin XIe-début XIVe siècle)*, Paris, 1993
- Jehel G., "Gênes et le Maghreb au Moyen-age", *Studi Maghrebini*, (Napoli), vol. XXII, 1990
- Jehel, G., "La mer dans les relations entre gênes et le Maghreb au Moyen Age", *Mesogeios Méditerranée*, N° 7, 2000 (Le Maghreb et la mer à travers l'histoire), pp. 184-200
-Jehel, G., "Jews and Muslims in Medieval Genoa : From the Twelfth to the Fourteenth Century", *Mediterranean Historical Review*, 1995
- Kably M., *Société pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986
- Klaus, Reinhardt, "Un musulman y un judio prueban la verdad de la fe cristiana: La disputa entre Abutalib de Ceuta y Samuel de Toledo". In, *Dialogo Filosofico-religioso entre cristianismo, judaismo e Islamo durante la Edad Media en la peninsula Iberica*, BREPOLS, 1994, pp. 191-212
- Koehler (P. H.), *L'Eglise chrétienne du Maroc (1221-1790)*, Paris, 1934
-Koehler (P. H.), "L'église chrétienne du Maroc et la mission franciscaine (1220-1790)", *Le Maroc Catholique*, 1933, pp. 19- 24
- Koningsveld, P. S. Van, "Christian-Arabic manuscripts from the Iberian Peninsula and North Africa: a historical interpretation", *Al Quntara*, Vol, XV,1994
- Krueger H. C., "Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century", *Speculum,* VIII, 1933
- Krueger H. C., "The Wares of Echange in the Genoese African Trafic of the Twelfth Century", *Speculum*, VII, 1932
- Laroui A., *L'histoire du Maghreb*, I, Paris, 1970
-La Primaudaie (E. de),"Les villes maritimes du Maroc", *Revue Africaine*, n°16, 1872
- Lathan J. D., "*The Stratigic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period*", *Islamic Quaterly*, XV, 1971
- Lévi-Provençal. E., *Histoire de l'Espagne musulmane*, T. 3, Paris, 1950
- Maimonide, *Guide des égarés*, éd. Verdier, Paris, 1979

- Mascarello. A,"Quelques aspects des activités italiennes dans le Maghreb médiéval" , *Revue d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb,* Alger, V, 1968
- Mascarenhas, (D. Jeromino de), *Historia de la ciudad de Ceuta*, Coimbra, 1918
- Mas-Latrie (L. De), *Traités de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-age*, Paris, 1866.
- Martin Lunas, F., *Ceuta, historia de una ciudad española, Malaga*, 1982.
- Mosquera Morino. M, *La señoría de Ceuta en el siglo XIII (Historia política y económica)*, Ceuta, 1994
- Mosquera Morino. M, "Ceuta y Genova: incidencias bélicas siglo XIII, Actas del Congreso international "*El Estrecho de Gibraltar*", (Ceuta. 1987), Madrid, 1988, II, pp. 231-248
- Moulièras, A., *Le Maroc inconnu*, t. II, Paris, 1899
- Pegolotti (F. Di B.), *La pratica della mercatura*. Ed. Allan Evans. Cambridge (Mss.), 1936
- Perlmann M., "Abdal Haqq al Islami, a Jewish Convert", *Jewish Quaterly Review*, XXXI, 1940, pp. 171-191
- Perroy E. (éd), "Encore Mahomet et Charlemagne", *Revue Historique*, 1954.
- Ponish M. et Tarradell M., *Garum et industries antiques de salaisons dans la Méditerranée occidentale*, Paris, 1965
- Posac Mon, C., "Datos para la arqueologia musulmana de Ceuta", Hespéris-Tamuda, vol. 1, 1960, pp. 157- 164
- Posac Mon, C., "La arqueológia en Ceuta entre 1960 y 1970", *Noticiario Hispanico Arqueológico*, XV, 1971
- Posac Mon C., "El acuiducto romano de Arcos Quebrdos", *Segovia y la Arqueologia romana*, Barcelone,1977
- Posac Mon C., *La historia de Ceuta a travès de la numismática*, Ceuta, 1985.
- Posac Mon M. C., "La actividad comercial en Ceuta según los archivos genoveses", in, - *Ceuta en el medievo : La ciudad en el universo Árabe*, II Jornadas de historia de Ceuta, Instituto de Estudios Ceutíes, Ceuta, 2002,
- Posac Mon M. C., "Relaciones entre Genova y Ceuta durante el siglo XII", *Tetuan*. VI. 1958

- Prémare A. L. De, *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes des voyage d'un Andalou au Maghreb (1344-1345)*, Lyon, 1981
- Renouard Y., *Les hommes d'affaires italiens au Moyen- Age*, Paris, 1949
- Renouard, Y., *Les villes d'Italie de la fin du XIe siècle au début du XIVe siècle*, Paris, 1969, II
-Ricard R., La Maroc septentrional au XVe siècle d'après les chroniques portugaises, *Hespéris*, t. XXIII, 1936, pp. 89-112 (Reproduit dans : *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Coimbre, 1955)
- Ricard R., " Contribution à l'étude du commerce génois auy Maroc(1415- 1550), *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, Paris, t. III, 1937, pp. 53-73, (Reproduit dans : *Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc*, Paris, 1955)
- Romero C., *Emigradores andalusies al Norte de Africa y al Oriente Medio, siglos VIII-XV*,Tesis doctoral, Granada, 1989
- Rosenberger B. , "L'histoire économique du Maghreb" *Wirschaftsgeschichte des V. Orients...* Leiden, 1977
- Sayous A. E., "L'activité de deux commerçants capitalistes marseillais vers le milieu du XIIIe siècle", *Revue d'histoire économique et sociale*, VII, 1929
- Sayous A. E., "Les opérations du capitalistes et commerçant marseillais Etienne de Manduel entre 1200 et 1230", *Revue des Questions Historiques*, 1930
- Schiriqui David y Manuel Leria, *Ceuta antigua y moderna*, Ceuta, 1965.
- Slouschz, N., "Histoire des Juifs du Maroc", *Archives Marocaines*, 1906
- Soteo, Fernandez, *Ceuta medieval: aportación al estudio de las ceramicas, (s. X-XV)* Ceuta, 1988.
-Terrasse H,"Quelque remarques sur les édifices de Beliounech", *Al Andalus*, 27, 1963
-Terrasse, M., "Recherches archéologiques d'époque islamique en Afrique du Nord", *Compte rendu de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de 1976*, Paris, 1977, pp. 590- 611
- Tisserant Wiet, "Une lettre de l'almohade al Murtada au Pape Innocent IV", *Hespéris*, VI, 1926
- Unali, Anna, *Ceuta 1415. Los orígenes de la expansión europea en Africa*, Ciudad Autonóma de Ceuta, Archivo Central, 2004

- Valencia. R., "La emigración sevillana a través de Ceuta en la alta Edad Media, *Actas del Congreso Internacional del Estrecha de Gibraltar*, II, 1988, pp. 221-230.
- Vallve, Joaquin, *Contribución a la historia de Ceuta hasta la ocupación almoravide*", (Fac. Letras de Madrid, 1962
- Verlendin Ch., *L'esclavage dans l'Europe medievale*, Bruges, 1955
- Vidiasion, Maria F., "Le Maghreb médiéval: "mercantilisme parasitaire" ou société productrice", *Anaquel de Estudios árabes*, N°3, 1993, pp. 241-246
- Zurara, E. G., *Cronica da tomada de Ceuta por el rei D. Joao I*, éd. F.M. Esteves Pereira, Lisbonne, 1915

الفهرس

المبحث الأول:

القاعدة الاقتصادية لسبتة في العصر الوسيط

المبحث الثاني :

السكان والبنية الاجتماعية

صدر للمؤلف

1- **نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**, منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان, تطوان, 1996

2- طبعة ثانية مزيدة ومنقحة بعنوان : **الغرب الإسلامي : نصوص دفينة ودراسات**. منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان, تطوان, 1999

3- **محاضرات في تاريخ صدر الإسلام**، طنجة، 2001

4- **التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي : مساهمة في دراسة ثنائية السلطة والحكم في النسق المغربي الوسيط**، الرباط، 2004

5- **إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي (قراءات نقدية)**، الجزء الأول، الرباط، 2005

6- **المغرب وحروب الاسترداد**، الرباط، 2005

7-**إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي : قراءات نقدية**، الرباط، 2005

*** كتب محققة:**

8- **إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد** لأبي العباس أحمد العزفي السبتي (ت. 633 هـ). تخريج ودراسة. منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي, الإمارات العربية المتحدة, 1999

9- **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد** لمحمد التميمي الفاسي (تحقيق ودراسة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان (جزئان)، الرباط، 2002

*** باللغة الفرنسية :**

10- ***Ceuta aux époques almohade et mérinide***, édition L'Harmattan, Paris, 1996

*** الترجمة :**

11- **ملحمة الطريس : حقيقة الحماية الفرنسية الإسبانية بالمغرب**، لجان وولف، منشورات جمعية تطاون أسمير، 2003 (380 ص)

*** نسّق وأعدّ:**

-12 كتاب : **المقاومة والحركة المسلحة بمكناس وأحوازها**، للأستاذ بوشتى بوعسرية، منشورات وزارة الثقافة، 2005

-13 كتاب : **مكناس وأحوازها : دراسات في الاقتصاد والمجتمع والمجال** للأستاذ بوشتى بوعسرية، منشورات وزارة الثقافة، 2005

*** كتب جاهزة للطبع :**

- **فتاوى ابن ورد التميمي** (تحقيق ودراسة)
- **مقنع المحتاج في آداب الأزواج لابن عرضون** (بالاشتراك مع د. محمد مفتاح)
- **جنى الجنتين لابن مرزوق الخطيب** (دراسة وتحقيق)
- **تطوانيات... رهونيات : دراسات في التاريخ والحضارة**
- **يهود سبتة في العصر الوسيط** (ترجمة عن اللغة الإسبانية)

هذا الكتاب

... فهي دراسة تتميز بالتجديد المنهجي، وتعكس التعب الفكري الذي يُشترط في كل دراسة جادّة ومجدِدة. كما تتميز بتوثيق متين.

ويعكس تقويم المؤلف للمراجع اطّلاعه الواسع على أحدث الدراسات الأوربية حول تاريخ سبتة، كما طبع تقويمه المذكور بروح نقديّة صارمة.

وربط المؤلف تاريخ سبتة بالمغرب والأندلس وحوض البحر المتوسط، ولكنه حدَد الحقبة المدروسة تحديداً دقيقاً، فقدَم صورة منسجمة ومتكاملة للحياة الاجتماعية والاقتصادية لسبتة الإسلامية، وجمع بذلك بين التوجّهات العامة، والمحاور الدقيقة، كمشكلة الري، وعقود الاستغلال الفلاحي، ومشكلة الضرائب، ومشكل المياه، والسكن، والأكل، واللباس، وغيرها من العناصر التاريخية المرتبطة بالاقتصاد والمجتمع السبتيَيْن، فأخذ الكتاب طابعاً واقعياً.

الطبع: طوب بريس 2006